

الإسلام الممتحن

محمد الحسني

رئيس تحرير مجلة البعث الإسلامي بالهند

تقديم المفكر الإسلامي الكبير

السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي

دار عرفات

(للنشر و الترجمة و التوزيع)

دارة الشيخ علم الله الحسني - راتي بريلي (الهند)

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الخامسة

١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م

60/=

Composed At :

***Nashir* Computers & Printers**
Gwynne Road, Aminabad, Lucknow



بين يدي الكتاب

هذا الكتاب تعود قصته الى ابريل ١٩٥٤م

و ذلك حين نشرت مجلة المسلمون في القاهرة أول مقال
لصاحبه و هو في العقد الثاني من عمره ، تحت عنوان "العالم
الاسلامي على مفترق الطرق" .

و كان أخير ما صدر عن هذا القلم عند كتابة هذه
السطور مقالة عن الامام الشهيد تحت عنوان "حسن البناء في
محراب التاريخ الاسلامي" و هي ضريبة حب أحييت أن
أدفعها - و إن تأخرت - راضيا مسرورا ، و مع ذلك
الفاضل الطويل بين عام ١٩٥٤م و عام ١٩٧٥ الذي ليس

طويلاً بحساب الزمن بقدر ما هو طويل بحساب المد الفكري و
انحساره - جاءت هذه المقالات أو الافتتاحيات التي نشرت
في مجلة "البعث الاسلامي" في أوقات متفاوتة ، و تنوعت
موضوعاتها و ظروفها و ملاساتها ، تضرب على وتر واحد ،
و تربطها رابطة واحدة ، يطيب لي أن أعبر عنها برابطة "الحب
في الله و البغض في الله" .

و ذلك كله دفعني إلى أن أتوجه بهذا الكتاب إلى من
علمني الكتابة و أنشأ في نفسي - إلى جنب والذي رحمه الله -
حب هذه اللغة الكريمة و حب أهلها ، و حب الإسلام و
المسلمين و الاهتمام بشئون العالم الإسلامي الفكرية و
الاجتماعية و السياسية ، و هو عمنا سماحة الشيخ أبي الحسن
علي الحسيني الندوي أطال الله بقاءه ، فتفضل مشكوراً
بتقديم هذا الكتاب .

و الله تعالى أسأل أن ينفع به كاتبه و قارئه ، و يجد فيه
الشاب المسلم الحائر ما يعيد ثقته بهذا الدين ، و يقوى إيمانه
بالله ، و يشرح صدره للإسلام ، و يثبت أقدامه في صراع
الحق و الضلال ، و النور و الظلام .

وقفة قد يقفها القارئ حين لا يرى في هذه المقالات و

قد كتبت في أدق فترة و أخرجها في تاريخ هذه الأمة الحديث
انعكاسا لهذه الحوادث و دراسة لهذه الأوضاع ، و تفسيرا
لهذه التطورات التي شهدتها أرض النيل ، لا سيما اذ أخذت
هذه الحوادث و التطورات " و أبطالها و شخصياتها " بوجه
خاص قسطا كبيرا من وقت الكاتب و قلمه ، و موعدنا مع
هذا الجزء الهام من التاريخ في كتاب مستقل أسميته "مصر
تنفس" و لعلها تنفست ، و لعلها تستجيب ، و موعدنا مع
هذا الكتاب الجديد - اذا شاءت ارادة الله و حكمته و
سمحت مصر الموقرة و سمعت - قريب .

محمد الحسني

لكهنؤ (الهند)

غرة ربيع الأول ١٣٩٥ هـ

تقديم الكتاب

بقلم :

أبي الحسن علي الحسيني الندوي

الحمد لله و الصلاة و السلام على رسول الله .

أما بعد ، فقد بقيت فترة من الزمن ، أتهيب تقديم هذه المجموعة من مقالات ابن أخي محمد الحسيني ، التي أسماها "الاسلام الممتحن" ، و ما كان تقديم الكتب و المؤلفات لمشاهير الكتاب و المغمورين منهم ، بدعا من الأمر ، بالنسبة إلى ، حتى خفت أن يطغى التقديم على التأليف ، و أنهم بالتوسع و السخاء في تقديم الكتب و تصديرها . و ما ذلك إلا لأن الصلة بيبي و بين صاحب هذا الكتاب صلة الأب بالابن و الأستاذ بالتلميذ ، و كنت أشعر - و أنا أحدث نفسي بكتابة هذا التقديم - بأنني أقدم لكتاب من كتبي ، و أتورط بذلك أحيانا في الاعتراف لنفسي بالاجادة و التوفيق و

التهنئة و التقريظ ، و ذلك مما لم تستحسنه الشرائع ، و علم الأخلاق ، و الآداب السليمة ، و تحاشيت عنه بقدر الامكان . ثم حاسبت نفسي على هذا الشعور ، محاسبة أمينة محايدة ، و حللته تحليلا نفسيا ، فوجدت أن نصيب العاطفة فيه أكبر من نصيب العقل، و الخوف من قالة الناس و حديثهم قد غذى هذا الشعور ، و أفاض عليه لونا خلقيا ، و رأيت أنني اذا استسلمت لهذا الشعور ، فقد فرطت في تأدية أمانة و القيام بشهادة ، و الشهادة للأقربين ليست أقل وجوبا من الشهادة على الأقربين ، فان الله تعالى حين يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ اللَّهِ ، و لو على أنفسكم أو الوالدين و الأقربين ﴾^١ فانه يقول كذلك : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ، و اذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، إِنَّ اللَّهَ نَعَمَ يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾^٢ .

ثم ان قصة البيئة التي نشأ فيها الكاتب ، و العوامل التي كونت هذه العقلية التي صدرت عنها هذه الفكرة ، و

^١ سورة النساء الآية ١٣٥ .

^٢ سورة النساء الآية ٥٨ .

الدوافع التي دفعته الى كتابة هذه المقالات ، و التركيب النفسي و المزيج الثقافي الحضاري الذي ورثه عن آبائه ، و تلقاه من مجتمعه ، و الأحداث الجسيمة الأليمة التي وقعت في الوطن الإسلامي الكبير ، فعاصرها و عاشها ، و اكتوى بنارها ، و ساهم في عارها ، لا يحسن حكايتها إلا من شهد فصولها ، و خاض معركتها ، و سائر ركبها ، و قد كان في بعض الأحيان شاهد عيان ، و السابق إلى الميدان .

إن صاحب هذه المجموعة نشأ في بيئة آمنت بأن الإسلام هو رسالة الله الأخيرة الخالدة ، و أنها هو الحق الذي ليس بعده إلا الضلال ، و السعادة التي ليس وراءها إلا الشقاوة ، و أنه للإنسانية كسفينة نوح ، لا ينجو إلا من ركبها و آوى إليها ، و أن نهاية كل من استغنى عنها و اعتصم بجبل ، نهاية ولده الشارد المارد الذي قال ﴿ سأوي إلى جبل يعصمني من الماء ﴾ و كان جواب نوح ﴿ لا عاصم اليوم من أمر الله ﴾ و كان عاقبته أن حال بينهما الموج فكان من المغرقين .

و آمنت بأن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمي القرشي العربي - ﷺ - خاتم الرسل ، و امام الكل ، و منير السبل ، لكل عصر و لكل جيل ، و أن الله قد ربط مصير

العرب بمصير الإسلام ، و عقد ناصيتهم به ، فلا عز لهم و لا سعادة ، و لا نهوض لهم و لا قيادة ، إلا بالانضواء إلى رأيته ، و الانصهار في بوتقة تعاليمه ، و التفاني في سبيله ، و ان أعدى عدو لهم من ينادي بالجاهلية ، و يهتف بالقومية و العنصرية ، أو الوطنية و الاشتراكية ، أو فلسفة من الفلسفات الملحدة ، فيحاول أن يحول بينهم و بين الإسلام .

و آمنت بأن الإسلام وحدة لا تتجزأ ، و منهج للحياة كامل شامل ، و أنه عقيدة و أخلاق ، و سياسة و علم ، و عقل و عاطفة ، و حضارة و ثقافة ، و له موازينه الخاصة ، و قيمه المعينة ، و مقاديره المحدودة ، و مقاييسه المعروفة ، و لا يحتاج إلى تلفيق أو تطعيم ، أو مساومة أو تنازل .

إنه قد عاش في ظلال تاريخ الدعوة الإسلامية ، و قصة بطولاتها و معجزاتها و صنائعها و عجائبها . تتلى في بيته و أسرته الملاحم الإسلامية التي نظمها بعض أفراد أسرته المتقدمين في الشعر الأردني القوي المثير ، مقتبسة من فتوح الشام للواقدي و الأغاني الشعرية الخاصة بالسيرة النبوية و أخبار الصحابة و فضل الحضارة الإسلامية و دور العرب في بناء العالم الجديد . و إنقاذ الانسانية من أعدائها . فامتزج كله

بلحمه و دمه ، و تكونت به عقليته و نفسيته . و أحب
الرسول و أصحابه و العرب حبا لا يمكن تجريده منه في مرحلة
من مراحل الثقافة ، و في فترة من فترات الحياة ، و في بيئة من
البيئات . و أصبح هذا الحب ، و هذه العاطفة ، تلهب
شعوره ، و تدفق قريحته ، و تجري قلمه ، و أصبحت له مصدر
الإلهام و منبع الايمان و الحنان .

إنه ولد في أسرة كان شعارها منذ زمن طويل ، الجمع
بين العقيدة السلفية النقية ، و بين الربانية الصحيحة الصافية ،
و بين الزهادة و العبادة ، و بين بذل الجهد لاعلاء كلمة الله و
رفع راية الجهاد حيناً بعد حين ، و السعي الحثيث في الجمع
بين اشراق القلب و صفاء الروح و قوة العاطفة ، و بين
التفنن في العلوم و الذوق الأصيل للأدب و الشعر . و أورث
كل ذلك من تراث و تاريخ و دم و عرق تقديره لا كسير
الحب و قوة العاطفة ، و سلم بذلك من الجفاف الروحي و
الاستخفاف بالعاطفة و الحاجة إلى تركية النفس و الشحنة
الايمانية الروحية ، الاستخفاف الذي أصبح شعار الكتاب و
الدعاة في عصره ، الذين نشأوا بعيدين عن هذه البيئة الجامعة
و التربية المزدوجة .

إنه نشأ و ترعرع في عصر تغني بشعر اقبال ، و كانت له فيه دولة و صولة ، و هو شعر الحب و الطموح ، و شعر الايمان و الحنان ، و شعر الثقة بصلاحية الإسلام ، و الايمان بخلوده ، فأساغه عقله المتفتح و ذوقه الناشي ، و جعله جزءا من أجزاء ثقافته و أساسا من أسس تفكيره .

إنه نشأ في حجر والد مؤمن جمع بين سلامة العقيدة و قوة الايمان و القلب المتفتح و العقل النير الواسع ، و العلم الحديث الأحداث و حب الواقعية و الجدل ، لا يرى تناقضا بين العلم و الدين و القديم و الحديث ، و قد اقتبس من الثقافتين: القديمة و الحديثة و الغربية و الشرقية ، أفضل عناصرهما و أجهلها ، فمزج بينها مزجا جميلا ، فأصبح برزخا بين بحرين لا يبغيان ، شديد الحب لله و لرسوله و لعشيرته و قومه و للغة و بلاده ، شديد البغض شديد البراءة عن كل ما يخالف الدين الحنيف من عقائد و أعمال و فلسفات و اتجاهات ، عميق الفهم للإسلام ، و وثيق الصلة بمنابعه الأصيلة الصافية ، شديد الغيرة على الإسلام ، عظيم الحب لمركزه و مقدساته ، متقشفا في الحياة الفردية ، متوسعا في فهم القضايا العلمية و الإسلامية ، شديدا في الحدود و النصوص ، مرنا في المباحات

و الاستفادة بالحكمة والتجارب .

ذلكم أخي و أستاذي و مربّي عقلي و ثقافتي ، ذلكم
والد هذا الكاتب العزيز الدكتور عبد العلي بن العلامة عبد
الحي الحسني .

نشأ هذا الشاب تحت ظلال هذه التربية و في حجر هذه
البيئة ، ثم لما عقل و ثقف و عاصر الأحداث ، فتح عينيه
على مجتمع إسلامي حائر بين الإسلام و الجاهلية و الدين و
العلمانية ، قادة الفكر فيه مذبذبون و أولياء الأمور فيه
مضطربون ، و أكثرهم منافقون ، يتخذون الدين حيلة و
وسيلة للوصول إلى أغراضهم ، و اهتاف بالاسلام سلماً
للوصول إلى كراسي الحكم ، و قنطرة للعبور إلى شاطئ
السيادة و القيادة و الركوب على أعناق الشعوب المسلمة
الساذجة التي لا تفهم إلا لغة القرآن و الحب و الحنان ، و لا
تتحرك و لا تتحمس إلا بحكايات الصحابة و أبطال الإسلام و
فضائل الجهاد و الشهادة .

إنه أحب اللغة العربية من صباه ، و حب الصبا شديد ،
و أحب أبناءها و كل ما يمت إليها بصلة ، و كان يتمثل
العرب في قصص الرعيّل الأول للإسلام و طليعة الدعاة و

المجاهدين ، الذين سمع حكايات بطولاتهم و فدائهم في قصائد الملحمة الإسلامية . فآمن بأنهم لا يزالون سائرين على دربهم ، لا يعدلون بمحمد - ﷺ - إنسانا ، و قائدا ، و إماما ، و لا يعدلون بالاسلام ديناً ، و منهجاً ، و بالقومية الإسلامية قومية . فلما صار يعي و يشدو ، و يقرأ و يكتب ، فتح عينيه على كتابات للعرب ، لو كتبت تحتها اسماء الكتاب الأوربيين و المؤلفين المستشرقين و الدعاة المنحرفين لم يكن بعيداً ، و لما كان بين هذه الكتابات و بين شهرة هؤلاء الكتاب و دعوتهم فجوة و منافاة . رأى أن كثيراً من هؤلاء الكتاب العرب ينظرون إلى الإسلام كدين أدى دوره و بطارية قد نفذت شحنتها ، فليس من العقل و الكياسة التشبث به و الدعوة اليه ، و مواجهة الواقع و العصر الراقي بحلوله و احكامه ، و خيرهم من ينظر إلى الإسلام كدين من الأديان الكثيرة و منهج للحياة من مناهجها المتنوعة ، و خير أحواله أن يسمح له بالبقاء في دائرة ضيقة محدودة و في حياة فردية سلمية .

و كان كل ذلك مفاجأة أليمة لم يكن يتوقعها بل لم يكن يتصورها في بيئته التي صورت له الإسلام كدين حي خالد ، خليق به ليقود و يسود ، و العرب كرائد أول و قائد أفضل

لهذه الدعوة الإسلامية ، في مشارق الأرض و مغاربها ، و كانت صدمة عنيفة لعقله و قلبه .

ثم جاءت الفترة الحالكة التي هبت فيها عاصفة القومية العربية الهوجاء في الخمسينات الأولى ، وقع أكثر أبناء العرب و شبابهم و كثير من كهولهم و علمائهم تحت تأثير قيادة ترى التخلص من أثر الإسلام في النفوس و العقول و الحياة الاجتماعية و السياسية أهم و أقدم من محاربة الصهيونية و استعادة المقدسات الإسلامية ، و ترى إزالة هذه الأنقاض أو الركام - على حد تعبيرها - شرطا لبناء المجتمع الجديد ، و إزالة آثار العدوان الأجنبي ، و تحل القومية العربية و الاشتراكية العلمية محل العقيدة الإسلامية و الدعوة الإسلامية ، لها كل ما للدين من إيمان و حماس ، و عصية و حمية ، و تعتمد على الهتافات و الدعايات ، و الدعاوي الفارغة ، ما لا تعتمد على السلاح و القوة الحربية و الروح المعنوية و الإيمان الراسخ ، و كانت فتنة عمياء ، أعمت ، و أصمت ، و سحرت العقول و النفوس ، و قلبت الحقائق ، و أنكرت البديهيات . و كانت موجة عارمة في الشرق العربي ، اكتسحت الصحافة و الأدب و دور العلم و مراكز النشر ،

و ما صمد في وجهها إلا أفراد قلائل يعدون على رؤوس الأصابع . و كانت مجابتهها و نقدها العلمي مثل "كلمة حق عند سلطان جائر" فقد تجاوب معها الشباب المتحمس الطموح ، و الصحافة القوية التي سميت في الغرب بـ "صاحبة الجلالة" .

في كل هذه الظروف و الملابس الدقيقة المشيرة وفي هذه البيئة الحساسة المكهربة ، أمسك الكاتب الناشئ صاحب هذه المجموعة الذي كان لا يزال في شرح الشباب قلمه ليخط مقالات افتتاحية لمجلة "البعث الإسلامي" التي كان يرأس تحريرها على حداثة سنه ، ليعبر عن شعوره الجريح الفياض ، و قلبه المكلوم المتألم ، و يدافع عن الفكرة الإسلامية التي آمن بها و احتضنها ، و أحبها و يذكر العرب بصفة خاصة برسالتهم و بتاريخهم و بمركزهم في العالم ، و ميزاتهم بين الأمم ، و بالدور الذي يستطيع الإسلام أن يمثله في هذه المعركة الحامية ، و الساعة الدقيقة الحاسمة ، و الدور الذي يجب أن يمثله العرب ، على المسرح العالمي الذي أصبح مركزا للمسرحيات الهازلة و التمثيليات السخيفة ، و كانت الأمم و البلاد كرة دائرة و دمي متحركة فيها ، لا تملك ارادة ، و

يذكر المسلمين برسالة الإسلام الأصيلة الخالدة وفضلها وقيمتها والعناصر التي تركبت منها ، و حاجة الانسانية اليها و ينقل اليهم همساتها و دقات قلبها ، حين تراهم قد تخلوا عن مركزهم في القيادة و جروا وراء القيادات الزائفة ، و تطفلوا على مآندتها ، و يدعو إلى الإسلام الكامل الذي يعطي كل ذي حق حقه ، و ينير العقول ، و يشعل مجامر القلوب ، و يهذب الاخلاق ، و ينظم الحياة ، و يضبط الأمم ، و يقود المدنية ، و يشعل المواهب ، و ينشئ الرجال ، و يربي القادة و العباقر ، لا هو جاف خشيب ، و لا هو رقيق مائع ، و لا هو رهبانية و هجر للدنيا ، و لا هو مادية و نهامة للحياة ، انما هو الدين الذي جاء به محمد ﷺ - و نطق به القرآن ، و تمثل في حياة الصحابة ، و القرون المشهود لها بالخير ، و التابعين لهم باحسان ، من الجامعين بين العقل و القلب و العقيدة و العمل ، و الجهاد و الربانية .

و كان متأثرا في كل ذلك بطبيعة الحال بالبيئة التي نشأ فيها ، و دعوة المجدد الكبير و المجاهد العظيم السيد الامام أحمد بن عرفان الشهيد الذي كان من سلفه و عظماء أسرته

في الماضي القريب^١، و بفكرة "الاخوان المسلمون" و رائدهم الامام الشهيد حسن البنا الذي تعرف به و أحبه عن طريق عمه كاتب هذه السطور ، الذي كانت له صلات و ثقة بأصحاب هذه الدعوة و زملاء الفقيه الشهيد و تلاميذه النجباء ، فتجلى تأثير كل هذه العوامل القوية و الدراسات العصرية و مطالعة الكتابات الإسلامية التي أنتجتها هاتان الحركتان القويتان ، في المقالات التي كتبها بين آونة و أخرى، و تتكون بها هذه المجموعة .

و أحدثت هذه الجوانب المتناقضة - جانب تربيته و دراسته الإسلامية و جانب الواقع المرير و المشاهد القاسي - صراعا في نفسه حول قلمه إلى شلال يتدفق بقوة ، و ينحدر بقوة ، فصدرت هذه المقالات ، في أسلوب قوي ملتهب ، هو نتيجة كل صراع نفسي ، رافقته قدرة بيانية ، و قلم سيال رشيق ، و ثروة لغوية ، و هذا الأسلوب له قيمة في إيقاظ الشعور و في تحريك النفوس و العقول ، و محاربة "مركب النقص" و إعادة الثقة بصلاحية الرسالة و الأمة و الاعتزاز

^١ ليراجع للتفصيل كتاب "إذا هبت ريح الايمان" لكاتب هذه السطور طبع دار الرسالة ، بيروت .

بالقيم و المفاهيم ، خصوصا اذا كان مدعما بالدلائل و الوثائق ، و مسلحا بالشواهد و التجارب ، و هي طليعة كل اصلاح و انقلاب ، و رائد كل نهضة و تقدم ، و هو الأسلوب الذي استعان به الخطباء و الكتاب في العصر الإسلامي الأول و استعان به السيد جمال الدين الأفغاني و صاحبه الشيخ محمد عبده في مقالات "العروة الوثقى" التي أشعلت العالم الإسلامي حماسا و حمية و حملت الحكومات الغربية الاستعمارية على منع دخولها ، في الأقطار التي كانت تحكمها ، و لعبت دورا لا يستهان بقيمته في إيقاظ الشعور الإسلامي و إيجاد الوعي السياسي.

مع هذه السمة البارزة لهذه المقالات فانها تدعو إلى التأمل العميق ، و تغذى الفكرة ، و تفتح آفاقا جديدة للفكر الإسلامي ، و تزود العاملين في مجال الدعوة و الفكرة الإسلامية ببعض معلومات جديدة ، و وثائق و حقائق عن الحضارة الغربية ، و الفلسفات المادية ، و مدى إفلاس الغرب و اختياره و سآمته و خوائه الروحي ، و ما يعانيه من أزمات و عقد و مشكلات ، فإن الكاتب يعيش في بلد قد اکتوى بنار الغرب ، و خاض المعركة الفكرية الحضارية السياسية التي

قامت وحميت في شبه القارة الهندية ، ثم خرج منها الشعب المسلم محتفظا بجزء كبير من شخصيته ، معتزا بحضارته و قيمه ، خبيرا بمواضع الضعف في الغرب و مساويه ، و قصة فشله و إخفاقه ، في حل القضايا المعاصرة ، فأكسبه كل ذلك ثقة بدعوته ، و قوة في كتاباته ، و قيمة لما يقول و يدعو اليه .

في ضوء قصة هذه البيئة و التربية و الأحداث و التجارب ، و الميول و العواطف ، و الأهداف و المثل ، و صدق النية و حسن القصد ، ينبغي أن تقرأ هذه المقالات التي كتبت في أوقات شتى تحت عناوين مختلفة تجمع بينها وحدة هي وحدة "منهج الفكر الإسلامي السليم" و الدعوة إلى الحق و إلى الصراط المستقيم .

أبو الحسن الندوي

العالم الإسلامي على مفترق الطرق

كتبنا هذا المقال في أوائل عام ١٩٥٤م و نشر اذ ذاك في مجلة "المسلمون" و ها نحن نستهل به هذا الكتاب و نكرر هذا الرجاء مرة ثانية فالأمر غمة و الطريق واحد فهل يستجيب العالم الإسلامي لهذا النداء و يحقق هذا الرجاء و هل يعود إلى رشده و صوابه و سبيل ربه ؟

هذه الفترة من الزمن التي يجتازها العالم الإسلامي بوجه عام و العالم العربي بوجه خاص ، فترة خطيرة ذات أهمية في تاريخ المسلمين ، انها ساعة لا تتوفر أمثالها في تاريخ الأمم و الشعوب ، و في امكانية العالم الإسلامي اليوم أن يؤدي واجبا ضخما نحو الانسانية ، و يلعب دورا هاما في حقل السياسة العالمية ، و يغير مجرى التاريخ ، و يحول القيادة من الجاهلية الآثمة إلى الإسلام السميع العادل ، و يحقق ذلك الغرض الأكبر و الهدف الأسمى الذي بعثت له تلك الأمة الإسلامية ، ان ذلك يقتضي سرعة لكن بحيلة و حذر ، و يطلب شهامة و اقتحاما و لكن بعد تأمل و تريث ، و يحتاج إلى هحوم عفيف على غريمه و الانقضاض عليه كما ينقض الصقر على الطير و

الأسد الجائع على الشاة و لكن مع اكتمال رصيده الايماني و
الروحي ، و استعداداده المادي و الحربي ، و تنظيمه العلمي
الجديد ، و توحيد صفوفه الموزعة ، و هذا هو الذي قد فات
العالم الإسلامي في أحيان كثيرة ، فسقط صريعا أمام ثورة
العقل و الفكر ، و معجزات البطولة و الاختراع ، و قوة
الحديد و النار ، و لمعان المدنية المتطرفة

و كفى أن العالم الإسلامي اليوم ، نال مكانة عظيمة في
خريطة العالم، و بلغ من الأهمية الاستراتيجية ما لم تبلغه الدول
الأخرى على وجه الأرض ، و ملك من ينابيع الذهب الأسود
الذي يسير عجلة الحياة الصناعية في العالم و من القوي التي لم
تخرج و لم تنتج ، و من المجموعة الانسانية التي لم ترب و لم
تثقف ما جعله في كفاية و غناء عن أي استيراد من الخارج

و ثانيا و هو الأهم من ذلك كله : أن المجتمع البشري
اليوم قد سئم و مل و يئس - أقر بذلك أم لا - من منبع
أوربا الذي فقد زيته و آن أوانه و انقضى عمره ، و جف
ماؤه ، و لم يستطع خلال كل هذه النهضة الهائلة الطويلة ، أن
يضيف إلى رصيده الانسان إلا الحديد و النار و البارود و
الدخان ، و القنابل المدمرة ، و الغازات السامة ، و الآلات

المبيدة ، إلا الضمير الذي اعتاد الجريمة و تعود العصيان و التمرد ، و نشأ فيه ميل أكيد و رغبة جارفة إلى الاثم و الفاحشة ، ضمير لا يؤمن إلا بالنفعية و يؤثر العاجل على الآجل ، حتى ان المدنية و الثقافة و الفن و الحضارة التي نقرأ قصصها و رواياتها كأنها روايات الجنة أو قصص الجزيرة الخيالية UTOPIA للسير مور ، من الحرية و الإخاء و الصداقة و عدم السرقة و الخيانة و انجاز الوعد ، و النزاهة في الحياة اليومية ، كل ذلك تابع لمبدأ النفعية ، و قد صدق من قال : ان الغربي لا يصوم اذ يصوم ليرفع في روحانيته و اشراقه ، انه يصوم ليقوى هيجانه و شهوته إلى الطعام ، انه يربى بنى وطنه و اخوانه و يعلمهم و يثقهم ، لا لأن يكونوا قدوة للناس ، و أئمة يدعون إلى الهدى ، بل ليقروا على استعمار الأمم و الشعوب و هضم الحقوق و انتهاك الحرمات و المقدسات ، و شراء الأسواق ، و يريدون علوا في الأرض و فسادا ، فبينما ترى الغربي صادقا في وعده اذا حدد الموعد مع رجل فلا يتأخر دقيقة واحدة ، اذا هو يكذب فاضحا بدون حياء و يخدع بدون انسانية في فلسطين و في كل بلد شرقي ليس له به علاقة الدم و اللون ، و بينما هو يتجنب سرقة فلس Peny في

مملكته ، يراه الناس سارقا غاصبا في الشرق ، مستخدما في ذلك كل وسيلة مهما غرقت في الدناءة و الاسفاف ، و موجر القول ان المدينة الغربية قد افتضحت في قارعة الطريق، و ظهرت علائها و سوءاتها أمام العيون في وجه النهار ، و هذا هو الجو العالمي و الاوضاع المحيطة بالعالم الإسلامي ، وصلت بالعالم الإسلامي إلى مفترق الطرق ، و أخذت بيده في جادة الامتحان .

و انها تكون من الخيانة المردية و الجناية العظيمة أن تقف الأمة الإسلامية التي تملك رسالة السماء و تحمل في يدها مشعل الهداية موقف المتفرج أو المتطفل ، و تخلع هذا القميص الذي كساها الله من قيادة الأمم و اقامة الوصاية الالهية على الأرض و توجيه المجتمع البشري ، فاذا عقد العالم الإسلامي نيته أن يتحرر من عبودية النفس و نير الاستعمار ، و ينقذ ملايين الملايين من الناس من عذاب الذل و الهوان ، و يخلص الانسانية من أعدائها و يمسح دموعها ، و يأخذ بيد المجموعة البشرية المنتشرة على الأرض إلى أفق أوسع و أرحب ، و حياة أنعم و أرغد ، و فوز في الدنيا و الآخرة ، فهو يحتاج إلى جهاد طويل ، و كفاح شاق مرير ، و توضحيات واسعة

النطاق ، و يتطلب خبرة نادرة و تربية دقيقة ، و لكنها تتفق مع رسالتها ، بل هي عين رسالتها و غرض بعثها ، و حجر الزاوية التي يرتفع عليها الصرح الإسلامي

إنها تقتضي قبل كل شيء نفخ الايمان الجديد ، و الروح الجديدة الوثابة ، و الفكر الإسلامي الجريئ الشائر ، في جماهير العالم الإسلامي ، لا سيما في الشباب ، و محاربة مركب النقص في قلوبهم الذي أكلهم و طغى عليهم من أجل التبشير و الاستعمار ، و التعليم و التربية اللذين يتفقان مع روح الغرب و آرائه ، و وضع نظام تعليمي حر يتفق و مطالب الإسلام ، و يبنى على حقائقه الخالدة التي لا تتغير و لا تتأثر ، و أن يقبل كل صالح جديد فالحكمة ضالة المؤمن حيثما وجدها فهو أحق بها ، و يخرج فوجا جديدا ، جديدا في روحه ، جديدا في فكرته ، جديدا في إيمانه ، فهذا هو الشيء الذي ينقص المجتمع البشري اليوم ، مع امتلائه من كل جديد و طريف ، و من كل نادر و غال .

أما عن التعليم و التربية فقد يجب علينا أن نختار موقفا حاسما تجاه علوم الغرب ، و نأخذ منها ما ينفع و الذي أعطاه سيدنا محمد ﷺ اسم "العلم النافع" فالعلم الذي لا ينفع و لا

يفيد ليس علما من وجهة نظر الإسلام وإنما هو قتل الوقت الثمين الذي يجب أن يبدل في ميدان الدعوة والجهاد ، و الهداية والارشاد ، فاذا قررنا الفلسفة الغربية الحديثة في منهاج التعليم كنظرية دارون و فرويد ، و اقتصاديات هيجل و ماركس ، و فلسفة التفسير المادي للتاريخ مثلا ، فاننا نضعها منا موضع النقد لا موضع التقديس كما هو الحال اليوم في العالم الإسلامي كله ، أما تفاهات الفلسفة التي تعني بالغيب و ما بعد الطبعيات ، و تريد أن تطلع على ألغاز الكون التي لا يعلمها إلا الله و تعالج أمرا ليس في قدرتها ، فهو في نظرنا لا يقل عن جهالة علماء اليونان و الرومان في شيء ، و حكمنا في كليهما واحد ، ويجب علينا أن لا نضيع وقت أبنائنا بهذه السخافات التي لا تتصل بالعمل و الحياة وإنما الشيء الذي يهمنا هو مجرد علم الطبيعة Exact Science و التعلم التطبيقي Applied Science و عليه تركز قوتنا ، و نضعه في الصف الأول و نعطيه أهمية كبيرة في نهضتنا الصناعية و العلمية الجديدة ، و بالعلم التطبيقي وحده يستطيع العالم الإسلامي أن يقوم بأعبائه كاملة .

أما الصناعة بأوسع معناها فانها أيضا تتوقف على العلم

التطبيقي ، و هو أمر مهم جدا ، و لعل الأهم منها "الصناعة الحربية" في الوقت الحاضر ، عدا الصناعات الأخرى التي يجب علينا أن نحذقها ، و نضعها في محل الصناعات التي نستوردها من الخارج ، و الصناعة الحربية تتطلب اهمية كبيرة و مهارة فنية و دقة و حذاقة ، بحيث لا تقل في صورتها و سيرتها عن صناعة الدول الأخرى ، بل تفوقها ، فنؤسس مصانع هائلة لصنع الطائرات و القنابل و الدبابات الثقيلة ، و ندرب قواتنا على أحدث الخطط الحربية ، و المعادن و الكنوز و الذخائر العظيمة المنتشرة في العالم الإسلامي بأسره تجعلنا في غناء عن الأجانب

و هنا شيء آخر أهم ، و هو أن نقيم علاقاتنا التجارية و الصناعة بدول الشرق بدلا عن دول الغرب و نتبادل بها المصنوعات و البضائع ، فالشرق بالطبع -و كل يعرف ذلك- صديق لنا و صاحبنا ضد الاستعمار ، و هو أيضا يريد ان يتخلص من برائته و يتحرر من عبوديته و يعيد مجده و يحفظ كيانه ، و كذلك نستطيع أن نحفظ أنفسنا من دسائس المستعمرين و مؤامراتهم إلى حد كبير ، و نكسب اصدقاء حددا ربما يكونون أقرب نسبا و أكبر نفعا من أعدائنا

القدامى، و نحصل على تأييدهم و مؤازرتهم في معركة التحرير
و لا شك أننا اذا كسبنا صداقة الشرق و وده و قامت بينه و
بين العالم الإسلامي علاقات وطيدة و أواصر قوية ، فانه يكون
فتحاً جديداً ، و نصراً كبيراً للشرق الإسلامي .

و من الواجب عليّ أن أشير بصراحة إلى أنه لا يصلح
أمر العالم الإسلامي اذا بقي الشعب ساخطاً على الحكومة ، و
الحكومة ناقمة من الشعب ، بل لا بد هنا من تعاون رجال
الإصلاح و الدعاة ، و المبشرين و المنذرين ، و لا يمكن ذلك
إلا اذا صلحت النية و صحت العزيمة ، و اتحدت الغاية ،
فعلى كل واحد منا أن يعمل في حقله و يؤدي حقوق صاحبه
و لا يبتغي رضا أحد ، و لا يرجو من رجل كلمة خير ، انما
هو يعمل لله ، و هو وحده يجزيه بجهاده ﴿ و من عمل صالحاً
فلنفسه و من أساء فعليها ﴾ .

و من الواقع المؤلم أن تاريخ العالم الإسلامي بعد الخلافة
و الرحمة ، يبدو كأنه تاريخ صراع بين رجال الشعب و رجال
الحكم ، مع أنهما ركاب سفينة واحدة و توأمان لا يفترقان .
إن الفراغ الذي حدث في قيادة الانسانية اليوم فراغ
رهيب ، و لكنه فراغ لا يستطيع أن يملأه أحد إلا العالم

الإسلامي ، لأن العالم الإسلامي هو وحده مصباح الهداية و
الإرشاد في بحر الظلمات انه يحفظ في وعائه إيماننا أفلس فيه
الشرق و الغرب ، و دستوراً لا يقبل النسخ و النقد ، و
تاريخاً ناصعاً لا تضارعه فيه أمة ، و حكمة ربانية هي مفتاح
كل قفل و حل كل مشكلة ﴿ تنزيل من حكيم حميد ﴾ و
ذلك في حين فرغت فيه يد الإنسانية من كل مثل عال ، و
تعليم خلقي ، فلا ترى في وعائها إلا قطعة من حجر أو شذرة
من ذهب .

اسلام "المسالمين"

نحن كلنا مع الإسلام ، ما في ذلك شك ،
نحن مع الإسلام دائما ، و بصفة عامة ، و الحمد لله
على هذه النعمة العظيمة ، الباقية ، إن شاء الله .
و لكن ... لسنا مع ذلك الإسلام الذي لا تضره حركة
سياسية و لا تنال منه دعوة اجتماعية " و انطلاقة ثورية " ، و
لو خالفت أهم قواعده و أولى مقوماته ، و ينسجم مع سائر
الأوضاع و الملابسات و لو عارضته من أول الطريق و بداية
الخط

بين اسلام "مضمون" عقد عليه في شركات التأمين ، فلا
تفسده خيانة ، و لا يفسده نفاق ، و لا يضره استهتار ، و لا
ينال منه اسراف ، و لا يكدر بحره الزاخر فجور ثقافي ، و
خلاعة أدبية و فضيحة فنية ، و عرى علمي ، و كفر منطقي ،
و انكار قومي ، و شذوذ سياسي ، لأنه اسلام مضمون
مسجل ، شهد بسلامته و متانته و جودته " كبار تلاميذ
الغرب و وكلائه الموزعين في الشرق " .
إنه اسلام يسمى فيه المولود مسلما بحكم القانون و

الوراثة ، و يبقى مسلما ليتمتع به بما شاء من منافع مادية و
أدبية ، و لا يحتاج إلى تجديد في إيمانه ، لأنه ولد من أبوين
مسلمين و كفى .

انه اسلام جامد ، واقف ، لا ينقص و لا يزيد ، و لا
يتحرك ، و رحم الله البخاري فقد عقد بابا تحت هذا العنوان
" الايمان يزيد و ينقص " و هو لا يعلم أن في بلده و في البلاد
الإسلامية العريقة قوما لا تضرهم اشتراكية ماركس الملحدة ،
و كفر لينين البواح ، و لا ينقص ايمانهم بشئ من هذه
الأشياء . و غير هذه الأشياء .

إنه إسلام سلمي ، لا يتدخل في شئون المجتمع و الحياة ،
بل يترك الحبل على غاربهِ ، و يدع جيله تحت رحمة الموجات
المادية الطاغية و الأفكار السامة ، و الأدب المائع ، فيترك
المجتمع فريسة سهلة و لقمة سائغة أمام ذئاب الإنسانية و
وحوش الحضارة ، و قراصنة السياسة ، و لصوص الدين و
الأدب ، و يظن أنه سينجو بنفسه و بأبنائه ، و يقول كما قال
ولد سيدنا نوح عليه السلام ﴿ قال سأوي إلى جبل يعصمني
من الماء ﴾ ثم لا يلبث أن يجرفه التيار المارد العنيف ، و
تسوقه هذه "السلبية البريئة" إلى كل ما عافه ، و استنكفه ، و

مقتة ، و محه ﴿ و حال بينهما الموج ، فكان من المعرفين ﴾ .
 إن هذا الإسلام يعيش جنبا إلى جنب مع كل كاتب
 يبيع الهوى و ينشر المكر ، و يروج بضاعة الفحشاء ، مع كل
 أديب يحسن الكتابة ، و يجيد الوصف ، و لو تطاول على
 ذات الله عز و جل ، و مقام الرسول ﷺ ، و يستمع بكل
 أناة و صبر و شرح صدر إلى كل حوار لبق و كلام شيق ، و
 حديث حلو ، و لو كان حالقا للدين ، ماحقا للإيمان ، هادما
 للأخلاق ، و ينظر إلى كل صورة على الشاشة و لو ذهبت
 بالحزم و الحلم ، و اللب و العقل ، و أطار الإرشاد و
 الصواب.

هذا الإسلام يمشي مع سائر التقلبات و الموضات
 الفكرية و المذاهب الاجتماعية و السياسية ، و الحركات
 التقدمية الثورية ، في الهند الصينية أو في أمريكا اللاتينية ، و
 مع كل فريق من المغنين و المصورين الهائمين و الحلمين ، و
 الشذاذ الأفاقين ، لأن "يمشي" هذه "الكلمة السحرية" تضع
 في يد هؤلاء القوم "ورقة مرور" يتعدون بها كل حد ، و
 يحطمون بها كل سياج ، و يهيمنون بها في كل واد و ناد .
 إنه إسلام "المسلمين" لا المسلمين ، في تعبير أصح و

أفصح ، لأنه يسالم جميع الألوان و الأنواع الحضارية الموجودة في العالم المعاصر ، و يتبع كل سبيل غير سبيل الرشـد .

إن هذا الإسلام لا ينقص بالتهاون في حقوق الله ، و الاستهانة بشعائر الدين ، فاذا وقع عنده صدام بين عبادات و أعمال سياسية و اجتماعية ، طغت الأعمال السياسية على العبادات و الصلوات ، و لذة التقرب إلى الله و الدعاء و المناجاة ، و اذا حدث له شئ أو شغله أمر من تحرير في صحيفة أو خطاب في حفل ، أو قيادة لموكب ، أو رفع لمذكرة احتجاج ، أو قضية في برلمان ، أو حديث في مأدبة ، و مسامرة في عشاء ، أو نزهة في حديقة ، و حتى فنجان شاي بين الأصدقاء ، نسي ما عليه من حق الله ، و هو في دوامة الأشغال و النشاطات ، و في المشكلات و الأزمات أولى بالطاعات و أحق بالدعاء و التضرع و المناجاة ، و أحوج إلى العبادة و العبودية من الأوضاع الهادئة و الظروف العادية ، فلا اعتبار بطاعة لم تصطدم بما يهواه الطبع ، و عبادة لم تشق على النفس ، و لا قيمة لكأس لم تطفح ، و عين لم تفض .

إنها درجات في الإسلام ، و لكنه على كل حال إسلام "المسلمين" ، أما إسلام المسلمين فهو لا يقبل "على ما يرام" و

لا يؤمن بمبدأ "الدين للديان و الوطن للجميع" و لا يجمع بين الخطب الدينية في المحافل ، و الترفيه بالبرامج العارية الراقصة ، الفاسدة المفسدة بعد صلاة العشاء بين أولاده و أفلاذ أكباده .
 إنه لا يؤمن بالجمع بين حضارة الغرب و عقيدة الإسلام، و بين الزي الإسلامي و الحياة الأوروبية ، و الجمع بين الحديث و القرآن و أفكار لينين و سارتر و ماوتسي تونغ .
 إنه لا يؤمن بالجمع بين عبد الباسط و أم كلثوم ، و الجمع بين المصاحف المرتلة و الموسوعات الفقهية ، و أغاني صباح ، و فيروز و شادية، أو الجمع بين "المتجمع" و "البلاغ" و "البعث الاسلامي" و بين "روز اليوسف" و "الموعد" و "الطليلة" .

إنها صورة جزئية ، و صورة بسيطة ، و أمور ليست بذات أهمية عند البعض ، و لكنها تصور ذلك الإسلام الذي أشرنا اليه كل التصوير ، إسلام من "ماركة ممتازة" لا يؤثر فيه شيء ، و لا يعثره البلى و الوهن ، و لا ينقص بنقصان شرع و دين و مسألة و استسلام أو انسياق تام مع تيارات المادة و المعدة ، و اتجاهات الغرب و الشرق ، و اليمين و اليسار .
 نحن مع الإسلام في كل مكان ، ما في ذلك من شك ،

نحن مع الإسلام القائد ، السائد ، المعلم ، الموجه ، و ..
مع الإسلام المستقل الأصيل لا الإسلام التابع ، لا الإسلام
الذي يتلقى الأوامر والتعليمات من "الباب العالي" في
موسكو ، و "البيت الأبيض" في واشنطن .

مع إسلام لا ينكر العلم و السياسة ، بل إن العلم و
السياسة فيه عبادة ، و لا يهمل الطاعة و العبادة ، فهي مفرع
المؤمن و مأمنه ، و حصنه و معقله ، و أكبر همه و غاية مناه .
مع اسلام مناضل مكافح متصل الحلقات بجميع أجزائه ،
وثيق العرى بجميع حركاته و تنظيماته ، عميق الحب بجميع
أبنائه ، كثير الاعتراف بالفضل ، عظيم التقدير لذوي الكفاية
و الاخلاص ، كثير الشكر على المساهمة و التعاون ،
هذا الإسلام العميق الواسع ، المشرف النير ، الكامل
الشامل ، الأصيل المستقل ، المكافح المناضل .

الإسلام الذي يتكلم و لو كره الصليبيون الجدد ،
الحمير ، و البيض ، و الصفر ، و يرفع صوته لتنظيم المجتمع و
الحكم ، و الأسرة و العائلة على أسس نقية واضحة من
السيرة الطاهرة ، و الشريعة الخالدة ، و الكتاب الذي لا يأتيه
الباطل من بين يديه و لا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

هذا الإسلام هو العنصر الأقوى في معركتنا الكبرى ،
وردنا الحاسم على هوة الفساد ، و دعاة الانحلال ، و
المتآمرين على سلامة البلاد ، و نعمة الأمن و الهدوء باسم
الحرية و العلم و التقدمية و الاشتراكية و الثورية .

طبيعة هذا الدين

هذا الدين في أساسه ثابت لا يتغير ، كامل لا ينقص ، كل لا يتجزأ ، انه لا يحتاج إلى تطوير و لا يقبله ، و لا تؤثر فيه الأحداث الاجتماعية و التطورات الحضارية و الانقلابات الفكرية و الثورات السياسية ، أيما تأثير ، لأنه بني على الوحي السماوي ، و تنور بنور كتاب الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه ، و عاش تحت ظلال النبوة التي لا دخل فيها للآراء الإنسانية التي تخطئ و تصيب ، و التجارب العلمية التي تنجح و تفشل ، و الأفهام البشرية التي تختلف مداركها و مستوياتها ، و قد صور القرآن نفسية هذا الدين و طبيعته ، و ثباته فقال : ﴿ و مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت و فرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين باذن ربها ، و مثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ، يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا و في الآخرة ، و يضلل الله الظالمين و يفعل الله ما يشاء ﴾^١

^١ ابراهيم : ٢٧ .

و قال في موضع آخر :

﴿ و تمت كلمة ربك صدقا و عدلا لا مبدل لكلماته و

هو السميع العليم ﴾^١

إنه وصف الدين بالثبات و القرار و وصف المذاهب الأخرى بالزوال و عدم الاستقرار كنقطة فاصلة بينهما ، لأن هذه المذاهب الوضعية و الصناعية و السطحية لا جذور لها في داخل الأرض و ليس عندها إلا ما يبدو للناس في ظاهر الأرض من زخرف القول غرورا ، و ذلك عبر عنه القرآن في موضع آخر فقال : ﴿ فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا ﴾^٢ .

إذاً كيف نقول : إن الدين يتطور مع الزمن ؟ و الجواب أنه يتطور كما تتطور الشجرة المباركة ، الحية النامية ، مع المحافظة على أصلها و جذورها ، إن الله سبحانه لم يشبه هذا الدين في ثباته و استقراره بصخرة صماء لا ثمر فيها و لا مرونة ، و لا حياة فيها و لا خصوبة ، و لا نعومة فيها و لا جمال ، بل إنه - كما وصف كتاب الله - شجرة طيبة أصلها

^١ الأنعام : ١١٦ .

^٢ النساء : ٧٦ .

ثابت و فرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ، و ذلك دليل باهر من دلائل الإعجاز في القرآن ، و استيفاء هذا الدين جميع حاجات الإنسان في كل زمان و مكان .

فما هو الأصل الثابت في الدين الذي لا يقبل التغيير و النسخ و التبديل في أي حال من الأحوال ، ثم ما هو أكله الذي يتغذى به الأصل و ينمو على أساسه و يستقي الماء و الخصب بهذا الأصل الثابت و النبع الصافي العميق ؟ و الجواب أن أصله الثابت هو التوحيد ، و العبودية الخالصة لله ، و الايمان بالغيب و النبوة و اليوم الآخر .

أما أكله فهي الدرجات التي ينالها المؤمنون - بفضل من الله و رحمة - في الدين و التقوى ، و العلم و الحلم ، و الايمان و الاحتساب ، و حسن البلاء في الدعوة و الاصلاح ، إنها النفحات الالهية ، و العلوم الربانية ، و المعارف الدينية ، و الجهاد و الاجتهاد لنشر رسالة الإسلام في الآفاق ، و إجراء شرائعه على البلاد و العباد ، و الذب عن حوزة الشريعة الغراء ، و صيانة هذا الدين من "تحريف الغالين و انتحال المبطلين و تأويل الجاهلين" .

إنها المحافظة على نقاء الإسلام و صفائه ، و أصالته و

استقراره ، و إزالة الغبار عن جوهره ، و الوفاء به ، و الولاء له ، و الثبات عليه ، و الاستماتة دونه ، و ايثاره على كل ما عداه من مذاهب و ديانات ، و نظم و حركات ، رضي الناس أم سخطوا و اقبلت الدنيا أم أدبرت ﴿ درجات منه و مغفرة و رحمة و كان الله غفورا رحيمًا ﴾^١

هذا هو الأساس المقرر الثابت في الإسلام ، المفهوم المعلوم عند الصحابة الكرام ، و المسجل المضمون في الحديث و القرآن ، و المطلوب من العبد المؤمن الذي لا يتغنى غير وجه الله و لا يجري وراء أهوائه و شهواته ، و ميوله و نزعاته، أن يعض على هذا الأساس بالنواجذ ، فهي المحجة البيضاء التي ورد ذكرها في الآثار على لسان رسول الله ﷺ ، و أن يعرف - بنور من ربه و فراسة إيمانه - ذلك الخط الدقيق الذي يتغير به اتجاه المرء من جهة إلى جهة و ينحرف به - و هو لا يشعر - عن جادة الصواب ، و الصراط المستقيم الذي يسأل الله الهداية اليه كلما قرأ الفاتحة في الصلاة

و خط الانحراف خفي دقيق لا يطلع عليه إلا من قذف الله في قلبه نوره و اراد به خيرا و هيا أسبابه ، و الآيات

التالية تدل على بعض مواضع الزلل و النقصان التي تنزل عندها الأقدام و هي تدور حول الاعجاب بالقول الظاهر المزخرف ، و الاعجاب بالأموال و الأولاد ، و الركون إلى الطغاة و الظالمين ، و تلبيس الايمان بالظلم أو الهوى و غير ذلك من المفاهيم و الاشارات .

١. و من الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا و يشهد الله على ما في قلبه و هو ألد الخصام^١
٢. و اذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة و اذا ذكر الذين من دونه اذا هم يستبشرون^٢ .
٣. و من يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى و يتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى و نصله جهنم و ساءت مصيرا^٣
٤. و لا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار^٤
٥. و لا تعجبك أموالهم و أولادهم اغما يريد الله أن يعذبهم بها

^١ البقرة : ٢٠٤ .

^٢ الزمر : ٤٦ .

^٣ النساء : ١١٦ .

^٤ هود : ١١٤ .

- في الدنيا و تزهق أنفسهم و هم كافرون ^١
٦. و لعبد مؤمن خير من مشرك و لو أعجبكم ^٢
٧. قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ^٣
٨. الذين آمنوا و لم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن و هم مهتدون ^٤
٩. أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ، و لا يكاد يبين ^٥
- إنها و أمثالها من آيات كثيرة يزخر بها القرآن تدلنا على خطوط الانحراف ، على النقاط التي ينشأ منها الزيف ، و الشغرات التي يتسلل منها الفساد ، و المواضع التي تبذر في نفوسنا بذور الإعجاب بالجاهلية ، و مفاهيمها و أقدارها ، و الركون إلى الظالمين أو إلى الحضارة التي تقوم على الظلم ، و الانفتاح على الدنيا أكثر من الانفتاح على الآخرة ، و الاقبال على الخلق ، و الاتصال بهذا الكون أكثر من الاتصال بفاطر

^١ التوبة : ٨٦ .

^٢ البقرة : ٢٢١

^٣ الأعراف : ١٣٨

^٤ الأنعام : ٨٣ .

^٥ الزخرف : ٥٣

الكون ، و الايمان بالمشهود العاجل أكثر من الغائب الآجل ،
 و قلة الخوف من النار و قلة الرغبة في الجنة ، و التفكير في
 تنظيم هذه الحياة و تحسينها و اصلاحها أكثر من التفكير في
 الدار الآخرة و ثوابها و عقابها ، و الاعتناء بالمجموعة أكثر من
 وحداتها ، و الحرص على جمال البناية أكثر من الحرص على
 صحة لبناتها ، و الاهتمام الزائد بظاهر السفينة و طلائها أكثر
 من الاهتمام بالوآحها ، و التوجه إلى انقاذ البشرية كلها أكثر
 من انقاذ نفوسنا و أهلنا و عشيرتنا .

يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم و أهليكم نارا ^١ .

يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل
 اذا اهتديتم إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون ^٢ .
 و يظل الانسان ينحرف أو يتعد عن هذا الخط النبوي
 حتى ينسى نفسه ، و ينسى غاية أعماله في زحمة الأحداث و
 الأشغال ، و يؤخذ بالمظاهر و يتلهى بالأشكال ، و تراه بعض
 الأحيان يخالف أبسط قواعد الدين و يخرج على أضالته و
 يخالف مبادئه و مقوماته باسم مصلحة الدين و حكمة الدين و

^١ التحريم : ٧

^٢ المائدة : ١٠٦

تحت شعار "العقل العملي" و "استراتيجية الدعوة" بعض
الحين.

ثم تتغير الموازين و المقاييس بصورة تدريجية و بحركة لا
ارادية ، و تفقد الامانة و الايمان ، و النزاهة و الصدق ، و
الاخلاص و النية و سلطانه و حرمة في القلوب ، حتى يقال
- كما جاء في الحديث - ﴿ ما أعقله و ما أظرفه و ما أجلده
و ما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان ﴾^١

إنها حالة نفسية تناب الدعاة المثقفين و العاملين
المخلصين في بعض الحالات ، فيفسد عليهم اخلاصهم مع
الله ، و صلتهم بالله و وفاؤهم لهذا الدين ، و اتباعهم لسنة
رسول الله ﷺ ، و تعلق قلوبهم بالصلاة و الدعاء^٢ ، و

^١ متفق عليه

^٢ و قد يبلغ الأمر ببعض هؤلاء و تغطي عليهم الشكليات و المواعيد و
اللقاءات إلى حد تراهم لا يتحمسون للصلاة تحمس من سمع قول
رسول الله ﷺ "جعلت قرعة عيني في الصلاة" و قوله "أرحنا يا بلال" و
قد تفوتهم الناحية التعبدية و تركية النفس تماما ، و قد روي والذي
رحمه الله قصة طريفة تدل على هذا الواقع الأليم ، قال أنشئت هناك
جمعية لإقامة الصلاة قبل زمن يسير ، و كانت مؤلفة من بعض
"المثقفين" و عقدت الجمعية حفلتها الأولى بعد صلاة العصر ، فلما -

تحرّقهم - تحرق المفجوع في وحيدته أو في رأس ماله - على
 مصير الانسانية الحائرة و على مستقبل هذا الدين و مصير
 الدعوة ، و احترامهم و حبهم و إجلالهم للصحابة و التابعين
 حبا و إجلالا يليق بشأنهم ، و الثقة بفهمهم للدين و نزاهتهم
 و ارتقائهم عن مستوى الشبهات أو مستوى عامة الرجال تمام
 الثقة ، و الاعتزاز باقتداء آثارهم كل الاعتزاز ، و التشبع
 بحب سيدنا و قائدنا و معلمنا و شفيعنا محمد بن عبد الله
 القرشي الهاشمي ﷺ حبا يفوق على حب النفس و المال و
 الأهل و الولد مطابقا لما جاء في الحديث الصحيح عن النبي
 ﷺ ﴿ لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده و
 ولده و الناس أجمعين ﴾ ' فيجب على كل عامل مخلص لهذا

- حانت صلاة المغرب و أذن المؤذن لم يحرك ذلك ساكنا حتى لم
 يتمالك هو نفسه ، و كان الوقت قد تأخر و سأل زعيم القوم أن
 يجتمعا الحفلة و يتوجهوا للصلاة ، فقال مستغربا أو ليست هذه الحفلة
 في سبيل الصلاة ؟ و اشتغل القوم بدراسة الصلاة و معانيها و الضرورة
 إليها و تأثيرها في المجتمع المسلم - و انصرف هو وحده إلى المسجد
 يشكو به و حزنه إلى الله

' كان شاعر الإسلام الدكتور محمد اقبال موفقا كل التوفيق في فهم
 هذه النكتة و ضرورة الاتصال الوثيق بشخصية النبي اذ قال : اننا =

الدين أن يتجنب هذه المزالق التي تعترض طريقه في بعض مراحل الدعوة ولا تسمح له أشغاله المتزاخمة و نشاطاته المتلاحقة و رحلاته المتصلة المتوالية بالتأمل فيها و الاحتراز منها ، و تمييز المفسد من المصلح ، و الضار من النافع .

إن طبيعة هذا الدين غير طبيعة الدعوات الأخرى ، و منهجه غير منهجها ، و أسلوبه غير أسلوبها ، و لغته غير لغتها ، و سحنته غير سحنتها ، و نبرات صوته غير نبرات صوتها ، و أقدم خطوة فأقول ، إن قسمات وجهه غير قسمات وجهها ، و كيف لا يكون ذلك فدعوة الدين هي الدعوة إلى الدعوة إلى الآخرة و دعوة المذاهب الوضعية هي الدعوة إلى الدنيا ، دعوة الدين إلى تحسين الحياة الطويلة الباقية ﴿ و للدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون ﴾ ^١ و دعوة الحركات السياسية و المذاهب الاقتصادية و السياسة إلى تحسين الحياة القصيرة الفانية ﴿ و تتخذون مصانع لعلكم

= نعتقد أن الإسلام دين أوحى الله به و لكن وجود الإسلام كمجتمع أو أمة يتوقف على شخصية محمد ﷺ .

(أنظر "النبي الخاتم" لسماحة الأستاذ أبي الحسن علي الحسيني الندوي)

^١ الأنعام : ٣٢ .

فينبغي أن يتجلى هذا الفارق الأساسي و الخط الفاصل المميز بين الدعوتين في سائر أجهزة الدين و فروع و أجنحته و نشاطاته و تصرفاته و في نظراته العامة إلى الحياة و الأحياء ، بل إلى جميع الأشياء ، حال من جاءه برهان من ربه و ذاق جلاوة الايمان و فتح الله عليه باب المعرفة و الاحسان و أوتي نعمة الفرقان بين الحق و الباطل ، فتكيف سلوكه و خلقه و نشاطه و جهاده بهذا الايمان ، و ظهر ايمانه بالغيب على ايمانه بالمشهود ، و اقباله على الدار الآخرة على اقباله على الدنيا ، و طمعه في النجاة من النار على طمعه في الرقي و الازدهار ، و الفتح و الانتصار ، اذا كان ذلك من غير قلب سليم ، و نية صالحة ، و عاطفة ايمانية ، و دعوة ربانية ، و روح نبوية ، و في حدود معلومة واضحة ، نطق بها الكتاب و السنة ، و حددتها الشريعة السمحة الغراء و درج عليها الصالحون و أجمع عليها العلماء الربانيون ، و لم تدنسها شوائب الحضارة المادية ، و سموم الثقافة الغربية و الأفكار اللادينية .

إن القرآن حرض دائما على أن يبقى هذا الفرق

واضحاً لكل ذي عينين و حتى في الأشياء التي تتعلق بالادارة و البناء و التصميم ^١ ، و الحياة المنزلية و الآداب اليومية و المعيشة العامة لتظل الأمة الإسلامية شامة بين الناس لا في الشارة و اللباس و الاسم و العنوان ، و لغة الحديث و القرآن، بل في الذوق و الوجدان ، في العقل و القلب ، في الضمير و مكنونات الصدر ، و في سلوك الفرد و سلوك الجماعة ، و سلوك الدولة ، و سلوك الامة ، في سائر مجالات الحياة و فروعها .

و هنا نقطة أخرى لا ينبغي اغفالها و هي أن طبيعة هذا الدين "قوة ذاتية" أو قل - اذا شئت - نورا إلهيا و مسحة من جماله - جل و علا - و هي غنية بهذه القوة أو بهذا النور عن استيراد أي "طاقة" أو وسيلة معنوية من الخارج لتقريب مفاهيمه و منهجه و سلوكه إلى أفهام البشر ، و ذلك ما شعر به و اطلع عليه مشركو مكة ﴿ و قال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن و الغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾ ^٢ و كانوا

^١ اقرأ تفسير قوله تعالى في سورة يونس : ﴿ و اجعلوا بيوتكم قبله ﴾ الآية .

^٢ حم السجدة : ٢٦ .

يمنعون أولادهم عن حضور مجالس النبي ﷺ وأصحابه حتى لا
ينجذبوا إلى هذا الدين ، و قصة ايمان سيدنا عمر بن الخطاب
و تلاوة سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنهما التي كانت
ترق لها القلوب القاسية الجافة ، نماذج رائعة لهذه القوة الذاتية
في المنهج الإسلامي الأصيل ، يدل على ذلك دلالة واضحة ما
رواه ابن كثير في تاريخه فقال : ﴿ لما قدم عمر الشام عرضت
له مخاضة فنزل عن بعيره و نزع موقيه فأمسكهما بيده و
خاض الماء و معه بعيره فقال أبو عبيدة قد صنعت اليوم صنيعا
عظيما عند أهل الأرض ، صنعت كذا و كذا ، قال فصك في
صدره و قال لو غيرك يقولها يا أبا عبيدة ، انكم كنتم أذل
الناس و أحقر الناس و أعزكم الله بالاسلام فمهما تطلبوا
العزة بغيره يذلکم الله. ١

و ليس المراد من هذا القول - كما يشعر البعض -
جاهلية سافرة أو ألوانها المكشوفة لا بل انه يعم سائر عروقها
و خطوطها و ألوانها و بصماتها في الصدور .
هذه القوة الذاتية في الإسلام ، و معرفة طبيعته ، و

^١ البداية و النهاية ٧ ظ ٦٠ و رواه الحاكم في المستدرک و قال صحيح
على شرطهما .

الوفاء بمنهجه ، و الثبات على جادته و استعمال قوته جعلت
 الصحابة و التابعين ، و الشهداء و الصالحين ، و من تبعهم
 باحسان إلى يوم الدين ، في غنى عن كل منهج جاهلي و
 مظهر جاهلي و خط جاهلي .

إن طبيعة هذا الدين و روحه تقتضي أن نستعمل قوته
 الذاتية بدلا من الاعتماد على وسائل القوة و التأثير الخارجية
 اعتمادا زائدا ، تاركين هذه القوة الكامنة في الصدور وراء
 الظهور ، و أن نتقدم بحمل لواء هذا الدين و نشر دعوته
 باختيار المنهج النبوي في الدعوة و الهداية و القيادة ، و
 أسلوبه الممتاز في الكفاح لدين الله و الجهاد لاعلاء كلمة
 الله ، و المحافظة على أصالته و معرفة طبيعته ، و تذوق حلاوته
 و صيانة روحه المشرقة و صفحته البيضاء التي تراكم عليها
 الغبار بتأثير البيئة الفاسدة ، و الجو الموبوء ، و وجودنا بين
 الجاهليات الحديثة و تياراتها العنيفة التي تلاحقنا من كل
 جانب .

لقد جاء في الحديث : ﴿ يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ ، الصَّابِرُ
 فِيهِمْ عَلَى دِينِهِ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ ﴾^١

^١ رواه الترمذي عن أنس .

و أننى رسول الله ﷺ مرة على آخر هذه الأمة إيمانهم بالغيب و ثقّتهم بوعد الله حينما سأله أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح فقال :

يا رسول الله أحد خير منا، أسلمنا معك وجاهدنا معك قال : نعم ! قوم يكونون من بعدكم يؤمنون بي ولم يروني .
و من ثم فان مشكلاتنا في هذا الطريق و محافظتنا على هذا التراث النبوي العظيم من العلوم و الأعمال و حرصنا على روح هذا الدين النقي الخالص ، و العز على كل ذلك بالنواجذ هو نفسه يدلنا دلالة واضحة على صحة الهدف و الاتجاه ، و سلامة الأفكار و الأرواح ، و هو كفيّ بالفلاح في الدنيا و النجاة في الآخرة ، ان شاء الله .

و قد بشر لسان النبوة هذا الجيل المؤمن بكونه على الحق و سلامته عن الفتن و الأخطار ، و ثباته على الجادة إلى يوم القيامة فقال ﷺ : ﴿ لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله و هم كذلك ﴾^٢ .

^١ المستدرك للصحيحين ص : ٩٦ .

^٢ رواه مسلم عن ثوبان .

أهلا بهذه المؤتمرات .. و لكن .. !

نشأت في العالم الإسلامي في هذا الوقت رغبة مخلصـة أكيدة في دراسة الإسلام دراسة وافية في مختلف نواحيه ، و الدور الذي يمكنه أن يلعب في تثبيت دعائم العالم الإسلامي ، و استقراره ، و بروزه في الوجود كحقيقة ثابتة و واقع حي ، و عقد مؤتمرات و ندوات لتحقيق هذه الغاية ، و كان مؤتمر "لاهور" الكبير^١ نتيجة من نتائج هذه الرغبة ، و أثرا من آثارها .

و ان الغاية من وراء هذه المؤتمرات - كما يبدو منها - هي شرح الفكرة الإسلامية أمام الطبقة المتعلمة في العالم الإسلامي و القائمين بأمره ، و ايضاح ما تحويها هذه الفكرة من صلاحية مذهشة لحل مشاكل الانسان ، مشاكل السياسة و الاقتصاد ، و الأدب و التاريخ ، و المدنية و العمران ، و تقديم أبحاث مبسطة متنوعة في كل ناحية من نواحيها ، و ذلك ما آمنّا به جميعا ، و اتفقنا عليه ، و لكن أحرص أن لا

^١ هذا المقال كتب عن مؤتمر لاهور الإسلامي الذي انعقد في يناير ١٩٥٨م لدراسة الشؤون الإسلامية .

تفوتنا - ونحن في مرحلة البناء والتعمير - اللبنة الأساسية ،
فتأتي عمارة معوجة ، مهددة بالأخطار في كل حين .
لذلك أرجو من القائمين بأمر هذه المؤتمرات والعاملين
لها أن يكونوا أعمق تفكيراً ، وأكثر واقعية ، في معالجة هذه
الأمور ، حتى لا تطفئ ناحية على ناحية ، و تفوت بعضها
على الآخر على الإطلاق .

ما هي أزمة العالم الإسلامي اليوم شعبا و حكومة ؟ اذا
فكرنا في هذا الأمر عن طريق عملي غير طرفنا و أساليبنا
المعروفة رجعنا منه بنتيجة غير النتيجة التي رجع بها كثير من
الباحثين والعلماء ، ان أزمة العالم الإسلامي أنه لا يعمل بعشر
ما يعلم و يؤمن به ، و أن هناك هوة منفجرة بين الحياة النظرية
و الحياة العملية في أمتنا المسلمة .

هنا كثير من الناس يعلمون أن الصلاة مفروضة على
المسلمين و يعلمون أكثر من ذلك ، و لكنهم لا يصلون ، أو
على الأقل لا ينشطون لها ، كما يوجد هنا رجال يكتبون في
فلسفة الزكاة و لا يؤتون الزكاة ، لا أقول : إن الجميع
كذلك ، و لكن ذلك يدل على مبلغ التفاوت بين علمنا و
عملنا .

اني لا أقلل قيمة هذه الجهود العلمية و الإسلامية ، و
لا أهمل شأنها ، فلا شك أن هذا الكفاح العلمي قد أدى
دورا كبيرا في منع الشباب المسلم الجامعي من الوقوع في
شبكة الشيوعية و الانجذاب إلى الحضارة المادية ، و له فضل
كبير لا ينكر في هذه الناحية ، ان الشيء الذي أريد أن ألفت
اليه الانظار هو أن هناك مسألة أهم و أخطر للعالم الإسلامي ،
و هي مسألة التوفيق بين عقله و عاطفته ، و بين عقيدته و
حياته ، و بين علمه و عمله ، و البحث في امكانيات تنشيط
قواه العملية للسير في هذا الطريق "طريق الايمان الايجابي" اذا
صح هذا التعبير .

ان الكتب و المؤلفات التي نشرت في شرح الفكرة
الإسلامية من نواح عديدة ، موجودة مطبوعة ، ميسرة
متوفرة، فهل غيرت هذه الكتب تغييرا ما في اتجاه العالم
الإسلامي دولا أو شعوبا ؟

و هل نجحت هذه المؤلفات العلمية و الأبحاث المقنعة في
ايجاد الايمان الحي و الحياة الإسلامية العملية في المجتمع
الإسلامي ؟ الجواب في النفي ! لا أشك للحظة أننا في حاجة
دائما إلى مزيد من التقدم العلمي في هذا المجال ، و مزيد من

الجهود العلمية نظراً إلى التطورات الحديثة في المجتمع و الحياة،
و لكن يجب أن نتأكد أننا لم نعمل بعد على كثير مما عرفناه ،
و أننا لم نطبق بعد على حياتنا أبسط المبادئ الإسلامي التي
نعرفها و يعرفها كل مسلم متعلم .

إذا كانت المسألة مسألة دراسة فقط أو مسألة تقديم
بحث أو وضع دستور فحسب لكان ذلك أهون علينا ، و لم
يكن هناك داع و لا مبرر لارهاق أنفسنا عبثاً ، و البحث عن
أساليب أخرى و لكن القضية أجل منه ، انما هي قضية إيجاد
حل لرغبة المجتمع المسلم عن مقومات الحياة الإسلامية و
مطالبها ، و اهماله كثيراً من واجباته الخلقية و الدينية رغم
هذه المؤلفات و الأبحاث و المؤتمرات ا

ان التوفيق بين هاتين الناحيتين المهمتين و السير بهما ،
هو الحل الوحيد لهذه المشكلة الكبرى ، بل اسمحوا لي أن
أقول : ان الروح المعنوية و القوة العملية في هذه الأمة هي في
الواقع أساس كل كفاح ، و منبع كل خير ، و باعث كل
تغيير في حياتها ، فاذا كانت هذه القوة الكبرى نائمة فيها فلا
رجاء في رقيها و نهضتها ، و بعثها من جديد .

فالواجب علينا أن نشير أولاً قلب هذه الأمة و نجذب

عمليا إلى الإسلام مع الاستمرار في جهودنا لاقتناعها عقلا و دراسة بتفوق الفكرة الإسلامية من نواح شتى .

و هذا هو الشيء الذي كان ينقص مؤتمر "لاهور" و يبدو أن المساهمين فيه لم يعيروا هذه المشكلة الكبرى العناية التي تستحقها ، و لم يعطوها المكان اللائق بها ، و هي مؤاخذتنا عليه و نصحنا له مع إيماننا بضرورة هذه المؤتمرات و نفعها ، و تمنياتنا المخلصة لنجاحها و ازدهارها .

موقف المسلمين ازاء الحضارة الغربية

كانت نهضة أوربا و استيلاؤها - فكريا و سياسيا و اقتصاديا - على العالم المعاصر ، حادثا كبيرا بالنسبة للعالم الإسلامي ، الذي لم يُعِدَّ نفسه لمواجهة هذا الواقع المفاجئ ، و بات في سبات عميق ، لم يحسب لهذه الأخطار المحدقة حسابا ، و لم يعر هذه العاصفة الفكرية الشديدة التي بدأت تهب من الغرب عناية و انتباها ، حتى اذا هجمت عليه ، و جاست خلال دياره ، و تمكنت في عقر داره ، وجد نفسه بين موقفين:

الموقف الأول ، هو موقف المستسلم الخاضع و المقلد الأعمى و التلميذ البار ، و الموقف الثاني ، و هو موقف

المعادي المخاصم ، أو موقف المفتوح المقهور الذي لا يريد إلا
الثأر ، و لا يعرف لذة غير لذة الانتقام ، و لا يرى في عدوه
أي وجه من وجوه الخير ، و لا أي جانب من جوانب
الكمال.

و كان لكل موقف أتباع و أنصار عُرفوا بميولهم و
اتجاهاتهم و مناهجهم و أساليبهم . فأصبح الموقف الأول
شعار المستسلمين الخاضعين ، المؤمنين بالغرب أشد الإيمان ، و
المتغنين بمجده و عظمته في أجمل النغمات و الألحان ^١ ، و
أصبح الموقف الثاني شعار القادة السياسيين ، و الزعماء
الوطنيين الحانقين الساخطين ، الثائرين الموتورين ^٢ .

أما رجال الموقف الأول ، فكانوا اصحاب فكر محدود ،
و عقلية قاصرة لا تتعدى خطها المرسوم وحدها المعلوم ، و لا

^١ ترى نموذج هذا الأسلوب الأدبي ، و المنهج الفكري في كتابات
المرحوم السيد أحمد نحاس ، زعيم حركة التعليم الحديث في الهند و
أصحابه و تلاميذه ، و في كتابات رفاعة الطهطاوي بك ، و قاسم
أمين و أضرابهم في مصر .

^٢ يمثل ذلك مدرسة السيد جمال الدين الأفغاني ، و مقالات "العروة
الوثقى" .

تنظر إلى أفق أوسع أو غاية أسمى ، و لا ترى إلى ما فاق فيه الغرب أقرانه من مظاهر القوة ، أو أسباب الراحة و الترف ، و ترى أن الإيمان بصلاحية الغرب للحكم و القيادة ، و توجيه ركب الحضارة حقيقة لا ينبغي ان نكابر فيها ، أو نتجاهلها ، أو أن انتصار الغرب على الشرق حكم القدر ، و ناموس الكون ، و تدرج التاريخ ، لا فائدة من مواجهته و مقاومته ، أو مقارعته بالحجة و البرهان ، أو بالسيف و السنان ، و لا بد لنا من الخضوع أمامه ، و قبوله على علامته - اذا كانت له علالت - .

ان رجال هذا الموقف يؤمنون بأن الغرب يفوقنا في كل شئ ، لا في الصناعة و الآلة و التنظيم و الادارة فحسب ، بل في الثقافة و الحضارة كذلك ، انهم آمنوا بغاياته و أهدافه و آدابه و مذاهبه الفكرية ، و الأدبية و السياسية ، و الاجتماعية ، كما آمنوا بوسائله ، و أسبابه ، و ماكيناته و أدواته ، و علومه التطبيقية و الصناعية و الآلية ، فكانت عاقبة ذلك أنهم لم يرجعوا منه بشئ و خسروا كل شئ ، خسروا منبع قوتهم ، و سر حياتهم ، و غاية وجودهم ، و لذة كفاحهم الدين ، و فاتهم الصناعة و ما يمتاز فيه الغرب

من منابع القوة و السيادة ، فرجعوا بخفي حنين ، لا دين و لا علم و لا وسيلة و لا غاية ، بل تقليد و محاكاة و استسلام و انقياد ، و خضوع و خنوع ، و رضي بما يلقي اليهم من فتات المائدة و مرذول الطعام .

انهم ينظرون إلى الغرب كما ينظر تلميذ إلى أستاذه و معلمه ، يتلقى ضربته بصبر و أناة ، و يتلقى توجيهاته ، و دروسه بجد و اجتهاد ، ثم يرددها و يستحضرها أثناء الليل و أطراف النهار ، و هذا موقف لا محل فيه للنقد و التوجيه ، و الرؤية و التفكير ، و لا يجوز فيه المناقشة و الجدل ، مناقشة الند للند ، و جدال الفريق للفريق ، فلا غرابة اذا لم نر من بين هؤلاء من يرفع عن هذا المستوى ، و يلقي الغرب وجها لوجه . و يقابله على صعيد العلم و الفكر ، و على صعيد المساواة و الشرف ، و الاعتداد بالنفس ، و الاعتزاز بما عنده من دين و أخلاق .

أما رجال الموقف الثاني ، فبدوا عاطفيين ، ثائرين نحو هذه المشكلة - مشكلة الغزو الفكري و استيلائه السياسي - و تركزت جهودهم في غالب الأحوال على محاربته سياسيا أو عسكريا ، انهم لم يحاولوا أن يعرفوا عدوهم ، و يطلعوا على

دخائله و أسراره ، و سيّاته و حسناته ، و جوانب القوة و الضعف فيه ، و لم يفرقوا بين ما يفوق فيه علينا من علوم و صناعة و سلاح ، فيستفيدوا به ، و ما يفتقر فيه من أهداف كريمة ، و عقائد سليمة ، و دوافع نبيلة ، و رسالة نقية صافية، حتى يفيضوا عليه شيئا مما آتاهم الله .

و كانوا حانقين عليه ، كارهين له ، بدلا من أن يكونوا حريصين على إنقاذه ، متوجعين لمصيره ونهايته المتوقعة الأليمة، و رأوا في الغرب الظافر المنتصر ، محتلا لأرضهم ، غاصبا لأملاتهم ، ناهبا لأموالهم ، أكثر من أن يروا فيه محتلا لمعتقداتهم ، غاصبا لإيمانهم ، ناهبا لثرائهم الإسلامي و دعوتهم العامة الخالدة ، الصافية الطاهرة ، الخفيفة البيضاء التي لا تعرف التنازل و المساومة و الاستسلام ، و لا تنسجم مع المفاهيم الجاهلية أيما انسجام .

فكانت النتيجة أن وجد الغرب سبيله إلى الاحتلال الفكري و رأى نفسه حراً لبث سموه في الجيل الجديد ، و الشباب الجامعي المثقف ، و البعثات الخارجية ، و الوفود العلمية ، و رجال الصحافة و الأدب ، من غير أن يدركوا خطره و يفهموا حقيقة معركته و مكان رميته ، و نوع

سلاحه، فضلا عن أن يقفوا في وجهه وقفة الحر الكريم ، و
الأستاذ الخبير العليم ، و يفكروا في مديد الغوث و النجدة
اليه ، و انقاذه من الهوة العميقة التي تورط فيها ، و المستنقع
الذي يغوص فيه إلى أذنه

فبينما اندمج الأول في هذا الخضم من الأفكار الغربية و
تياراتها السياسية و الاجتماعية ، حاول الثاني أن يعبره من
غير أن يتعلم السباحة ، و يطلع على العمق و المساحة .

و بجانب هذين الموقفين المتطرفين موقف آخر ، هو
موقف التأمل الدارس الذي لا ينكر الغرب برمته ، و لا يقبله
على علاقته و لا يخلط بين ما أنتجه من وسائل لاسعاد هذه
الحياة ، و ما اخترعه من مذاهب باطلة ، و ثقافات سخيفة ،
و آداب مبيدة للدين و الأخلاق ، و المبادئ الانسانية
الكريمة، و الصفات النبيلة .

إن أصحاب هذا الموقف لا يعتبرون ما جاء به الغرب
شرا محضا ، أو خيرا محضا ، فلا يستسلمون له ، و يندمجون
معه ، و لا يواجهون ضغطه السياسي ، و استعمار
الاقتصادي أو غزوه العسكري فحسب ، بل انهم يحاربون
أولا تلك الروح المادية ، روح الجشع و الأنانية و عبادة

البطن و المعدة ، التي تسربت في كيانه ، و تغلغلت في أحشائه و جرى منه مجرى الروح و الدم ، فيأخذون ما صفا من هذه العلوم ، و يدعون بها كدر ، يستفيدون من أدواته و معلوماته و علومه و صناعاته - التي لا يبتكرها شعب و لا تختص بها أمة - و يتبرؤون من حضاراته و ثقافته و آدابه التي تحدد المفاهيم و الأهداف ، و تضع القيم و الأقدار ، و تكيف المجتمع و الحياة .

انهم لا يحسبون - شأن بعض البسطاء في الشرق الإسلامي - ان هذه الروح المادية المتحررة المنطلقة من كل قيد ، الخارقة لكل قانون ، هي السر وراء هذه النهضة المادية و الصناعية التي فاق فيها الغرب على أترابه ، بل يعتقدون أن السر وراء هذه النهضة هو التنظيم و الادارة ، و الصناعة و التجارة و العلوم التطبيقية التي لا صلة لها بمناهج الحياة و أهدافها ، و لا دخل لها في وضع صورها و أشكالها ، فيشيدون بذلك ، و يعترفون به في شجاعة و ثقة ، و يشيرون على الغرب بالتمسك به و المحافظة عليه ، و اقتباس الدين و الأخلاق ، و تعاليم الأنبياء من الشرق ، حتى يضم قوة إلى قوة ، و يحقق رسالة المدنية و التقدم .

انهم لا يقفون في وجه الغرب كالعدو اللدود أو
كالحاقد الثائر و كالتناقد الساخر ، و لا كالتلميذ الخاشع ، و
الرقيق الخانع و لا يطأطئون له رؤوسهم كالمصابين بمركب
النقص و الشعور بالهوان ، و يقولون آمنا و صدقنا ، سمعنا و
أطعنا ، بل يقولون في صدق و جرأة ، و قوة و صرامة ،
أصبت هنا ، و أخطأت هناك ، و كان الصواب أهون و
أيسر ، و الخطأ أدهى و أمر ، لأن الصواب هو هذه الوسائل و
الأسباب ، و العلوم و الصناعات ، و الادارة و التنظيم ، و
هي لا تضر الانسان كثيرا ، اذا فاتته ، اما الخطأ فهو منهجك
في استخدام هذه القوة و هذا العلم ، و نظرتك إلى الكون و
الانسان ، و المحرافك عن جادة النبوة و الهداية ، و ثورتك
على الأخلاق و القيم الرفيعة .

لغة شقي بها أهلها

مأساة باكستان قضت على كثير من المغالطات أو التفاؤلات التي عشنا فيها زمنا طويلا ، انها كشفت القناع عن ذلك الوجه القبيح و الصورة الكريهة المخيفة من عصبية اللغة ، و أثارت عدة أسئلة للضمير الانساني .

١. هل يحق لأخ أن يقتل أخاه بمجرد أنه يختلف عنه في اللغة و

التقاليد الوطنية أو في الزي الوطني ، و الأكلة الشعبية ؟

٢. هل يحق له أن يذبح جاره و صديقه ، و أستاذه و مرشده

لأنه لم يتكلم بلغته ، و لم يتزي بزيه ، و لم يتعود بعاداته ؟

٣. هل يجوز له أن يحرق أولاده أحياء لأنهم لم يعطوه مثلاً -

نصيبه الكامل من المال و قسطه الكافي من الحصول و

الانتاج ؟

٤. هل يمكن لهذه العوامل مجتمعة أن تكون مبرراً كافياً لقتل

الأبرياء و سفك الدماء ، و خلع العذار ، و الفسق و

الاستهتار ؟

كلا ! اذا فما الذي حرك نزوات البنغاليين إلى تشويه

تاريخهم بهذه الصفحة القائمة السوداء ، و وصم حينهم بهذا

ان القصة أعمق جذورا ، و أبعد مدى ، و أوسع اطارا
مما نراه بمنظار السياسة المحدود . فانها تدل على بذور الحقد و
الضعينة و الكراهية التي غرسها هؤلاء في قلوب الأبناء ، و
وجدت جوا صالحا و تربة صالحة للظهور و التقدم و النماء ،
حتى آتت ثمارها الخبيثة ﴿و الذي خبت لا يخرج إلا نكدا﴾ .

و الدرس الأول من هذه القصة الأليمة هو أن عشق
اللغة و حبها الزائد و تقديسها ، و الهيام بها ، و التغني
بالثقافات المزعومة و الاغراق فيها هو رأس البلاء و الشقاء ،
و هي فتنة استوردناها من الغرب في مجموع ما استوردنا من
شرور و خبائث و ويلات في صورة أفكار و حضارات و
ثقافات .

ان اللغة التي تفزق و لا توحد ، تعادي و لا تؤاخي ،
تقسو و لا ترحم ، لا ترعى في مؤمن إلا و لا ذمة ، و ينتهك
لها كل كرامة و حرمة ، و تريد أن تبقى ، و تنتشر و تزدهر ،
و لو على ضحايا الأبرياء ، و على الجماجم و الأشلاء ، هي
لعنة على أهلها و عذاب من الله .

هل ان الله سبحانه خلق هذه اللغات الكريمة البريئة

لتكون وسيلة إلى الفساد والدمار والظلم والاحقاد ، أو
لنجعلها وثنا يعبد ، و صنما يقدم اليه القرابين ؟
ان اللغة اذا علمتنا القتل ، و علمتنا الوحشية ، و
علمتنا الجنون ، و حولتنا في ساعات و ثوان إلى قوم همج لا
ضمير لهم و لا عقل ، و لا دين عندهم و لا حياء ، و زرعت
في صدرنا قلب وحش أو سبع أو شيطان (ويا ليت اذا كان
من البلاستيك البريثي لا يعرف ظلما و لا رحمة) و أطاحت
ببرية مئات السنين في ساعة و حين . فعلى مثل هذه اللغة
السلام .

و الدرس الثاني هو أن صورة الإسلام و الايمان لا تقدر
على مواجهة كيد الشيطان و ثورة النفس ، ما لم يدخل الايمان
في القلوب و قرارة النفوس ، و ما لم تستطع مقاومة النفس و
تعود الخضوع لأمر الله ، و الوقوف عند حدود الله ، فقد
ثبت أن الشارات الخلابة الظاهرة و المظاهر الدينية الجوفاء لم
تصمد لساعة واحدة في وجه هذا الطوفان بل انساق أهلها
أحيانا كثيرة مع التيار العنيف ، و وقفوا إلى جانب الجزارين و
السفاحين .

و أمام هاتين الحقيقتين ينبغي لنا أن نقف قليلا و نتأمل ،

ان الفجوة الهائلة و البون الشاسع الذي نراه بين جناحي باكستان لم يكن وليد سياسة محلية فحسب أو نتيجة تقسيم المنافع و الأرباح كما يتصور كثير من الناس ، بل انما كان نتيجة عوامل مختلفة كانت تعمل عملها منذ زمن طويل ، فقد عاش الجناح الشرقي بعيداً عن جناحه الغربي ، يحب لغته ، و أزياءه ، و تقاليده و أرضه و ماءه إلى حد التقديس ، و يتفانى في ذلك تفاني المؤمن الصادق في سبيل الله ، و يتحمس له تحمس الداعي إلى الله ، و أدى هذا الاختلاف في اللغة و التقاليد إلى توسع هذه الفجوة و بعد الشقة ، و عاش الفريقان في مكان واحد . بل في مكتب واحد من غير أن يندمجا عاطفياً ، و يتجاوبا روحياً و معنوياً ، قد جمعتهم الضرورة على رصيف واحد ، و فرقتهما العصبية و الاقليمية رغم دين واحد .

و كان هذا الجو - بطبيعة الحال - صالحاً لكل نوع من الانفجار و الدمار ، و نذيراً بكل ما حدث من شنائع و فظائع تقشعر منها الجلود ، و يتندى لها جبين الحياء .

و لو كان للإسلام الأمر و النهي و التصرف الحر في باكستان و أطلق له العنان لكان شأنها غير هذا الشأن و قضى

على العصبية الباطلة الجائرة في مهدها ، و ماتت حتف
أنفها، و ما قامت لها قائمة و ما نجمت منها شوكة تؤذي
جنب المسلمين .

ان قصص التعذيب و الاضطهاد و الوحشية و الجنون
التي سمعناها، و العصبية العمياء الصماء التي رأينا آثارها و
ضحاياها ، دلت بوضوح على أن العصبية البنغالية تخطت كل
الحواجز الانسانية و الأقدار الخلقية العامة ، بل انها طغت
على العقيدة و الايمان و العلم و التقوى و غلكت زمامها ، و
تصرفت فيه تمام التصرف ، و استخدمته لسائر أغراضها
الوحشية ، و كانت كل هذه الوحشية و الهمجية التي لا نظير
لها ، و لا تأويل فيها ، باسم تراب الوطن ، و قداسة الأرض
حتى قال قائلهم و زعيمهم : إني أحب أن تكون آخر كلمتي
عند الوفاة "عاش البنغال" .

و تلك هي طبيعة كل عصبية اذا اختمرت و نضجت و
بلغت أوجها و ذروتها ، و لا نستغرب اذا هي مثلت دورها
في الجناح الغربي و عاثت فيها الفساد ، كما هي فعلت في
الجناح الشرقي ، و أذاقته ألوانا من الخراب و الدمار .
اننا نفرس أشواكا و ننتظر أزهارا ، نفرس في نفوس

الناشئة الضغائن و الأحقاد ثم نرجو منهم أن يكونوا اخوانا متحابين ، نسكرهم بتقديس أرضهم ، و عبادة ترابهم ، و تمجيد أباطهم و زعمائهم القوميين ، ثم نطلب منهم أن لا يخرجوا من طورهم ، و لا يفقدوا رشدهم و صوابهم.

إن للإسلام ثقافة عامة متحدة فوق الثقافات المحلية المخلفة ، و ان له لغة فوق اللغات ، و لهجة فوق اللهجات ، هي لغة القلب و الحب ، و لهجة الأخوة و الوفاء ، فلتكن سائر لغاتنا تابعة لهذه اللغة الحبيبة الكريمة ، خاضعة لها ، و ان له هدفا فوق أهدافنا و مصالحنا الاقتصادية و حاجاتنا القومية، فليجب أن نضع سائر ارتباطاتنا و رغباتنا و مصالحنا تحت هذه المصلحة الكبرى ، و نضع سائر زعاماتنا و قياداتنا تحت تصرفه المطلق ، فذلك هو الشرط الأول و الأساسي للإيمان ﴿ فلا و ربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ﴾ ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت و يسلموا تسليما ﴿ ^١ ، و هو معنى قول رسول الله ﷺ ﴿ لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به ﴾ .

إلا ان الإسلام لم يخسر الجولة في باكستان كما أنه لم

^١ سورة النساء ، الآية ٦٥ .

يخسرهما في فلسطين ، إن مأساة باكستان ان دلت على شئ
فانها تدل على أن الأحداث الدامية ، و الفوضى السياسية ،
و القلق النفسي ، و الصراع الحزبي و التنافس في القيادة و
التهالك دونها ، لم يكن إلا نتيجة الإعراض عن الإسلام و
الأخذ بالعصبيات و الإقليمية ، و ضعف الوازع الديني و
تزعم الثقة بمستقبل الإسلام و سحبه عن مسرح النشاط
الاجتماعي و السياسي .

انها دلت على أن العصبية الجاهلية أخفقت اخفاقا
كاملا في جمع الكلمة و توحيد الصف ، و أن الإسلام وحده
بقي في الميدان يحمل لواء النصر و الفتح . و هو يستطيع أن
يضمد الجروح و يمسح الدموع ، و يواسي المنكوب ، و
يصلح ما أفسده التعصب الأعمى ، و الجهل و النكران ، انه
لا يزال يقدر على أن يحول هذه الوحوش الآدمية و الذئاب
البشرية إلى طراز رفيع من أشرف خلق الله رحمة و عدلا ، و
خيرا و بركة و نورا و ضياءا .

ان العصبية الشرقية لا تقاوم بالعصبية الغربية ، و
بالعكس انها تداوى - فقط - بالاسلام الذي يبقى دائما
فوق العصبيات و حرب الزعامات .

ان هذه المأساة رفعت سائر الشبهات حول الإسلام و
وضعت في موضع تهفو إليه القلوب ، و تتطلع إليه الأبصار ،
و حرص عليه كل من سامته هذه العصبية الجاهلية و
الاستغناء عن دين الله سوء العذاب .

ان سائر الأوضاع تشير إلى أن نلوذ بالإسلام لتتخلص
من هذه الأحقاد المكبوتة التي تشتعل تحت الرماد ، و تطيح في
نحات و ساعات ما بناه الأوائل في عشرات السنوات .

انها تطلب منا أن لا نترك ديننا عرضة الأهواء الطاغية
و الرياح العاتية ، يستبد به كل شاطر و ماکر ، و يعث به
كل شاغب و عابث بل يكون - كما وصفها القرآن -
﴿كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، تؤتي أكلها
كل حين باذن ربها﴾^١ .

و بعد فالإسلام لا يسمح بالظلم و بالدعوى الجاهلية
أيما كانت ، فالظلم ظلم ، سواء كان في الهند أو في باكستان
و سواء كان في مكة و المدينة ، و العصبية عصبية و جاهلية و
منتنة - كما وصفها رسول الله ﷺ - سواء كانت عربية أو
أفغانية ، هندية أو باكستانية ، تركية أو إيرانية .

^١ سورة ابراهيم الآية ٢٤ .

و من هنا يختلف منهجنا عن جميع المناهج الجاهلية و
الحركات المادية و القومية و العنصرية : ﴿ يا أيها الذين آمنوا
كونوا قوامين بالقسط شهداء لله و لو على أنفسكم ﴾ ^١ .
﴿ و كذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على
الناس و يكون الرسول عليكم شهيدا ﴾ ^٢ .
إن باكستان تتأرجح الآن بين عصبية جاهلية ظالمة
واسلام سمح عادل ، فلتكن هذه المأساة الأليمة داعية لها إلى
الرجوع إلى الدين ، و الاعتصام بحبل الله المتين قبل أن تصل
السنة هذه النيران إلى جناحها الغربي كما أحرقت جناحها
الشرقي .

^١ سورة النساء : ١٣٥ .

^٢ سورة البقرة ، الآية ١٤٣ .

رسالة الحب

ان الحب "اكسير" يذوب فيه الحقد كما يذوب الملح في الماء و عصا سحرية تسخر القلوب المتحجرة الجافة و الطباع المتمردة العاصية و تسوقها إلى أي جهة تشاء .

انه يحول الأعداء إلى الأخلاء و يحل محل البغض و الشحنة الصداقة و الاخاء ، و يجعل من الفتنة المنفصلتين المتحاربتين قلبا واحدا و جسدا واحدا اذا اشتكى منه عضو اشتكى سائر الجسد بالسهر و الحمى ﴿ فاذا الذي بينك و بينه عداوة كأنه ولي حميم و ما يلقاها إلا الذين صبروا و ما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ﴾ .

فاذا استعرضنا المجتمع الإسلامي في القرن الأول وجدناه مشرقا بنور من الحب و الاخوة و السلام ، و التاريخ الإسلامي حافل بأمثلة رائعة من هذه الناحية يندر نظيرها في تاريخ الأمم الأخرى و اذا فكرنا اليوم في أحوال المسلمين و أمعن النظر في الأوساط الدينية و الهيئات الإسلامية و استعرضنا هذه المشكلات التي تعترض الركب الإسلامي في

سورة خم السجدة ، الآية ٣٤-٣٥ .

كل مكان رأينا أن سبب ذلك هو عدم العناية بالحب و
الاستهانة بأهميته في الدين الإسلامي و ضرورته للمجتمع
الانساني .

فليتخذ شبابنا المسلم شعاره الأول "الحب و الاخلاص" ،
و مهمته الأولى اذاعة الحب بين الناس حتى تنجلي تلك
الظلمات الكثيفة التي أحاطت بالمسلمين هذه الأيام ، فهو
حجر زاوية في بناء الإسلام ، نادى به القرآن العظيم و ندب
اليه الرسول الكريم و عمل به المسلمون في القرون الأولى .
و قد تتضاعف أهميته اذا رأيناه من ناحية مصلحة
الدعوة و حكمة الدعوة .

أنت لا تستطيع أن تحمل الدعوة الإسلامية بين الناس و
تدعوهم إلى الدين الحق و قلبك لم يذق حلاوة الحب .

ان المنطق و القانون لا يجذبان القلوب و لا يقنعان
الوجدان ، انهما يهزمان الرجل و يصرعانه و ربما يحدثان فيه
بعض النقرة و بعض الحقد و بعض المقت تجاه هذه الدعوة ،
الشيء الذي تنجذب اليه القلوب كالمغناطيس و تهوى اليه
الأفئدة و يخضع له الجبابرة هو الحب و الاخلاص .

اذا تحدثت مع رجل و ألقيت عليه ألف دليل و أخرجته

بألف سؤال ، و شرحت الأمر شرحا بسيطا ، و قلبك جاف
غليظ ، و لسانك قاطع كالسيف ، و كلماتك حادة كالسهام
المسمومة ، أبعدته عن الهدف و ملأت قلبه غيظا ، و لو لم
يستطع أن يرد عليك جوابا

و اذا لقيت رجلا في الطريق و ألقيت عليه كلمة خير
واحدة بلا دليل و لا برهان ، و بلا مناقشة و لا اسهاب و
على شفقتك ابتسامة حلوة، و صدرك ممتلئ بالحب و قلبك
عامر بالايمان ، كسبت قلبه ، و قربته إلى الهدف ، و لو أنه لم
يبد رضاه في هذا الحين و أنكر هذه الكلمة ، فإنه سيؤمن يوما
من الأيام لأنك قد غرست في قلبه بذرة ستؤتي أكلها كل
حين باذن ربها

إن المجتمع الحديث في الشرق و الغرب قد تنكر لهذا
الحب الطاهر و لم يعرف قيمته و استبدل الذي هو أدنى
بالذي هو خير ، انه لا يعرف حبا اشف و أسمى ، و أظهر و
أنقى ، من هذا الحب المادي و لا يعرف هدفه الصحيح .

فاذا رفعنا هذا اللواء من جديد ، و حملنا هذه الدعوة
الكريمة إلى الانسانية أحسنا إليها و أمسكنا بيدها في أشد
ساعات الحرج ، و منعناها من التفكك و الانهيار .

إن هذه الحياة الميكانيكية الجمادية التي تدور كالرحى في كل مكان، ان انسان القرن العشرين الذي رضي بأن يكون آلة صماء تدور ليلا و نهارا ، يكسب المال لينفقه و ينفقه ليكسب أكثر منه ، ان الحياة العائلية و الاجتماعية التي أصبحت اليوم في الغرب جحيما لا يطاق ، انها كلها تحن إلى قطرة من الحب كما تحن الأرض المجذبة إلى قطرة من الماء فأنجذوها أيها المسلمون المحبون بهذا الحب الذي آثركم

الله به

بين الدنيا و الآخرة (١)

أحب أن أقول قبل كل شيء ، إن هذا الموضوع لم يأت عفوا ، فجعلته عنوان كلمة و حاولت أن أضعه موضع البحث و النقد ، و ألبسه ثوب الحقيقة فأخدع الناس أو أخدع نفسي بل انني تعمدت هذا الموضوع ، و ذلك لما رأيت حوله من مغالطات أليمة قد تبدو خفيفة في الظاهر و لكنها تتصل بالفكرة الإسلامية الأساسية و تمس نظرتها الخاصة في الدنيا و الآخرة.

إن هذه النقطة كما يعلم الجميع هي النقطة الأساسية التي تعين مكانة الانسان في الدنيا و غايته في هذه الحياة ، و تغير وجهته من الدنيا إلى الآخرة ، فلا يمكن لأحد أن يبدأ حياته بدون أن يتخذ موقفا معينا ازاء هذه المسألة في "النفي أو الاثبات" لأن زلة خفيفة فيها و انحرافا بسيطا في فهمها قد تغير صورتها أو تجرح روحها على أقل تقدير ، و تبعدنا آلاف الأميال عن الخط الصحيح .

إن بعض المسلمين قد نشأ فيهم في العصر الأخير أسلوب من التفكير لا يتفق مع روح الإسلام الأصيلة ، و

ذلك أنهم يحاولون أن يجمعوا بين الدنيا والآخرة ويسيروا بهما كتفا بكتف ، و يتمتعوا بمنافعهما في ساعة واحدة ، ان الجمع بين الدين و الدنيا نعمة كبيرة و فضل عظيم ، و الإسلام لا يؤمن بهذا التقسيم ، و قد جاء في القرآن الكريم:

﴿ ربنا آتنا في الدنيا حسنة و في الآخرة حسنة و قنا عذاب النار ﴾^١ .

و لكنهم أرادوا شيئا آخر ، انهم أرادوا أن يجعلوا الدين على كفة ميزان و الدنيا على كفتها الأخرى ، و حاولوا أن لا ترجح كفة ميزان و الدنيا على كفتها الأخرى ، و حاولوا أن لا ترجح كفة و لا تنخفض كفة ، فالدنيا لا تقل عندهم أبدا من الدين لأن الإسلام ليس فيه رهبانية ، و يقولون ان هؤلاء الصوفية الذين يقللون دائما من قيمة الدنيا و يحاولون أن يقلعوا حبها من قلوب الناس هم في ظلام من الإسلام الصحيح ، الإسلام الكامل ، ان هؤلاء الناقدين لا يؤثرون الآخرة على الدنيا و لا يتحملون في سبيلها مشاق ، فاذا وقع عراك مثلا بين مصلحة الدين و مصلحة الدنيا تحيروا و لم يجدوا حلا ، و ربما أساءوا الظن بالدين بأنه لا يستطيع أن

^١ سورة البقرة الآية ١-٢ .

يجاري الدنيا و أنه يحول بين الناس و بين شهواتهم ، أقول أنها مغالطة نبعت من عدم الاطلاع على حكم الإسلام في هذه القضية الكبرى انهم لم يعلموا بدقة و ضبط كيف يعاملون الدنيا و كيف يعاملون الآخرة ؟ و كيف يعملون للدنيا و كيف يعملون للآخرة و ما هي مكانة الدنيا في نظر الإسلام ؟ و كيف نجمع بينهما ؟ و ماذا يعني الإسلام بالجمع ؟ انهم لم يتفكروا في هذا الأمر و لم يرجعوا إلى مصادر الدين الصحيحة حتى تهديهم إلى الصواب و ترشدهم إلى الحق المبين .

ماذا يريد القوم بذلك ؟ هل هم يحبون أن يتمتعوا بالحياة و يتعمقوا فيها ، بل يتمرغوا فيها كما يفعل الناس في هذا العصر ، و بجانب آخر يتمكنون من الوصول إلى آخر درجة من الزهد و التقوى ، و الطهر و العفاف ، و الصدق و الأمانة ، و الطاعة و العبادة ، إلى آخر ما يقتضي الدين ، و يتمتعون بشمراتها في الحياة الآخرة كما استمتعوا بطبياتها في حياتهم الدنيا ، فاني أشير عليهم أن يسألوا القرآن ماذا يقول في هذا الشأن؟

إن الإسلام لا يقر التقسيم الذي آمنت به المسيحية "أعطوا لقيصر ما لقيصر و أعطوا لله ما لله" انه يقضي على

بسم

الرهبانية و يقول : "لا رهبانية في الإسلام" انه لا يحسب هذه الحياة سلاسل و أغلالا من الحديد و النار يجب أن نتحرر منها في أقرب فرصة ، و لا يحسبها قفصا من الذهب قد حال بيننا و بين الطيران في أجواء الروح الفسيحة .

و في ناحية أخرى انه لا يرضى أن يرى الحياة مباحة مشاعة مطلقة من سائر الحدود و القيود و يرى الدنيا غابة مظلمة تتحكم فيها السباع و الذئاب و الأسود و لا يعتبرها "فرصة ثمينة" لارضاء الشهوات و تحقيق الآمال و جمع الأموال.

انه يعطي الشعوب نظرة خاصة و فكرة متوازنة تسيغها فطرة الانسان و يقتضيها العقل البشري ، انه يعد هذه الحياة مزرعة للآخرة ، و هذا هو السر عنده في أهميتها ، انه يراها جسرا لا بد لنا أن نعبره في سبيل الوصول إلى الهدف ، انها أداة محترمة في سبيل الوصول إلى الغايات الرشيدة ، و لكنها على كل حال أداة لا ينبغي أن نتخذها غاية رغبتنا و أكبر همنا و مبلغ علمنا ، كما جاء في دعاء النبي ﷺ^١ ، انه لا

^١ كان من دعاء النبي ﷺ ﴿اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا و لا مبلغ علمنا و لا غاية رغبتنا﴾ .

ينكرها و يكرهها كـ بعض الديانات السابقة المعاكسة للفطرة
الانسانية ، و لا يقـدسها و يعبدها و يعكف عليها كـديانة
المادية الحديثة ، انه يرسم حدود " الدنيا و الآخرة " بـعلامات
و فواصل يجب أن نعرفها و نقف عندها ، الآخرة عنده دائماً
في الدرجة الأولى لأنها حياة غير فانية فاذا أضعنا تلك الحياة
الخالدة من أجل هذه الفترة القصيرة من العمر فهذا خطأ منا
في المقارنة بين الربح و الخسران، و سوء تقدير للميزان ،
الآخرة دائماً في الدرجة الأولى لأن عذابها خالـد و نعمتها
خالدة، و انه من فتور العقل أن تؤثر النعمة التي تـفنى على
التي تبقى ، و نرجح الذي يزول على الذي لا يزول .

فليست المسألة اذا مسألة جمع بين الدين و الدنيا ، انما
هي مسألة ايثار و ترجيح ، ان الإسلام لا يدع الدنيا قائمة
بذاتها ، انه يحللها في نفسه و يجعلها عبادة و يتحكم فيها و
يستخدمها حسب ارادته و قوته .

انه لا يؤيد هذا النوع من الجمع الذي يسيطر فيه المال
على القلب و الروح و الأعصاب ، و يحتل المركز الأول في
الحياة و يشغل الدين ركنا ضئيلا في غضون الرأس ، انه
يسمح للمال أن نضعه على راحة يد أو في داخل جيب ، أما

داخل القلب فلا .

أما اذا أردنا أن نساوي بين الدين و الدنيا في الأهمية فلا نحتمل نقصانا في الدنيا لحساب الدين ، و لا نرضى بترك الدنيا لأجل الدين . أما اذا أردنا أن نصلي للدين ساعة و نصلي للدنيا ساعات ، و نعبد الله مرة و نعبد المال مرات ، فاذا طالبنا الإسلام أن نتحمل خسارة مالية في سبيله أو نكبح جماح شهواتنا و نخفض مستوى حياتنا لأجله شق ذلك على النفس ، و رأيناها رهبانية و تقشفا ، فانها مغالطة يجب أن نصحيحها في أول فرصة .

و كيف يمكن أن تتساوى الدنيا و الآخرة و عمر الفرد على هذا الكوكب الأرضي محدود ، فلا يتجاوز ١٠٠ سنة على الأكثر ، و حياته في الآخرة خالدة غير محدودة غارقة في الأبد .

آمال الفرد في هذه الحياة طامحة و رغباته متوفرة و تمنياته متنوعة ، انه يحب أن يمس كل جميل و يذوق كل لذية و يتمتع بكل نوع من أنواع الراحة و الهناء و يفعل ما يشاء فخلقت له "الآخرة" و أخفى له فيها كل ما تقر به العين و يلذ به النظر و يطرب له القلب .

اذا تمتعت مائة سنة في هذه الدنيا من نعيمها الذي تخلطه
الكلفة ، و ابتسامتها التي تعقبها الدمعة ، و حُرمت ذلك
النعيم الأبدي الشامل الذي يمتد إلى ملايين الملايين من العصور
و الأحقاب ، فهل تجدك سعيدا بهذا يا ترى ؟

هذه هي وجهة نظر الإسلام في هذه المسألة ، واضحة لا
غموض فيها و لا التواء ، صافية مشرقة ليس عليها غبار
حقيقة انسانية يسبغها كل عقل و لا يختلف فيها اثنان .

انه ينبغي أن لا ننسى أن قيمة هذه الحياة و قيمة هذا
الكون هي نسبية (RELATIVE) اننا لا نحب هذه الحياة لأننا
نعيش عليها و نتمتع بها، اننا لا نحب المال لأن المال شيء
يستحق أن نحبه و نعشقه و نعبد ، اننا لا نحب هذا الكون
لأنه فائض بالقوة و الجمال ، زاهر بمعاني الحسن و الاحسان،
متقن غاية الاتقان ، اغما الشيء الذي يهب هذه الحياة و هذا
الكون قوة و مكانة ، أنها نعمة من الله سبحانه و وسيلة إلى
الوصول اليه : ﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم و اشكروا
لله﴾^١ ﴿أنفقوا مما رزقناكم﴾^٢ .

^١ البقرة : ١٧٢ .

^٢ البقرة : ٢٥٤ .

هذه الفكرة حول الكون و الحياة و الانسان تطلب من الناس أن يتمتعوا بهذا العالم بالمعروف و يكون أكبر همهم و أنبل أهدافهم الدعوة إلى الله و الرجوع إليه و انشاء المجتمع الانساني كله على هذه الأسس الصحيحة المتينة .

الدين عندهم دائما في النقطة الأولى ، فاذا وقع هناك اصطدام بين شهوة النفس و مصلحة الدين آثروا الدين و لم يترددوا و لم يرتابوا ، لأنهم خلقوا لهدف آخر أسمى من هذه الأهداف المادية الضئيلة و المآرب النافهة ، انهم يرجحون دائما كفة الآخرة لأنها الخالدة الباقية و هي دار القرار ، و ان الدار الآخرة هي الحيوان لو كانوا يعلمون ، هذه الفكرة تسيطر على جميع مشاعرهم و عواطفهم ، و تدفعهم إلى أن يبذلوا لها كل جهد و لا يدخروا لها وسعا و يحنوا إليها كأنهم منها على موعد و كأنهم في انتظار ، و هذا هو الفرق الأساسي بين أسلوب التفكير و الميل الطبعي الذي نراه بين هذه الطبقة التي أشرت إليها و بين هذه الطبقة التي درست القرآن كما يجب أن يدرس ، و فقهت السنة كما يجب أن تفقه ، و استمدت منهما النور في تفكيرها و سلوكها ، و منهج حياتها كلها ، و أختتم هذا المقال بكلام الامام أبي حامد الغزالي ، فقد أجاد في

وصف هذه الناحية الهامة بقلمه البليغ القوي فمما قال في
الاحياء :

" إن أقل درجات العالم أن يدرك حقارة الدنيا و خستها
و كدورتها و انصرامها ، وعظم الآخرة و دوامها ، و صفاء
نعيمها و جلالة ملكها ، و يعلم أنهما متضادتان و أنهما
كالضرتين مهما أرضيت احديهما أسخطت الأخرى ، و انهما
ككفتي الميزان مهما رجحت احدهما خفت الأخرى ، و
انهما كالشرق و المغرب مهما قربت من أحدهما بعدت عن
الآخر ، و أنهما كقذحين أحدهما مملوء و الآخر فارغ ،
فبقدر ما تصب منه في الآخر حتى يمتلئ يفرغ الآخر ، فان من
لا يعرف حقارة الدنيا و كدورتها و امتزاج لذاتها بآلمها ، ثم
انصرام ما يصفو منها ، فهو فاسد العقل فان المشاهدة و
التجربة ترشد إلى ذلك .

و من لا يعلم مضادة الدنيا للآخرة و أن الجمع بينهما
طمع في غير مطمع فهو جاهل بشرائع الأنبياء كلهم بل كافر
بالقرآن كله من أوله إلى آخره . فكيف يعد من زمرة العلماء
و من علم هذا كله ثم يؤثر الدنيا على الآخرة فهو أسير
الشیطان ، قد أهلكته شهوته و غلبت عليه شقوته ، فكيف
يعد من حزب العلماء " .

بين الدنيا و الآخرة (٢)

تحدثت في مقالي السابق عن نوع من التفكير جديد ان
رضيه التفكير المادي فان التفكير النبوي لا يرضاه و لا
يسيفه، لأنه تفكير سقيم لم يقم على دراسة القرآن الصحيحة
و دراسة المجتمع الانساني في القرن الأول ، و لأنه تفكير
ناقص (ONE SIDED) يأخذ نصيبه من الدنيا و ينسى نصيبه
من الآخرة ، انه يعني بهذه الناحية من الكتاب و السنة التي
تحت على الكسب و طلب الرزق ، أما الناحية التي تتصل
بالخين إلى الآخرة و الشوق إلى الجنة و الاقبال إلى الله و
ابتغاء مرضاته و الجهاد في سبيله ، و تقلل من قيمة الدنيا و
المال ، و يطارد حبه من القلوب ، و يصف الحياة الآخرة
كأنها هي الحقيقة الوحيدة في هذا الكون ، فانها لا تنال أهمية
لائقة من هذا التفكير مع أن هذه الناحية هي الناحية المفضلة
في القرآن ، و السمة البارزة في المجتمع الإسلامي الأول .
غاية أو وسيلة !

و الشيء الآخر الذي أضل الفكر و أظلم الطريق هو
النظر إلى الآخرة كمن ينظر إلى وسيلة و أداة لانشاء حكومة

أفضل و جيل أمثل ، ان هذا النوع من الناس يحسبون الآخرة طريقا من طرق الإصلاح و وسيلة من الوسائل الأدبية لتربية الفرد و الأمة ، و أداة قوية لبناء مجموعة بشرية صالحة ، لأنه لا بد للإنسان من حارس و مراقب يحثه على الخير و يمنعه عن الشر ، و هذا الحارس هو " اليوم الآخر " ، و أن مجرد قانون العقوبات لا يقدر أبدا أن يوجد في الناس عواطف الرحمة و البر و الشفقة و الحنان و يحثهم على الحياة النظيفة الطاهرة ، و أن القتل و النهب و الارتشاء و السوق السوداء ، و الاحتيال و اختلاس الأموال موجود في كل حكومة و في كل مكان يجنب البوليس و قانون العقوبات ، و نقف هنا قليلا فنقول " ان فكرة اليوم الآخر هي الحراسة لأعمال الانسان ، و لا شك ، و هي تستطيع أن تدفع عنه السيئات و تحثه على الحسنات ، و لكن يجب علينا أن لا ننسى أنها فائدة من فوائد الآخرة . أما غايتها الأصلية فانها لا تتقيد في حدود هذه الدنيا المحدودة القصيرة ، و لا نصل اليها إلا حين تقوم القيامة ، و يقال : ﴿ لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار ﴾^١ .

هنالك اهتدى هؤلاء الناس إلى الآخرة كوسيلة من

^١ سورة غافر ، الآية ١٦ .

أعظم الوسائل لاقامة النظام في العالم ، و آمنوا بها كضرورة خلقية Ethical Necessity لا يستغنى عنها فرد أو أمة ، أما كوصفها غاية هذا الكون و هذه الحياة و الهدف الأول لكل انسان في هذه الأرض ، و منتهى جهوده و تضحياته و مقياس نجاحه و خسارانه ، فهذا لا يعنيههم كثيرا ، فتراهم يتحدثون عنها كأنما يتحدثون عن شئ ليس له نصيب كبير من الواقع أو كأنما يتحدثون عن بعيد أو محال ، أو حلم و خيال ، فاذا مروا بآية ترغيب أو ترهيب في القرآن ، مروا غير عابئين بها مهما كثر فيه ذكرها ، و تتابع آياتها ، و اذا مروا على آية واحدة تتصل بالمعيشة و الكسب و العدة و الاعداد أفاضوا فيها و أرسلوا النفس على سجيئتها ، و انساقوا مع الحديث كل الانسياق .

بين التفكير النبوي و التفكير البشري :

و وهنا الفرق بين التفكير النبوي و التفكير البشري ، ان الانبياء عليهم الصلاة و السلام يعدون الآخرة أعظم غاية في هذه الحياة و هي عندهم واقع مشهود و حقيقة ثابتة ، و كأنهم ينظرونها و يتشققون في جوها ، و لا فرق عندهم بين المادة التي نلمسها و الغيب الذي لا نراه ، انهم يؤمنون بأن

الآخرة هي الغاية الوحيدة التي يجب أن يتنافس فيها المتنافسون
و يعمل لها العاملون بكل ما أوتوا من الصحة و القوة و المال ،
لا يدخرون لها وسعا ، و لا ييغون عنها بديلا و لا يرضون
دونها زهيدا و لا يسلكون سواها طريقا ﴿ و من زحزح عن
النار و أدخل الجنة ، فقد فاز ، و ما الحياة الدنيا إلا متاع
الغرور ﴾ ^١ و كل شيء يمكن أن يكون وسيلة إلا الآخرة ، و
رضا الله جل و علا ﴿ و ابتغوا اليه الوسيلة ﴾ أليست هذه
الحياة قصيرة العمر ، قليلة المتاع ، مدبرة ذاهبة ، خادعة
مضلة ﴿ كسراب بقية يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم
يجده شيئا ، و وجد الله عنده فوفاه حسابه ﴾ ^٢ ؟ أليست هي
الفانية و الأخرى باقية ؟ ﴿ كمثل غيث أعجب الكفار نباته
ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما ، و في الآخرة عذاب
شديد ، و مغفرة من الله و رضوان ﴾ ^٣ ألم يقل رسول الله
ﷺ : ﴿ اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة ﴾ و قال ﴿ من
أحب دنياه أضر بآخوته و من أحب آخوته أضر بدنياه ،

^١ سورة آل عمران ، الآية ١٨٥

^٢ سورة النور ، الآية ٣٩ .

^٣ سورة الحديد ، الآية ٢٠ .

فأثروا ما يبقى على الذي يفنى ﴿ وقال له ابن مسعود ؓ يوما : لو أمرتنا أن نسط لك و نعمل . فقال : ﴿ ما لي و للدنيا ، و ما أنا و الدنيا ، ما أنا إلا كراكب استظل تحت شجرة ، ثم راح و تركها ﴾ و قال مرة : ﴿ كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل ﴾ و قال : ﴿ الدنيا سجن المؤمن و جنة الكافر ﴾ و يقول القرآن ﴿ ان الدار الآخرة هي الحيوان لو كانوا يعلمون ﴾^١ أما هنا فقد انعكست الآية ، فاذا الغاية تصبح وسيلة ، و الوسيلة تتحول غاية ، و ذلك بدون أن يشعر أحد بأي انحراف وقع في اتجاه الحياة ، و أي جرح أصاب الروح الإسلامية و الفكر الإسلامي .

إنني أعجب من هؤلاء الذين لا يلمسون هذا البون الشاسع بين الفكرتين ، و يحبون - باخلاص - أن لا يبدو للناس الجانب الروحي من الإسلام . فينقص من قيمته و كرامته ومكانته السامية بين الحركات العصرية^٢ .

^١ سورة العنكبوت ، الآية ٦٤ .

^٢ و يا ليتهم يعلمون أن اسلام محمد عليه صلوات الله و سلامه و اسلام صحابته ؓ (في صورته و روحه الأولى) أصلح لهذا العصر الذي اتخم بالمادية و هو مع فكرته الأصيلة التي تستحيون من ذكرها =

مهما يكن من أمر فإن كل دارس للكتاب و السنة و
أحوال الصحابة يعرف جيدا أن هذه الفكرة لم تقم أبدا على
أسس إسلامية صحيحة ، و إنما نجمت في رجال أخذوا
بالحضارة العصرية - التي هي مادية بحتة - من غير أن
يشعروا ، و لم تنشرح صدورهم للإسلام ، و ان آمنوا بسبقه
في حقل السياسة و الاقتصاد و التشريع ، فهم يخجلون من أن
يعرضوا الإسلام في صورته الصحيحة و يتظاهروا بجانبه
الروحي العظيم في حياتهم من زهد و قناعة و ورع و تقوى و
خشية و إنابة و تضرع و ابتهاج و دعاء و مناجاة و حنين إلى
الجنة و شوق زائد إلى لقاء ربهم و حرص شديد على مغفرته
و رضوانه ، ذلك لأن هذه الفكرة التي اختاروها ليس بوسعها
أن تنشئ فيهم هذه الروح الدينية الأصيلة و كيف تفعل و قد
قامت من أول يوم منكرة لها ، أو كانت في عمى من قوتها و
تأثيرها و أهميتها و أصالتها .

إن الأنبياء عليهم السلام يعيشون كما يعيش الناس و
يأكلون و يشربون و يتزوجون و يحبون الأولاد ، و لكن لا
تذهلهم هذه الزخارف - لدقيقة واحدة - عن إيمانهم بأنهم

=دين كل زمان ومكان . و سفينة نوح في كل طوفان .

ذاهبون إلى الآخرة ، فالدنيا عندهم طريق للوصول إلى المقصود و وسيلة تفضي إلى الغاية ، أو قاعة امتحان للناس فمنهم من نجح و منهم من رسب ، أو (مخيم) تقوم فيه بالاعداد جسديا و روحيا حتى تفوز برضا الله عزوجل .

و يسرى ذلك الايمان في أصحابهم مسرى الروح في الجسم و الكهرباء في الأسلاك ، و يتحكم في ميولهم و نزعاتهم ، و أهوائهم و شهواتهم ، و يخلق منهم انسانا آخر حتى يصبح كل فرد منهم اماما و قدوة ، يقلده العالم و تتبعه الأمم ، فلا ترى فيهم إلا شوقا إلى الجنة و حينا إلى الآخرة و سعيًا إلى الجهاد و تسابقا في الخيرات ، مثلهم مثل جائع عطشان ، قد سدت في وجهه أبواب الرزق و قد رأى الماء وراء جبل فهو يسعى اليه بكل ما أوتي من قوة ، و لا يكل و لا يمل ، و لا يؤثر فيه استخفاف الناس لأنه قد رأى الماء بعينه ، و هو يعلم أنه لو لم يصل إلى هذا المكان لمات شر ميتة .

انها السمة البارزة و الوصف الأول للمجتمع الإسلامي الصحيح ، في عصر الصحابة و التابعين ، و هو المقياس النبوي الخالد الذي يقاس به الناس في كل عصر و مصر مهما تغيرت

الظروف والأوضاع ، و مهما تقدمت المدينة و تعقدت الحضارة ، و اختلطت الوسيلة و الغاية .

بينما نرى الطائفة الأخرى تستهين بهذه الناحية الجليلة و تهمل شأنها ، و قد رأينا كثيرا من الكتاب و المفكرين يجنون أن يعرضوا الإسلام في العالم كحركة تقدمية شعبية أو نظام اقتصادي أو سياسي ، يهدف إلى ترفيه الشعب و اقامة حكم صالح نظيف ، يسود فيه الهناء و السعادة ، و يحكم فيها بالسوية ، و يطمئن كل فيها إلى نفسه و عرضه و ماله ، فلا قتل و لا سرقة ، و لا غش و لا خيانة ، و لا غلاء و لا بلاء ، و لا الارتشاء و لا السوق السوداء ، و تكون جنة في الأرض.

أما الغرض الأساسي من الإسلام الذي يقول فيه القرآن: ﴿ قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾^١ و هدفه الأول و هو النجاة في الآخرة و الوقاية من النار ، فانهم لا يذكرونها في كتاباتهم إلا مرغمين ، مقهورين ، كارهين ، خوفا من أن يتهمهم البعض بأنهم رجعيون، يحلمون بالفردوس في دنيا العمل و الحياة، و يخشون

^١ سورة التحريم ، الآية ٦ .

الناس و الله أحق أن يخشوه .

الروح أولا :

الإسلام في نظرهم مجرد حركة و نظام كالحركات السياسية و المادية الأخرى : الاشتراكية و الشيوعية مثلا ، إلا أنه قد فاق أقرانه في مواهبه المدهشة لحل مشاكل العالم ، و صلاحيته للبقاء و الاستمرار ، و انكاره لفروق اللون و الجنس ، و هذا صحيح و لا شك ! و لكن هل بعث محمد عليه الصلاة و السلام لينشئ حكومة شعبية راقية يعيش في ظلها الانسان بسلام و يموت بسلام و هو لا يدري غايته و واجبه في هذه الحياة و لا يعرف ربه ، و ان عرفه ، فلا يحبه و لا يخشاه و لا يتشوق إلى الجنة و لا يخشى من النار ؟؟

و تطغي عليهم هذه الفكرة وتسول لهم أن يهملوا عالم القلب و الروح ، و يسخروا منه بعض الأحيان و يحتقروا العاطفة و فعلها السحري في النفوس ، و ينكروا أهمية الفرد في المجتمع و تربيته الروحية و علاقته مع الله و مشكلته الذاتية، حتى يواجه الموت و يضمه القبر و لا يغنى عنه حينئذ أدب أو علم أو سلطان ﴿ يوم تبلى السرائر فماله من قوة و لا

ناصر ﴿١﴾

و ربما يقول البعض اننا نقدم الإسلام كحركة عصرية
تقدمية لئلا ينفر منه العقل الحديث و كذلك نقدم الآخرة
كضرورة خلقية لأنها تسوغ انسان القرن العشرين الذي لا
يؤمن إلا بالنفعية و المادية و لا يفهم إلا هذه اللغة و هذا
الأسلوب و هذا حق ! لكن يجب علينا أن لا ننسى أن ائمة
أكبر من نفعه ، اننا بذلك نبني صرحنا الإسلامي على أشلاء
الفكرة الإسلامية نفسها ، و نغذى نزعتة المادية التي حاربها
الإسلام .

ان الإسلام روح و تشريع ، و عبادة و ثقافة ، و دين و
دولة ، انه ينشئ في أهله أولا هذه الروح التي لا يحتاجون
بعدها إلى رقابة ، و حراسة بوليس ، و يمدّهم ثانيا بقانونه
الالهي الشامل ، ﴿نور على نور﴾ ، يهدي الله لنوره من
يشاء ﴿٢﴾ .

نزلت آية منع الخمر فسالت الخمر في أزقة المدينة ، و
كسرت دنانها ، و قد كان الرجل منهم لم تفارق الخمر

١ سورة الطارق ، الآية ٩ - ١٠ .

٢ سورة النور ، ٣٥ .

شفتيه ، و الآخر كان يرفع الكأس إلى فمه ، فيسمعان بمنع
الخمر و يتوبان عن شربها حالا ، و لا يغيبن عن بالك أنه لم
يكن هناك جبر و لا اكراه ، و لا سينما و لا دعاية ، و لا
حراسة و لا رقابة ، و بعد ثلاثة عشر قرنا على هذا الحادث
الفذ العجيب تصدر الحكومة الأميركية قانون منع الخمر ، و
تنفق أموالا باهظة على الدعاية ، و تستخدم أحدث الوسائل
في بيان مضار الخمر عن طريق السينما و النشرات و الاذاعة ،
و لكن رغبة الشعب في الخمر اشتدت بالعكس ، وقوى
عناده ، حتى اضطرت الحكومة أخيرا إلى سحب القرار و
إباحة الخمر قانونيا . و تمنع روسيا الخمر في حدود دولتها في
إبان عهدها ، فلا تلبث أن ترغمها الظروف على إباحته .

ان الانبياء عليهم السلام لم يكونوا واضعي قانون
فحسب ، بل انهم كانوا مبشرين و منذرين ، و بما أن
الإسلام كل لا يتجزأ ، فانه لن يكمل اتباع النبي ﷺ في
التشريع و الأحكام ، فحسب ، بل يجب علينا أن نتبعه في
سيرته و سلوكه ، و عبادته و زهده أيضا ، و نتلقى منه قسطا
كبيرا من سمو الروح و تركية النفس ، أما اذا أخذنا بمجرد
التشريع و فاتتنا ناحية الروح التي هي كل شيء ، فقد فاتنا

الهدف ، و لم يكمل لنا الايمان ، و حرمانا اللذة الحقيقية و تركنا اللباب .

ما هو الغرض من التشريع ؟ ان الغرض من التشريع كما هو المعلوم هو رفع المجتمع إلى مستوى خلقي عال ، حتى لا ينحرف عن الطريق و لا يهبط إلى الخسيف و حمايته من التدهور الخلقي و الفساد ، فكيف لو جعلناه غاية و حسبنا غايته وسيلة ، كما فعلنا أمس بالآخرة حتى استغللناها كوسيلة لاقامة السلام في العالم ، و حماية المجتمع من الأدواء الخلقية و النفسية و الانحلال العائلي و الاجتماعي ، و نسينا أن الاصلاح الخلقي ، و نظافة الأسرة و المجتمع ، و التحرز من الحرام ، و الارتقاء بالحلال و أعمال البر و الخير ليست غايات بنفسها ، انما هي وسائل للنجاح في الآخرة و الاعداد الروحي و النفسي لكسب المغفرة و الرضوان من الله ﴿يوم لا ينفع مال و لا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾^١ .

الإسلام دين القوة ، و دين الحياة ، و دين الكفاح و الجهاد ، و دين التمكين و العزة ، و دين النظافة و الطهارة ، و دين الرحمة و الاخاء ، و دين الهناء و الرخاء .

^١ سورة الشعراء ، الآية ٨٨-٨٩ .

و لكن هي كلها منافع و ثمرات يعطيها الله عباده المؤمنين ، و نعمة ينعمها على أهل الايمان ، و هي كلها وسائل نبتغي بها رضي الله في الدنيا و الآخرة ، و نتقي بها النار و نكسب بها الجنة ﴿ ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم و أموالهم بأن لهم الجنة ﴾^١ ﴿ و ابتغوا اليه الوسيلة ﴾^٢ .

و إنه من الجفاء كل الجفاء و ظلم لا يعدله ظلم أن نخلط بين الوسيلة و الغاية ، و نقلب الحقائق ظهرا لبطن ، ثم نزهو بهذه الخدمة الجليلة التي نقوم بها باسم العلم و الدين ، و الإسلام و المسلمين ، من غير أن نشعر أي نقص وقع في جهازنا الفكري و ما سيكون له من نتائج سيئة و عواقب وخيمة في الحياة الدنيا و يوم يقوم الحساب ! ﴿ ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع و هو شهيد ﴾^٣ .

^١ سورة التوبة ، الآية ١١١ .

^٢ سورة المائدة ، الآية ٣٥ .

^٣ سورة ق ، الآية ٣٧ .

القلب الصناعي

و القمر الصناعي

انها حضارة بلا قلب ، أو هي حضارة ذات قلب صناعي ، و الفرق بين هذا القلب و ذاك كالفارق بين القمر الطبيعي الذي خلقه الله و القمر الصناعي الذي صنعه الانسان ، غير أن هذين القلبين يتشابهان في الصورة و الشكل و الحجم ، و لا يبدو بينهما فرق في النظر المادي .

ان قلب الحضارة العصرية قلب صناعي أو في تعبير آخر هو قلب حيواني شهواني ، ليس للفضيلة و الخير و الأخلاق عنده معنى ، و لا للعاطفة النبيلة مكان .

ان "دارون" و "ميكافيلي" و "فرويد" و "ماركس" هم من الذين ساهموا في صنع هذا القلب نصيب أوفر ، ليزرعوه مكان القلب الانساني الذي كان ينبض - حيناً - بالرحمة و الحنان ، و يتدفق بالحب و الايمان ، و يفيض برا و مؤاسة لخلق الله ، و يحرق كالشمعة لخير البشرية و صالح الانسانية .

ان هذا القلب لم يصنع في يوم واحد ، و لم يصنعه رجل واحد ، انه كان نتيجة عمليات مختلفة النوع و الصورة تمت

على أرض أوربا ، و خلاصة صراعات ثقافية و دينية و سياسية وقعت بين الكنيسة و البلاط ، انه نتيجة ملاحم دموية كثيرة ، و اضطهاد رهيب وقع داخل محاكم التفتيش و خارجها ، و التي نقرأ أخبارها في التاريخ الأوربي القديم ، و نشاهد آثارها و نتائجها في التاريخ الأوربي الحديث .

ان جميع هذه العوامل و الأسباب و المؤثرات و التيارات الفكرية ساهمت في تكوين هذا القلب و صناعته ، و لكن الجيل الجديد من بعد قد وضع النقط على الحروف ، و نقص آخر خيط كان يربط القلب بالمعاني الانسانية الكريمة و الأقدار الخلقية المعروفة في كل بلد و قطر ، المحترمة في كل أمة و شعب ، فجاء "دارون" ليقطع صلة الانسان عن أعظم تراثه الانساني ، ذلك التراث و التاريخ اللذان استحق بهما الانسان أن يكون شيئا آخر أعز و أسمى من الحيوان و الجماد ، و شيئا آخر أعز و أسمى من تطورات المادة و الطبيعة ، و الأعيب الزمان و المكان ، و جاء "فرويد" لينفي قيمة العواطف النبيلة و سمو الانساني و يهبط بالانسان في مستنقع آسن متعفن من الجنسية و الشهوة ، يتمرغ فيه كالحشرات ، و جاء "ميكافيلي" فبث في الناس أن كل كذب

و تضليل و استعباد و اضطهاد جائز في سبيل المصلحة السياسية ، فلا حرج في القيام بأفطع الجرائم و أشنع المنكرات لاشباع رغبة قومية و تحقيق مصلحة سياسية ، و جاء "ماركس" فقال : ان البطن هو المحور الحقيقي للنشاط الانساني الذي تم في التاريخ و الذي سيتم في المستقبل .

نجحت كل هذه الجهود و المحاولات أو المؤامرات ، و وجدت الانسانية قلبا جديدا ، و لكنه كان قلبا صناعيا ، لم يترك فيه الصناعون ناحية واحدة للمشاعر الانسانية .

ترى ماذا يحدث اذا وضعنا قلب حيوان في أحشاء انسان أو بالعكس ؟ ماذا يمكن أن يكون هذا الانسان بعد هذه العملية الخرقاء و بماذا نسميه اذا ؟ و لكن ذلك حدث فعلا ، فكان من نتيجة ذلك أن نشأت حضارة غير منسقة ، فاقدة الاتزان ، فتضخمت نواح تافهة ، لم يكن لها كبير قيمة على حساب نواح أولية ، كانت في الدرجة الأولى من الأهمية ، و هذا هو الشيء الذي التوى فهمه على كثير من مفكري الغرب ، فقالوا ان حضارتنا قامت من غير تصميم سابق ، كلا بل انها قامت على تصميم سابق ، لكنه تصميم زائع . ان هذا القلب الصناعي الذي تحملونه بين جنبيكم لا

يسمح لكم أن تتروا الأمور على حقيقتها ، انه - كالمنظار
الأسود - يغير لكم لون الأشياء ، و يؤثر في تفكيركم و
حكمكم فيها من غير أن تشعروا بهذا التغيير ، بينكم من
يقوم بنقد شديد لاذع لخضارتكم ، و لكن لا يمكنهم مع
ذلك أن يقطعوا صلتهم عن هذا القلب الذي صنعه فلاسفتهم
و علماؤهم في عصر النهضة الأوروبية .

ان حادث القلب الصناعي الذي تم اعداده على مرأى
من الناس و مسمع ، لم يحرك فيكم ساكنا بينما هذا القمر
الصناعي الذي أطلقته روسيا أخيرا أدهشكم جميعا ، و نال
اعجابكم جميعا ، انه القلب الصناعي الذي يخفى لكم كثيرا
من الأشياء ، و يكشف أخرى ، و ينقص من أهمية شيء ، و
يزيد من أهمية شيء آخر .

" لقد تكلم "اينشتين" بنظريته المشهورة "نسبية الزمان و
المكان ، و المادة " قائلا ان كل شيء نسبي لنا ، و قال بعض
فلاسفتكم : ان يوما واحدا في عالم ما بعد انقضاء يساوي قرنا
أو أكثر منه في هذه الكرة الأرضية ، فالرجل الذي يسافر إلى
المريخ سيعود منه في يوم واحد ، لكنه لا يجد أحدا ممن
تركهم ، لأنه يكون قد مضى زمن طويل على هذه الأرض .

آمتنم بهذه النظرية، و تناقلتها صحفكم و أقلامكم و لم
تفطنوا حتى الآن إلى أن نظرتكم إلى الكون و الحياة و
الانسان ، نظرة نسبية على الاطلاق ، و رأيكم في القيم
الخلقية و الانسانية رأى نسبي كذلك ، لأنه صدر عن قلب
صناعي ، و هذا القلب لا يستطيع أن يحكم في الأشياء إلا من
وجهة نظر مادي بحت ، و يجهل كل شيء ، لا يدخل في حيز
وظيفته ، و لكنكم لم تلقوا أي اعتبار لهذه النسبية القلبية التي
بليت بها ، و ابتليت بها الانسانية ، و صفقتم للنسبية الكونية
و الزمنية التي لا صلة لها بالانسان، إلا من بعيد .

أما أصبحت الخلاعة و المجون أدبا و الظلم قوة و المكر
و الخديعة كياسة و لباقة ، انها نسبية " القلب الصناعي " و
لغته التي لا تفهمونها انها أقوى من نسبية " اينشتين " لو كنتم
تعلمون .

أليس من العجيب أن الانسان الذي يحاول أن يطير فوق
آفاق أخرى ، و يصل إلى كواكب بعيدة جدا من الأرض ،
هو في الوقت ذاته يخالف أبسط قواعد الأخلاق و الرحمة و
الانسانية ، بل المدنية العامة و يهبط إلى مستوى أسفل من
الحيوانية .

أو ليس أعجب من ذلك أن كثيرا من الناس في الغرب يعرفون جيدا أنهم سائرون في سبيل الدمار العالمي ، و أن هذه المسابقة الرهيبة في حقل المادة و القوة سيؤدي بهم حتما إلى الفناء ، فبدلا من أن يخففوا شيئا - بحكم المنطق - في هذا الهوس المادي نراهم قد غلوا في هذا الهوس و أكثروا منه و أصبحوا أكثر نشاطا و قوة و جنونا من ذي قبل .

انه " القلب الصناعي " مصيبة القرن العشرين ، القلب الذي ربيناه على آخر أنواع علمها البشر من الاثم ، و آخر درجات وصل اليها الانسان من البغي و الطغيان ، انه القلب الذي علمناه أن لا يرحم أحدا و لا ينصر مظلوما و لا يرعى إلا و لا ذمة .

ان القمر الصناعي يفضينا إلى سر خطير من أسرار التاريخ ، و يكشف عن لغز كبير من ألغاز الحياة ، انه يلفت أنظارنا إلى " القلب الصناعي " ذلك الداء الذي تحمله البشرية بين جنبها ، و هي لا تدري أين الداء ؟ و تبحث عبثا عن الدواء .

إن القمر الصناعي اشارة صوتية من الفضاء لعلم أن الشيء الذي نتعاقبه في الجو ، و نبحث عنه في مظاهر الطبيعة

الكونية يكمن في قلب الانسان نفسه ، و هو ينتظر من يكون
القادم الأول لهذا الكشف الانساني العظيم .

ان القمر الصناعي تحذير للذي لا يبصرون أكثر من
المادة و المعدة، أنهم قد أخطأوا في اختيار الجهة ، و اختاروا
طريقا موحشا مضلا لا يضمن الوصول إلى السعادة الحقيقية
للانسان ، بل انه نذير خطر جديد ، خطر نكوص البشرية
على عقبيها عدة قرون ، اذا أصرروا على صحة الجهة ، و
سلامة الوصول ، و من يدري إلى متى تظل البشرية هكذا ،
حائرة تائهة في غياهب القرون و الأجيال .

انها الحضارة الإلهية !

ان الإسلام "حضارة الهية" اذا صح هذا التعبير ، فهو ليس كأصنام ينتحتها البشر بأيديهم ثم يعبدونها ، أو يحطمونها اذا غضبوا عليها ، و يضعون محلها صنما آخر ، هو ليس كالمذاهب الفكرية و الحركات الاجتماعية التي اخترعها الانسان في مختلف أدوار التاريخ ، ثم فرضها على نفسه من غير سلطان بين ، و أحاطها بهالة من التقديس و الاجلال . حتى اذا وجد أن هذه الحركات لا توافقه نسيها أو تناساها ، و وضع محلها مذهبا آخر ، و هو مغرور بنفسه و بعقله ، لا يدري أين يسير به هذا الدوران ، و ما هي نهاية المطاف ؟

إن موقف الإسلام من هذه الأصنام المادية و المذاهب الانسانية موقف صريح و موقف بين ، إنه لا يفرق بين الأصنام القديمة و الحديثة ، فكلاهما في نظره سواء ، لأنهما من صنع البشر .

أما هو - أي الإسلام - فهو "شريعة و منهاج" من عند الله ، أنزله على البشر ليسير على هداة ، و بما أنه من عند الله فهو محفوظ عن الخطأ و الانحراف ، و الزيف و

الضلال ، لا حاجة فيه إلى تعديل أو تغيير ، و لا حاجة فيه إلى ادخال تحسينات و اصلاحات شأن المذاهب الانسانية و الحركات الاجتماعية و السياسية كلها ، و إلى ذلك أشار القرآن حين قال : ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾^١ و قال : ﴿لَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِهِ .. وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^٢ .

إذا فهو " حضارة الهية " فما أسس هذه الحضارة و مبادئها ؟ و ما هي روحها و غايتها ؟ و كيف تكيف المجتمع تكيفا كلياً ، و تخلقه خلقاً جديداً ؟

المبدأ الأول : إذا دققنا النظر و تعمقنا في دراسة هذه الحضارة وجدنا أن هنا شيئاً واحداً يهيمن على الجهاز كله ، و يسيطر عليه سيطرة كاملة ، و هو أن الوصول إلى الله و نيل رضاه هو في الحقيقة وظيفة الانسان الأولى و الأخيرة في هذه الحياة ، و لا وظيفة له غير ذلك مطلقاً ، فيجب عليه أن لا يسعى لشيء ، مثل ما يسعى لهذه الغاية ، و لا يحب شيئاً مثل ما يحبها . ﴿قُلْ : إِنْ صَلَاتِي وَنَسْكَي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي

^١ سورة الملك ، الآية ١٤ .

^٢ سورة الأنعام ، الآية ١١٦ .

لله رب العالمين ﴿١﴾ واذكروا الله كذا كركم آباءكم أو
 أشد ذكرا ﴿٢﴾ . إن هذه العقيدة و هذه العاطفة هو النبوع
 الذي تنفجر منه الأنهار و الشلالات فيظن الجاهل أن هذه
 الأنهار أو هذه الشلالات هي غايته القصوى و أنها هي
 المقصودة ، و لا يفهم أنها مظاهر هذه العقيدة ، أو أجزاء هذا
 الكل ، و قد يندesh البّاحث اذ يرى - و هو يدرس هذه
 الحضارة - أن خيطا من النور يربط مظاهر هذه الحضارة و
 أجزائها برباط متين وثيق ، فمن اماطة الأذى عن الطريق إلى
 آخر درجات الجهاد و افضل أنواع السعي الديني روح
 واحدة لا يتخللها شيء ، روح التقرب إلى الله و السعي اليه ،
 إن هذا التناسق و هذا الانسجام بين مبادئ هذه الحضارة و
 أعمالها و مظاهرها شيء يدهش له الانسان و لا يجد له تأويلا ،
 و كلما يخوض في الدراسة يزداد حيرة و اعجابا ، و يزداد
 ايمانا و تصديقا ، ﴿٣﴾ و لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه
 اختلافا كثيرا ﴿٣﴾ .

١ سورة الأنعام : الآية ١٦٣

٢ البقرة : الآية ٢٠٠ .

٣ سورة النساء ، الآية ٨٢ .

بـخلاف " الحضارة الانسانية " فانه يرى أن الغايات هنا متعددة ، و الأهداف هنا متنوعة ، و الآلهة هنا كثيرة ، أو ليست هناك غاية و لا هدف ، و لا اله على الاطلاق ، كما أنه لا يجد تناسقا في الأفعال ، و لا اتحادا في الغايات ، فما لقيصر لقيصر ، و ما لله لله ، بل ما لله لقيصر - اذا نظرنا إلى الحالة السائدة اليوم .

أما في الحضارة الالهية فالحياة كلها عبادة ، و الأرض كلها مسجد ، فلا ترى انسانا في هذه الحضارة إلا و هو في سعى دائم متواصل ، و حنين دائم مستمر لأن يكون أحسن عملا من جميع الناس ، و أن يكون ﴿ مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين و الصديقين و الشهداء و الصالحين ، و حسن أولئك رفيقا ﴾^١ .

و هذا هو المبدأ الأول الذي يقوم عليه صرح حضارتنا الالهية ، و هو يتفخ في نفوس أبنائها روحا تحترق كالشمعة ، و قلبا سليما لا يقر له قرار ، و لا يهدأ له بال ، و عاطفة مؤمنة جياشة لا يغرها الجمال الكاذب و المتاع الزاهب ، و تسيطر هذه الروح على جميع مرافق هذه الحضارة فمن النظام

^١ سورة النساء ، الآية ٦٩ .

الفردى إلى النظام العائلى إلى النظام الأسرى ، إلى النظام الاجتماعى ، إلى النظام الدولى مظاهر متعددة لشيء واحد ، و صور شتى لحقيقة واحدة:

عبارتنا شتى و حسنك واحد و كل إلى ذاك الجمال يشير . انها حضارة متسقة متزنة ، قد يختلف فيها الاثنان فى منهاجهما و سلوكهما ، و قد يختلفان فى وظائفهما و أعمالهما ، فهذا تاجر و ذلك عامل ، و هذا موظف و ذلك فلاح ، و هذا حاكم و ذلك محكوم ، و كل له حقل خاص ، و وظيفة خاصة ، و لكن الشيء الذى لن يختلف فيه اثنان فى هذه الحضارة هو النية من وراء هذه الوظائف و الأعمال ، و الروح التى تحدها فان هذا الشيء لا تتعدد فيه مسالكهما و لا تتفرق فيه سبلهما أبدا .

المجتمع الربانى : اذا قلنا إن مجتمع الحضارة الالهية مجتمع تعاونى اشتراكى ، لعدلنا كثيرا عن الصواب ، ان هذا المجتمع أكثر من اشتراكى و تعاونى و افضل منه ، و هذا المعنى لا يكفى لتصوير روحه كاملا ، إن المجتمع الاشتراكى يقوم على أساس تبادل المنفعة ، بل إن كل مجتمع انسانى يقوم على أساس التعاون و الاشتراك فى العمل ، و لا يستطيع أن

يعيش يوما واحدا بغيره ، فان الانسان خلق ضعيفا ، و لا بد لهذا الانسان الضعيف أن يكون له أعوان و أنصار و اصدقاء ، و لكن المجتمع الرباني له لون خاص و مكانة فريدة بين الحضارات ، انه لا يعتبر الانسان - شأن الحضارات الانسانية الأخرى - سلعة للبيع مهما كانت ثمينة أو غالية ، و لا يجب له أن يعيش على أساس تبادل المنفعة فحسب ، بل انه يهديه إلى طريق أفضل ، و هو أن يعيش الانسان في هذا العالم لتعيش رسالته و دعوته التي بعث من أجلها ، و أن يخدم الآخرين و يساعدهم غير طامع في أجر ، و لا حريص على مكافأة " يا قوم لا أسألكم عليه أجرا ، ان أجري إلا على الذي فطرني أفلا تعقلون " ^١ و أن لا يعلق قلبه بمباهج الحياة و زخارفها ، فان أصابته سراء حمد الله ، و ان أصابته ضراء استغفر الله ، و أن يؤمن بأن القدر خير و شره من الله تعالى ، فلا حاجة إلى الاستعانة بمخلوق و الاقبال عليه في أمر من الأمور ، بل ينبغي للجميع أن يتوجهوا إلى الله و يثوبوا اليه ، و أن لا يقصروا في أداء ما عليهم من حقوق و واجبات و أمانات فرضها الله عليهم ، غير طامعين فيما عند الناس فان ما عند

^١ سورة هود ، الآية ٥١ .

الله هو خير و أبقى ، و كان هذا شعار الأنبياء دائما ، و شعار أصحابهم من بعدهم .

إن الفرد في هذا المجتمع لا يبر أخاه ، و لا يساعده ، و لا يعينه كواجب خلقي محض ، يجب على الجميع أن يؤدوه كاملا وفق ما تفرض عليهم اشتراكية المجتمع ، بل انه يقوم بهذا العمل حرصا على الثواب ، و طلبا للمغفرة ، و طمعا في رضى الله سبحانه ، و في هذا المعنى يقول الحديث الشريف : ﴿ الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه ﴾ بخلاف الفلسفة المادية التي تقول : ﴿ ان العبد في عون العبد ما دام متعاونين ﴾ و شتان بينهما ، فالنتيجة أن كل فرد في هذا المجتمع يبقى في محاولة مستمرة ، ليسبق أخاه في الخيرات و الحسنات ، حتى يستحق ثواب الله و رضاه ، و يستحق جنته التي وعدها الله عباده بالغيب .

اليد العليا خير من اليد السفلى :

لعل هذه الجملة هي خير ما تمثل المجتمع الرباني ، فهي تربى المجتمع على أجل معاني التضحية و الايثار ، و هو مظهر رائع من مظاهر الحضارة الالهية و المجتمع الرباني .

و معنى اليد العليا أن يؤدي الانسان واجبه و لا يطلب

حقه ، و أن يعطي و لا يأخذ ، و أن يعين و لا يستعين ، و أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، فإذا استقرت هذه المعاني في مجتمع، رفعت منه الثورات و الضغائن ، و ذابت فيه الأحقاد، و قضى على النفعية و الانتهازية و حب الذات إلى الأبد ، و هذا هو الشيء الذي لم يوفق اليه المجتمع المادي ، فكله الآن صراع مستمر من أجل الحقوق ، العمال يحبون أن يعملوا قليلا و يربحوا كثيرا ، و أصحاب المعامل لا يريدون ذلك ، إنهم يحبون أن يكدح العمال و الفلاحون ليل نهار مقابل راتب ضئيل لا يكفي لمطالب حاجاتهم ، و هنا ينشأ الصراع، ثم ينتهي هذا الصراع إلى اضطرابات ، و تؤدي هذه الاضطرابات إلى معارك دموية ، تزهق فيها الأرواح ، و تسفك فيها الدماء .

أما في المجتمع الرباني فأخالة هنا مختلفة تماما ، لأن كل فرد فيه حريص على الاتفاق ، حريص على الخير ، حريص على السماح و العفو ، فلا داعي للصراع بين الطبقات ، و لا مبرر للحقد و البغضاء في النفوس.

﴿ عن أبي ذر قال : دعاني رسول الله ﷺ ، و هو يشترط على أن لا تسئل الناس شيئا ، قلت : نعم . قال : و

لا سوطك ان سقط منك حتى تنزل اليه و تأخذه ﴿ و هذا الحديث وحده يعيننا في فهم هذا المجتمع و دراسته و تحليله .
 - و في حياة الرسول ﷺ ، و ما نقرأ عنه من أنه كان يزاول جميع أعماله بيده المباركة أكبر دليل على ذلك . و التاريخ الإسلامي حافل بهذه الأمثلة و القصص فترى أن كل من تذوق حلاوة الايمان ، و دخلت بشاشته في قلبه أفنى نفسه و ماله ابتغاءاً لوجه الله ، و طمعا في رضاه ، و بالغ في خدمة الناس و ايصال النفع اليهم و معاونتهم بينما لم يرض لنفسه أن يمن عليه أحد و لم يطلب حقه من أحد ، و تقي لو جمع بين حسنات الجميع و رجع بثواب الجميع .

تضحية و إيثار :

إن التعاون واجب و طبعي و لازم للبشرية ، و لكن دراسة الإسلام و دراسة حضارته الالهية تقنع الباحث الحر أن هنا فرقا عظيما بين المجتمعين : الرباني و الاشتراكي ، و أن هذا المجتمع لا يشبه المجتمعات القديمة و الحديثة أدنى شبه ، و أن له آفاقا لا تشاركه فيها المجتمعات الأخرى .

ففي الأول تضحية و ايثار و عفو و سماحة ، سماحة قلب و سماحة يد ، و سباق إلى الخير و مكارم الأخلاق ، و ذلك

كله ايمانا و احتسابا .

و في الثاني سوق للتجارة و تبادل منافع و مصالح ، و تقسيم أرباح ، فاذا قصر أحد في واجبه حدث صراع بين الأفراد ، و عمت القوضى ، فلا يلبث هذا التعاون أن يتحول إلى تطاحن و عراك ، يكدران صفو الحياة.

في الأول : الناس يستقبلون تكاليف الحياة و مطالبها باسمين و ان لم يجدوا جزاءها في هذه الدنيا ، لأنهم واثقون بأنهم سينالون جزاءها موفورا في الدار الآخرة ﴿ و يؤثرون على أنفسهم و لو كان بهم خصاصة ﴾^١ . و في الثاني : الناس لا يستطيعون أن يتحملوا تكاليف الحياة و مطالبها إلا اذا كانت لهم في ذلك فائدة ملموسة و نفع ظاهر في هذه الحياة ، و لا يحبون أن يحسنوا إلى أحد إلا اذا أحسن هو اليهم ، و لا يؤثرون على أنفسهم و لو كانوا أغنياء ، و ذلك لأن حب الذات قد طغى عليهم إلى حد جعلهم لا يفرقون بين الشر و الخير ، و لا يميزون بين الخبيث و الطيب ﴿ من يهد الله فهو المهتد و من يضل فلن تجد له وليا مرشدا ﴾^٢ .

^١ سورة الحشر ، الآية ٩ .

^٢ سورة الكهف ، الآية ١٧ .

فاذا وصف أحد المجتمع الإسلامي بأنه مجتمع اشتراكي أو تعاوني ، فقد أخطأ و أساء إلى روح هذا المجتمع و شبهه بشئ لا يرفع قيمته بل ينقصه ، و إنه بذلك أدخله في صف المجتمعات المادية قديما و حديثا ، التي لا ندري أن واحدا منها حقق عشر ما حققه المجتمع الإسلامي ، أو أتى بثمرة واحدة من الثمار الطيبة التي يتوفر بها هذا المجتمع .

إلى الله :

و اذا كنا أكثر صراحة و بساطة و أكثر دقة و وضوحا قلنا : ان هذه الكلمة الخفيفة على اللسان ، الثقيلة على الميزان هي في الحقيقة محور نشاط هذا المجتمع ، و كعبة آماله و أحلامه ، و هي التي تنفخ فيه الروح و تبعث فيه النشاط ، و هي حادي الشوق الذي يحدو هذا المجتمع إلى غايته و مقصوده ، و يحبب إليه متاعب السفر ، و آلام الطريق ، و يجعله ينشد بلسان حاله :

فليتك تحلو و الحياة مريرة

و ليتك ترضى و الأنام غضاب

وليت الذي بيني و بينك عامر

و بيني و بين العالمين خراب

إذا صح منك الود فالكل هين

و كل الذي فوق التراب تراب

إن المثل الفريد لكل فرد في هذا المجتمع أن يكون من عباده الذين ذكرهم الله في كتابه المجيد ، بقوله : ﴿ رضي الله عنهم ورضوا عنه ﴾^١ فهو يبذل ماله و نفسه بلا تردد و لا حساب ، ليجمع أكبر مقدار ممكن من الحسنات ، و الحسنات لا حد لها و لا نهاية ، و كلما يزداد حسنة يزداد شكرا و حمدا ، و توبة و استغفارا ، و خشوعا و ابتهاالا ، و لا يزال يقطع مسافة بعد مسافة ، و يطوي مرحلة بعد مرحلة ، و يقتحم عقبة بعد عقبة ، إلا و يتكرر في أسماعه قول الله تبارك و تعالى ﴿ هو الذي خلق الموت و الحياة ، ليلوكم أيكم أحسن عملا ﴾^٢ و ﴿ و اعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾^٣ و ﴿ يا أيها الانسان انك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه ﴾^٤ فتجيش العاطفة في صدره مرة ثانية ، و يواصل رحلته

^١ سورة البينة : ٨ .

^٢ سورة الملك : ٢ .

^٣ سورة الحجر : ٩٩ .

^٤ سورة الانشقاق : ٦ .

الروحانية بنشاط مزيد و أمل جديد ، حتى يسمع هذه
البشرى: ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ،
فمنهم من قضى نحبه ، و منهم من ينتظر ، و ما بدلوا
تبديلاً ﴾^١ ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم و أموالهم بأن
لهم الجنة ﴾^٢ ﴿ يا أيها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية
مرضية ، فادخلي في عبادي و ادخلي جنتي ﴾^٣ .

إن هذه العقيدة الدافئة ، و هذا اليقين الراسخ ، و
الحب الصادق ، هو أكبر قوة موجهة و أكبر معجزة عرفتها
البشرية في عمرها الطويل ، و بهذه القوة الخارقة و المعجزة
الكبرى كان وجود حضارتنا الإسلامية و حياتها ، و بذلك
كان بقاؤها و استمرارها ، و بذلك كان نموها و ازدهارها ،
و بذلك كان ابداعها و اعجازها ، الحضارة التي أدهشت
عقول الفلاسفة و المفكرين ، و حيرت العلماء و المؤرخين في
التاريخ ، و لا غرابة فانها شئ أعز و أثمن من التاريخ ، انها
من الله و اليه .. إنها " الحضارة الالهية " .

^١ سورة الأحزاب : ٢٣ .

^٢ سورة التوبة : ١١١ .

^٣ سورة الفجر : ٣٠ .

الغرب في ضوء التحليل النفسي

إن دراسة الحياة الغربية بما فيها من متع و زخارف ، و
آلام و مخاوف و تحليلها تحليلاً نفسياً توصلنا إلى نتائج مهمة ،
لها صلة كبيرة بالوضع الانساني الحاضر و العالم المعاصر ، كما
أن فيها دروساً عظيمة للعالم الإسلامي الذي يتهياً اليوم
للوثوب و الانطلاق للتعويض عما فاتته عبر القرون الماضية
المتلاحقة ، و أخذ يبصر نهاره الساطع وراء السحب الداكنة
و الدخان المتصاعد من الفتن و الثورات و التطورات و ان لم
تتبن معالنه و تباشيره بوضوح .

إن الحياة الغربية ليست وليدة المصادفة ، و لا مفقودة
النسب بل انها قامت على تقاليد و أصول و مبادئ و تاريخ ،
و انتمت إلى الحضارة الرومية و ورثتها خلقياً و فكرياً ، و لها
مقومات و نظريات خاصة ، لا يمكن اهمالها و الاعراض
عنها ، و نحن في موقف الدراسة النزيهة ، و التحليل النفسي
الخالص .

إن الصراع الطويل بين العلم و الدين و بين الكنيسة و

البلاط دفع أوربا دفعا قويا إلى الأخذ بالأساليب المادية في حياتها بل التفاني فيها ، و ظلت هذه النزعة تقوى على مر الأيام ، حتى آل بها الأمر إلى مانراها عليه الآن ، و كان كل ذلك طبيعيا و واقعا لا محالة ، و لكنها كانت النكبة الأولى و المأساة الأولى ، و النكبة الثانية بدأت الآن - بعد أن بلغت أوربا أوج قوتها المادية - و تجلت معالم هذه النكبة بوضوح في الحياة الأوربية اليوم .

كانت النكبة الأولى نكبة للذيدة اذا صح هذا التعبير ، نكبة شاب فج متهور لا يبالي بالأخطار ، لقد كان فيها الحرارة و النشاط ، و الحمس و الاندفاع ، و الآمال و الأحلام ، كان فيها شوق رجل يريد أن يرتقي إلى قمة عالية من الجبل ، و هو يتوهم أن فيها معين الحياة الخالدة التي طالما تغني بها الشعراء في الشرق و الغرب فهو في حنين دائم مستمر لا يعرف للسهر و التعب معنى ، و لا يحسب لهما حسابا ، و يندفع اليها اندفاع الهائم أو المفتون ، و هذه كانت حالة أوربا تماما طوال هذه الحقبة من الدهر .

و لكنها الآن - و قد بلغت هذه القمة ، وجدتها خرابا بلقعا - تواجه أزمة عاطفية حادة ، لا تستطيع أن تعرف

كنهها ، و لا تقدر على التخفيف منها ، إنه الشعور بالفراغ
الروحي ، إنه الملل النفسي أو السامة النفسية التي اعترتها و
طغت على سائر بيئاتها ، فلم تخل منها مدرسة و لا بيت ، و
كان كل ذلك طبيعيا و واقعا ، فان الانسان مفطور على
الحنين و التطلع إلى الهدف أيا ما كان ذلك الهدف ، و هو
يجب أن يكون له هدف يجري نحوه جريا ، و يتلذذ بهذا
الجري المتواصل ، و اذا نال هذا الهدف أحب أن يكون له
هدف آخر يستهلك قواه و مواهبه و طاقاته و أشواقه .

إن الحياة الغربية اليوم حياة مريحة "مكيفة" و الانسان
الغربي نال كل ما تمنى من قوة مادية ، و عزة قومية ، و مع
ذلك فان هنالك آلاما و أوجاعا ، تعانيها كل أسرة و كل
بيت في الغرب سواء في أميركا أو في انجلترا ، أو في أي قطر
من الأقطار الأوروبية .

إنهم يبدون لك كأنهم فقدوا شيئا ، و لا يعلمون ما
هذا الشيء ؟ و لكنه شيء خطير ، أعقب كل ذلك الخلل و
الاضطراب ، و القلق و الارهاق ، و الملل و السامة ، و
الفراغ الروحي الرهيب المبيد في الحياة الغربية ، و ملائمتها
مخاوف و هواجس من مصيرها ، و لكن هل هي تعرف

مصريها ، كلا ! انها اذا حيرة ، حيرة صامتة ، استبدت بالحياة الأوربية ، أو مست كل فرد من أفرادها ، من غير أن يعرف من أمرها شيئا .

فما هي آثار هذه الحيرة و تلك السّامة في حياتها ؟
لئن كانت آثار هذه الحيرة و السّامة غامضة نوعا ما قبل أعوام، فانها أصبحت الآن واضحة جلية ، في جميع مرافق الحياة الأوربية ، نلمسها في كل شارع ، و في كل بيت ، و نقرأ أخبارها كل يوم في الصحف ، و الجرائد و ان غر بها مرا سريعا ، من غير أن نفهم دلالتها و مغزاها العميق.

أفاد الأنباء منذ أيام "أن رجلا في "اسرائيل" ابتلع ثمانية فيران ، نظير ١٧ فلسا تقريبا ، فقبض عليه البوليس بتهمتين : تهمة محاولة الانتحار ، و تهمة القسوة بالحيوان ، و أجريت عملية جراحية في بطنه ، فخرجت منه الفيران الميتة " .

لئن كان ذلك حادثا واحدا ما استرعى اهتمامنا ، و لم نقف عنده موقف المتامل الباحث ، و لكن توالى هذه الحوادث و تتابعها بصورة عامة دائمة ، حتى أصبحت ظاهرة قوية من الحياة الأوربية ، و جزءها الذي لا ينفك عنها ، دفعنا على أن نحاول فهم دلالتها المعنوية و الوصول إلى كنه

الحياة الأوربية التي تعاني آلاما و أمراضا اجتماعية و خلقية كثيرة من غير سبب ظاهر .

و اليك مثلا آخر قد يكون أكثر دلالة و أكثر وضوحا ، قام أساتذة جامعة أوربية و علماؤها بتجربة مثيرة ، فقد خرجت جماعة مؤلفة من كبار أساتذة الجامعة ، و دخلوا في حديقة و انطلقوا يأكلون الأعشاب و البقول على هيئة الدواب و الأنعام ، و قال العلماء : انهم وجدوا لذة كبيرة في هذه الطريقة الجديدة .

و قرأنا في الجرائد منذ زمن أن رجالا قاموا بمباراة الكلام الفارغ فأخذوا يتكلمون ثلاثة أيام ليلا و نهارا بدون انقطاع حتى تورمت ألسنتهم ، و أشرفوا على الهلاك ، و آخرون قاموا بمسابقة المشى ، فربطوا بأرجلهم دواليب تنزلق بهم ، فلم يقفوا للحظة واحدة مدة يومين أو ثلاثة ، و ذلك رجل دعا الصحفيين إلى حجرته في إحدى المطاعم الأوربية الفاخرة ، لمشاهدة حادث انتحاره ، و قال : إنه دعاهم ليشاهدوه منتحرا ، ثم يسجلوا هذا الحادث الفظيع في صحفهم بعناوين بارزة .

و هذا يقفز من الطائرة و يقتل نفسه ، ليحرب هذا

النوع الفريد من الانتحار الذي لم يوفق اليه أحد من الناس حتى الآن ، و ذلك ثرى يقف كل ثروته و ممتلكاته لكلبه الحبيب الوفي بعد وفاته ، و هذا أرسقراطي كبير ذو مكانة مرموقة في المجتمع يبنى بناية شائعة مكيفة لكلايه المدللة .

إن مثل هذه الظواهر و الحوادث تجلت في كل ناحية من نواحي الحياة الأوربية ، و تسربت في أجزائها ، و لو استقصينا ما وقع بالأمس القريب ، و يقع اليوم ، و ما يجري في هوليوود من مهازل لرجعنا بحكايات مضحكة طريفة ، قد لا تصدق ، و لكنه واقع لا ينكر ، و هو طابع الحياة الأوربية الأصيل في الوقت الحاضر .

إذا درسنا تلك الحوادث و الظواهر التي ذكرناها آنفا و حللناها رجعنا منها بنتيجة واحدة ، و هي :

إن جميع هذه الحوادث تدل على قلق نفسي شديد و فراغ روحي رهيب ، أغلق على الغربي منافذ فكره ، و أظلم دروب حياته فظل يروح نفسه بأشياء تافهة ، عساها تجد فيها عتتها ، أو يبلغ بغيتها ، أو يروي غلتها ، أصحاب هذه الظواهر يبدون في الظاهر أنهم أثرياء مزفون متعممون ، و لكنهم في الحقيقة أشقياء غير مسرورين ، مصابون بآلام و

أسقام و أوجاع نفسية و عصبية و روحية ، جعلت حياتهم
جحيمًا لا يطاق.

إنهم جعلوا المجد و الشهرة و القوة السياسية و المادية
نصب أعينهم فبلغوها و جنوا ثمراتها ، و هنالك بدأ ذلك
الصراع النفسي ، فماذا بعد هذه الحرية العامة و الانطلاق
التام من قيود الخلق و الروح ، إلا الحيرة و الجنون و
الضلال.

و نسوق اليك مثالا آخر ، و هو يؤيد قولنا أنه لم يبق
جزء من الحياة الأوروبية ، إلا و قد تأثر بهذه الظاهرة ، و
اصطبغ بلونها ، و ان هذه الحوادث ليست حوادث فجائية ،
أتت عفوا ، و من غير قصد ، بل انها نتيجة تطور داخلي
هائل و داء أصيل كامن في النفس ، له جذور عميقة ، في
قرارة الحياة الغربية .

خذ مسألة الطعام ، ان طريقة المآدب الأوروبية المفضلة
اليوم أن يأكل فيها الناس قياما ، فعليهم أن يتجولوا في صالة
الطعام و يأخذوا لقمة من هنا و لقمة من هناك ، مشيا على
الأقدام .

كل ما في الأمر أن هذا شيء جديد ، و ان خالف العقل

و الصواب، و ان خالف مصلحة الانسان ، و منفعته أيضا .
ان الدوافع الأساسية على مثل هذه الأعمال و الظواهر
دوافع متشابهة . فالذي ابتلع الفيران لم يكن في حاجة إلى هذه
الفلوس القليلة ، بل انما قام بهذا العمل العجيب الكريه
ليواجه - و لو من غير نتيجة - ذلك الفراغ الذي حطم
كيانه ، و لما أنه لم يكن يملك أعصابا قوية تدفعه على عمل
مثل الانتحار ، رضي لنفسه بمثل هذه التفاهة و العبث
الفارغ..

و الذين قلدوا الدواب و الأنعام في أكل الأعشاب و
البقول لم يقوموا بذلك بدافع الفضول أو على سبيل النكتة و
السخرية ، انهم أرادوا عزاء علميا و مكانة اجتماعية ، فنالوها
و أرادوا الدنيا فتهاكت عليهم ، فاستمتعوا بها ، و لكنهم
أحسوا سريعا أنها أخفقت في اعطائهم طمأنينتهم المفقودة ، و
سر حياتهم الضائع ، و لما لم يكن أمامهم طريق غير هذا
الطريق المادي ، و لا هدف غير هذا الهدف المادي ، ارادوا أن
يجربوا حياة الدواب و يعيشوا في هذا الجحيم من الدهر ،
عليهم يجدون ما يبتغون .

انها سامة و لا شئ ، سامة خفية كامنة في الدم ، غارقة

في اللحم و العظم ، سامة في كل حركة و نشاط ، و في كل ما يقومون به من أعمال .

الحياة الغربية حياة ربطت ناصيتها بالآلة الصماء ، فانها -مهما ابتليت بها على يديها و ذاقت منها ألوانا من العذاب-مربوطة بها بالسوق و الأعناق ، لا ترى إلى المناص سبيلا ، و لا تجدد إلى الخلاص حيلة ، اذا أخفقت في نوع جربت نوعا آخر من نفس الشيء إلى ثالث و رابع و خامس ، دوران لا ينتهي و لا أمل في انتهائه ما دامت لا تعدو أرضا واحدة ، هي أرض المادة و القوة القومية .

مقياس الحضارة في المجتمع الإسلامي

هذه الناطحات للسحاب ، و تلك المباريات للريح ، و
هذه الخافقات في السماء ، و السابحات في الماء ، و هذه
الأنوار المتألثة البديعة و الألوان الرائعة البهيجة ، و هذه
الاصوات المحمولة على جناح الأثير ، و الصور الحية المتحركة
على الشاشة ، و هذا المقعد المريح ، و الفراش الوثير ، و
الطعام اللذيذ ، و الزي الأنيق ، و هذه الابتسامة المتكلفة ، و
المشية المتبخرة ، و هذه الأجساد العارية الكاسية ، و
النزوات الشائرة العاتية ، و هذه الحرية الكاملة في طريق
الشهوات الفتية الجامحة ، ليست "حضارة" انما هي مظهر
طبعي ، و مظهر برئ ، و مظهر صادق ، للروح المستورة
وراء هذه المظاهر ، و الصور و الأشكال .

إنها ليست حضارة أبدا ، و انها ليست نهضة أبدا .
فالعبرة دائما - و في جميع الأحوال و الملابس -
باليد العاملة من وراء ستار ، و بالروح الآمرة الناهية المتصرفة
في خفاء و من وراء جدار .

عندنا في الشرق - و في الشرق الإسلامي بوجه أخص

- خلط و التباس عجيب في مفهوم الحضارة "والنهضة" ان مداركنا لهذه "الحضارة" لا تختلف كثيرا عن مدارك الرجل الغربي للحضارة ، اننا لم نستطع أن نفرق بين اللب و القشر ، و بين الوجه المستور و الوجه المكشوف ، و بين الصورة و الحقيقة ، و بين القيم الراسخة في النفس ، الغارقة في الأعماق ، و بين هذه المظاهر المبعثرة على وجه الأرض ، المنتشرة في الآفاق .

الحضارة ليست ذلك الكرسي الذي نجلس عليه و القلم الذي نكتب به ، و الاناء الذي نشرب منه الماء ، انما هو "الشخص" الذي يستعمل هذا و ذاك لغرض خاص و عاطفة خاصة ، و روح لا تنفك عنه لأي لحظة من اللحظات ، فاذا كانت هذه الروح روحا قدسية و روحا طيبة و روحا نظيفة جلس يذكر الله ، و راعي أثناء الشرب أن لا يكون حراما ، و حمده على هذه النعمة ، و شكره على هذا الخير .

و اذا كانت هذه الروح روحا سافلة ، روحا خبيثة ملتصقة بالأرض ، متمرغة في الوحل ، وحل الشهوات و النزوات ، جلس لنفسه أو لشيطانه ، و كتب في تشويه الحق و تقوية الضلال ، و شرب من آنية حرام و ماء حرام ، و عاد

إلى إجرامه في محاربة دين الله .

فالحضارة اذاً ليست هذه "الأدوات البريئة" التي خلقها الله في خدمة الانسان ، بل انما هي روح تهيمن على هذه التصرفات ، و النية التي تنبعث منها هذه الأعمال .

" و انما الأعمال بالنيات و انما لكل امرئ ما نوى " .

إن مقياس الحضارة في المجتمع الإسلامي ، غير مقياسها في المجتمع الجاهلي بجميع صوره و ألوانه ، و هذه هي نقطة الفصل ، و نقطة الالتباس أيضاً ، الأصل - في المجتمع الإسلامي - هو العبودية لله ، و الخضوع أمام شريعته و الاتصال به اتصال القلب و الروح و التفكير و الوجدان ، و الجهاد في سبيله بأعز ما يملكه الانسان ، أما هذه الوسائل و الأدوات فهو لا يأخذ منها إلا بقدر ما يكفي لتحقيق مهمته في هذه الحياة ، و اعلاء كلمة الله في الأرض ، و لا يأخذ منها إلا في حدود معلومة واضحة أذن بها الله .

أما مقياس الحضارة في الغرب فهو أن يأخذ الانسان كل ما تهوى نفسه من مال و متاع و نساء بالوجه الشرعي أو غير الشرعي سواء بسواء، إن هذا المقياس يعتبر السابق في هذا المجال و الفائز في هذه المسابقة أسعد انسان على ظهر

الأرض ، و بين المقياسين بون شاسع و فرق هائل . و لكنه فرق طبيعي بين الإسلام و الجاهلية ، في سائر نشاطاتهما و أدوارهما منذ زمن قديم .. جدا ، إن روح الغرب مادية بحتة، مظلمة كالحلة ، و هي لا تستطيع أن تنتج غير هذه المظاهرة المادية ، انها عقيمة عن كل نوع من الأهداف السامية ، و الأغراض النبيلة ، انها عاجزة عن أن تنجب الايثار ، و الحب، و الحنان ، و الايمان ، و الانابة ، و التوكل ، و الشكر، و القناعة ، و الصبر ، و التماسك ، و العفاف ، و الطهارة ، و الاخلاص ، و الوفاء ، و الطاعة ، و الولاء ، و لا أي معنى نبيل كريم عظيم ترتفع به هامة الانسان في غابة الحيوانات ، و يسمو به على غيره من المخلوقات .

هذه الروح المادية المظلمة هي مقياس "الحضارة" في الغرب ، و أساسها و جوهرها ، و لحمتها و سداها ، و طابعها الدائم الأصيل ، فاذا هي ركزت كل قواها على المادة، فانها بذلك لم تأت بدعا ، بل انما عملت عملها الطبيعي ، و قامت بدورها المنتظر ، و آتت ثمرها المرتقب .

أما نحن - تلك الأمة التي بعثها الله لتغيير الموازين و المقاييس و تغيير وجه الأرض و اتجاه الانسانية - فلا يجوز لنا

و لا يجدر بنا أن نقع فريسة هذا الخلط العجيب بين المقياسين،
و بالتالي بين الحضارتين .

إن استيلاء الغرب العلمي و السياسي أقام ستارا كثيفا
دون رؤية الحقائق ، و ذر الرماد في عيوننا ، و فرض علينا
مفهومه الخاص عن الحضارة الذي لا يقبله الوحي و الشريعة ،
و الدين الالهي ، في أي حال من الأحوال .

فحينما يقولون - في جميع البقاع و الأصقاع - عن
مجتمع أنه متحضر ، أو عن شعب أنه شعب متحضر ، فانهم
لا يريدون بذلك تلك الصفات الانسانية النبيلة ، و الأهداف
السامية ، بل انهم يريدون تضخمه المادي ، و رخاءه
الاقتصادي ، و تفوقه العلمي فحسب ، و لو كان ذلك على
حساب ضمير المجتمع و قلبه و انسانيته ، فأصبح المسلمون
أيضا منذ زمن طويل منذ استيلاء الغرب و فوزه بعرش
القيادة، لا يفهمون من "الحضارة" إلا ذلك المعنى الغربي ، و
ظلوا طوال عشرات السنين يدافعون عن الإسلام دفاع المعتذر
الخائف ، و يحاولون أن يبعدوا عنه هذه التهمة المزعومة التي
التصقت به ، فانطلقوا بنفس النغمة الغربية ، و عرضوا
الإسلام كحضارة من هذه الحضارات المادية ، الارضية ،

السافلة ، و قالوا : ان حضارتنا سبقت الغرب في هذه الأنواع ، و أنها أيضا أقامت الحمامات الضخمة ، و الينابيع العظيمة المدهشة ، و المباني الهائلة الرائعة ، و شجعت الفنون الجميلة و الصورة و الرسم و الموسيقى ، و قدموا الآثار التاريخية ، أمثال قصر الحمراء في الاندلس ، و التاج محل في الهند ، كنموذج لهذه الحضارة الرائقة الزاهية .

هنالك طبقة من المثقفين و أنصاف المثقفين في ربوع العالم الإسلامي كله لا تزال تحتضن هذه الفكرة منذ زمان ، و ترى فيها السلامة و الأمان ، و لكن هذه الفكرة - في الأصل - فكرة غريبة تماما ، تولدت من سوء فهم لمعنى الحضارة ، و سوء تقدير للمنهج الإسلامي ، المستقل الأصيل .

إذا كانت هذه الأشياء "حضارة" فمعنى ذلك أن الصحابة و التابعين كانوا غير متحضرين ، و كانوا جهّالا قرويين ، - و نعوذ بالله - أمام بطارقة الفرس و الروم ، و ملوكهما و أمرائهما ، و يحلوا لي أن أقدم هنا منظر دخول ربيعي بن عامر ، بلاط رستم قبل وقعة القادسية ، فإن فيه تفسيراً لما نقول ، و تصويراً للموقف الإسلامي ازاء الحضارات المادية قديمها و حديثها .

" أرسل سعد بن أبي وقاص قبل القادسية ربعي بن عامر رسولا إلى رستم ، قائد الجيوش الفارسية و أميرهم ، فدخل عليه ، و قد زينوا مجلسه بالنمارق و الزرابي و الحرير ، و غير ذلك من الأمتعة الثمينة ، و قد جلس على سرير من ذهب ، و دخل ربعي بثياب صفيقة و ترس و فرس قصيرة ، و لم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط ، ثم نزل و ربطها ببعض تلك الوسائد و أقبل و عليه سلاحه ، و يبضته على راسه ، قالوا له : ضع سلاحك ، فقال : اني لم آتكم ، و انما جئتكم حينما دعوتوني ، فان تركتموني هكذا و إلا رجعت ، فقال رستم : ائذنوا له ، فأقبل يتوكأ على رمح فوق النمارق ، فخرق عامتها فقال له رستم : ما جاء بكم ؟ فقال " الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده و من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة ، و من جور الأديان إلى عدل الإسلام " .

هنالك نرى الحضارة الإسلامية واضحة جليلة في موقف ربعي بن عامر في هذا البلاط و حديثه مع الملك ، و دعوته إلى الدين الحق ، و هو يدلنا أن حضارة " النمارق و الزرابي " ليست إلا بداوة و تأخرا و انحطاطا اذا خلت عن نور الوحي

الالهى و الهدى السماوى ، و أن المظاهر لا اعتبار لها ، بل ان
الاعتبار للروح التى تحدها .

و قد تسربت موجة من هذه المظاهر على مر الزمن فى
المجتمع الإسلامى أيضا فحاربها عمر بن عبد العزيز فى عهده ،
و أصلح ما فسد ، و أقام ما أعوج ، و سد هذه الثغرات فى
حصن المجتمع الإسلامى و معقله المنيع .

الإسلام لا يعادى نعمة الرخاء و الهناء ، و قد قال
القرآن :

﴿ قل : من حرم زينة الله التى أخرج لعباده و الطيبات
من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم
القيامة ﴾^١

و يقول :

﴿ و لا تنس نصيبك من الدنيا ، و أحسن كما أحسن
الله اليك ﴾^٢ . و كان من دعاء رسول الله ﷺ دائما طلب
العفو و العافية و اليسر و المعافاة فى الدنيا و الآخرة .
و لكنها ليست - عنده - حضارة فى ذلك المعنى

^١ سورة الأعراف ، الآية ٣٢

^٢ سورة القصص ، الآية ٧٧

الخاص الذي يراد به في الغرب و الشرق اليوم ، انه لا يعتبر
الفقر في المكاسب و المغام و الوسائل و الأدوات تأخرا و
المخطا ، و لا يعتبر الرخاء المادي "حضارة و مدينة" بل انما
العبرة عنده بالروح التي تستر وراء هذا و ذاك و تسوقه هنا و
هناك .

و شعاره الوحيد ، أنه لا قديم و لا جديد ، و لا
حضارة و لا بدائة ، و لا تأخر و لا نهضة ، و لا رجعية و لا
تقدمية ، بل جاهلية و اسلام ، و نور و ظلام .

﴿ فماذا بعد الحق إلا الضلال ﴾^١ !

فالمسلم الفقير ، الجاهل ، المجرد من كل شارة و لافتة ،
العاطل من كل زينة و رخاء ، و رواء و بهاء ، متحضر ، و
ثقاف ، و راق ، اذا حمل في صدره نعمة الايمان و لوعة
الحب ، و تربي على تلك المكارم و الفضائل التي دعا اليها
الإسلام .

فأصبح الشيء الفاصل بين " متحضر " و " متخلف "
هو الايمان و مدى تسربه في القلب ، و سيطرته على النشاط
الفكري و العضوي ، و أصبح مقياس " الحضارة " تلك

^١ سورة يونس : ٣٢ .

الفضائل الإسلامية و الأهداف السامية التي رأينا مثلها
الشخص الحي في المجتمع الإسلامي في القرن الأول ، و وجدنا
نظائره و أشباهه ، و بعض ملامحه و صورته في الأوفياء لدين
الله ، في هذا العصر ، القابضين عليه بين جواذب الحياة و
اغراءات المجتمع و سوط التعذيب كالقابض على الجمر .

مقياس الحضارة في الإسلام روح و قلب ، و مقياس
الحضارة في الغرب حديد و صلب .

مقياسها في الإسلام مدى إيمان الفرد و الجماعة و كيفية
جهادها للرسالة التي تحملها ، و الدعوة التي تحتضنها ، و
مقياسها في الغرب و في تلاميذ الغرب مدى مادية الفرد و
الجماعة ، و مستوى غناها و ثروتها و منطقة نفوذها و
سيطرتها ، و صلاحية احتلالها و استغلالها .

مقياسها في الإسلام الايثار و انكار الذات ، و مقياسها
في الغرب الاثرة و تعبد الذات ، مقياسها في الإسلام البر و
المؤاسة ، و مقياسها في الغرب الأنانية و اللامبالاة .
مقياسها في الإسلام قدسية الأهداف ، و نبل الغايات ،
و مقياسها في الغرب مادية الأهداف و نفعية الغايات .
مقياسها في الإسلام العلم النافع ، و القلب الخاشع ، و

مقياسها في الغرب تضخم المعلومات ووفرة الذخائر ، و
تحجر القلب و قسوة الفؤاد .

مقياسها في الإسلام تحقيق خلافة الله في الأرض ، و
اجراء أحكامه و شرائعه في البشر ، و السير بالانسانية على
خط مستقيم نحو هدفها الحقيقي و تأمينها الابدي و عيشها
السرمدى ، و مقياسها في الغرب تحقيق نزوات الجسد ، و
الحكم بالطاغوت ، و السير بالانسانية على خطوط متفرقة نحو
أهداف رخصه و متعة عاجلة و نعيم زائل ، و سراب خادع ،
و سخط الله و عذابه في الأخير .

مقياسها في الغرب ، الأبيض و الأسود ، و الأحمر و
الأصفر ، و لقاصي و الداني ، و القريب و البعيد ، و القوي
و الضعيف ، و المالك و المملوك ، و الغني و الصعلوك ، و
مقياسها في الإسلام ﴿ كوكب دري يوقد من شجرة مباركة
زيتونة ، لا شرقية و لا غربية ، يكاد زيتها يضيئ ، و لو لم
تمسسه نار ، نور على نور ، يهدى الله لنوره من يشاء ﴾^١
مقياسها في الإسلام ﴿ و جعلناكم شعوبا و قبائل لتعارفوا ،

^١ النور ، لآية ٣٥ .

ان أكرمكم عند الله أتقاكم ﴿١﴾ و ﴿٢﴾ لا فضل لعربي على عجمي و لا لعجمي على عربي إلا بالتقوى ﴿٣﴾ ، مقياسها في الإسلام سلمان "الفارسي" و بلال "الحبشي" و صهيب "الرومي" مع أبي بكر ، و عمر ، و عثمان ، و علي ، رضي الله عنهم أجمعين .

مقياسها في الغرب حلة فاخرة و نفس فاجرة ، و مقياسها في الإسلام نفس مطمئنة هادئة ، و مظهر نظيف متواضع ، و مقياسها في الغرب البحار و الجبال و الأنهار و الجداول الصغار و مقياسها في الإسلام جنات عدن تجري من تحتها الأنهار ، و رضوان من الله و ما عند الله غير للأبرار .
انه مقياس و هو مقياس ، فلنقص هذا الانحطاط و التأخر في الغرب الذي يسمونه "حضارة" و هذا الجهل عن الحقائق و الأهداف و العمي عن الدار الآخرة و الحياة الحالدة ، الذي يسمونه "ثقافة" بهذا المقياس الخالد العادل الصريح الذي وضعه الإسلام في أيدي المسلمين لئلا يوخذوا بآظاهر الكاذبة و الشعارات الزائفة ، و اللافطات المزورة ، و يكونوا دائما على ثقة و اعتزاز بدين الله و مكانتهم في خلق الله

١ الحجرات ، الآية ١٣

﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من
ربه، فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله ، أولئك في ضلال
مبين ﴾^١

^١ الزمر ، الآية ٢٢ .

الا ان سلعة الله غالية

الا ان سلعة الله الجنة

إن شهادة الكاتب الإسلامي الكبير و المجاهد العظيم
سيد قطب ابراهيم شهادة ذات عدة جوانب ، إن فيها خسارة
العلم و الدعوة ، و خسارة الفكر ، و خسارة الأدب ، و
خسارة المعارف ، و لكنها - فوق كل هذا - خسارة ذلك
القلم الشائر انقوي ، المتدفق كالينبوع الهاطل ، كالشلال
الساخر ، بالآلهة الباطلة ، العامر بالايمان ، القلم الذي زحجر
كالعاصفة ، و التهب كالشعلة ، و تحرق كالشمعة ، و أشرق
كالسيف ، و أتت كل هذه الجوانب في وقتها المناسب ، ذلك
القلم الذي أمسك به العالم العربي يدافع به عن اسلامه ، و
يهجم به على أعدائه ، و يتشرف به بين أقلام أدبائه .

إن قلما هذا شأنه لم يتحطم و لن يتحطم ، كما أن
صوت حسن البنا لم يخمد و لن يخمد ، و سيبقى كلاهما على
خط النار ، رغم التهديد و الانذار ، يحرسان الفكر الإسلامي
و الدعوة الإسلامية ، و يحافظان على خصائصهما عن طريق
شعلة الايمان التي استضاءت بها صدور المؤمنين المعذبين .

و الله لو كانت الدعوة الإسلامية لا تحمل الشدائد و
الآزمات و لا تصبر على التعذيب و الاضطهاد ، لقضى عليها
في أول يومها و في مهدها ، يوم عذب بلال بن رباح ، و
عمار بن ياسر و خباب بن الأرت ، و خبيب رضي الله عنهم
أجمعين ، و قضى عليها حين ألهب الجلاد ظهر أحمد بن حنبل
بسوطه حتى أغمي عليه ، أو قضى عليها اثر شهادة حسن
البناء ، و عبد القادر عودة ، انه عدد قليل من أولئك الآلاف
المؤلفة من المجاهدين ، الصابرين المعذبين ، الذين يتجمل بهم
التاريخ ، و تتجلى بهم كل بقعة من بقاع العالم الإسلامي عربا
و عجماء ، شرقا و غربا .

إن هذا التعذيب و الاعدام و عملية التطهير ، و ما
يطلقون عليها من أسماء ، سنة الأنبياء في كل زمان و مكان ،
و ان هذه الدماء الزكية القانية روت أرض الكنانة كلما
أصابها الجذب ، و حافظت على غرس الإسلام كلما أصابه
اعصار ، أو أصابته نار .

إنها نفخت في قافلة الأحرار و الأبطال روحا جديدة ،
و عزما أكيدا ، كلما غلب عليها النعاس و دب فيها اليأس .
إن هذه الدماء ، دماء الشهداء أكدت أننا ما زلنا على

العهد ، و أنها ﴿ لا تزال طائفة من أمتي منصورين لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة ﴾ ﴿ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا و هم لا يفتنون و لقد فتنا الذين من قبلهم ، فليعلمن الله الذين صدقوا و ليعلمن الكاذبين ﴾^١ .

فاذا استشهد هذا القلم و تحطم في سبيل الله ، فانه أنشأ فوجا من حملة الأعلام يدافعون عن دين الله ، و لا يخافون في سبيل الله لومة لائم .

إنه فتح للشباب طريقا معلوما واضح المعالم ، مشرق السمات و القسمات ، يتابعونه و يسرون على نهجه في الإصلاح و الكفاح ، و الصبر و الجهاد ، و الثبات على المبدأ و الثقة بالله و بنصره المبين في الدنيا و الدين .

إن هذا القلم أعلن أن الشهادة مرحلة حاسمة لازمة أمام مد الإسلام ، و أن المؤمنين يواجهون في سيرهم كل نوع من الصعوبات و العقبات و الاهانات ، و التكيل ، و التشريد ، و التعذيب الوحشي الذي تقشعر منه الجلود ، فعلى كل من يريد أن يقوم للدعوة أن يهيب نفسه لله ، ﴿ إن الله اشترى

^١ سورة العنكبوت ، ٢-٣

من المؤمنين أنفسهم و أموالهم بأن لهم الجنة ﴿١﴾ .

ألا ان سلعة الله غالية ألا ان سلعة الله الجنة !

إن شهادة سيد قطب تحمل وجهين ، فلو كان لمصر لسان أو قلم لافتخرت بهما بابنها البار الشهيد ، واعتبرت هذه الشهادة مكرمة لها و جزءا من تاريخها و بطولة رائعة من بطولاتها - و لا أنكر ما لمصر الحديثة من فضل في هذا المجال و في ساحة القتال ، و من يستطيع أن ينسى ذلك الشباب الطاهر النقي الأبى الذي ذهب ضحية أصدقائه في الزرنانات و المعتقلات أو أراق دمه سخيّا قانيا في أرض البطولات .

هنيئا لك يا مصر العزيرة الحبيبة هذه المأثرة الجديدة ، و هنيئا لك هؤلاء الأبطال الذين رفعوا رأس المسلمين بهذا المثل الرائع للتضحية و الفداء و الثبات على جادة الحق ، و الجهاد الدائم المرير للعقيدة و المبدأ .

هنيئا لك يا مصر هذا الدم الجديد في موكب الشهداء ، و أعتقد أنك تعزين بهذه الشهادة رغم ما تتجرعين من مرارة الخسارة و تتكرمين بهذه التضحية و البطولة ، رغم ألم الندامة، فاننا نعرف حرج موقفك و دقة مسئوليتك .

^١ سورة التوبة ، الآية : ١١١ .

هنيئاً لك يا مصر أحرارك و أبطالك الذين دامت
محنتهم، و طال ليلهم ، و انتقلوا من اضطهاد إلى اضطهاد ، و
من شوك إلى قتاد ، و اعتادوا التعذيب و الاهانات ، حتى
صار لديهم شيئا عاديا مألوفا .

هنيئاً لك هذه الخمسون ألفاً في الزنانات لم يتزعزع
واحد منهم رغم الاغراء و التهديد ، و رغم الهمجية التي
تقشع منها الجلود و يتندى لها جبين الحياء ، و لم يطلب أي
واحد منهم عفواً و لم ينقض ميثاقاً ﴿ من المؤمنين رجال
صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه و منهم
من ينتظر ، و ما بدلوا تبديلاً ﴾^١ .

فلئن انتقدوك و عابوا عليك هذه القسوة النادرة ، و
المذابح البشرية الهائلة ، أثنوا عليك و حيوا فيك قوة
احتمالك و صلابة عودك ، و ثقتك و إيمانك ، و لئن أخذوا
عليك رضاك بالذل و قبولك الضيم و خضوعك للعدوان ، و
استسلامك لكل سلطان ، على اختلاف الازياء و الالوان
أعجبوا بك و رحبوا فيك هذه البطولات الرائعة النادرة ، و
هذه المواقف التاريخية تحت القنابل و الرصاصات ، و أنواع

^١ الأحزاب ، ٢٣ .

غريبة من التعذيب الجسدي و الروحي ، الذي يخرج به
الانسان من طوره و يفقد رشده و صوابه .

إنك يا مصر تجتازين الآن مرحلة ذكرها القرآن في قصة
موسى عليه السلام ، فقال : ﴿ فلما تراءى الجمعان ، قال
أصحاب موسى انا لمدركون ، قال : كلا ان معي ربي
سهيدين ﴾^١ ، فلا تخافي من كثرة الجنود و متابعة رجال
المخابرات ، و قسوة رجال الاضطهاد ، و مهازل محكمة
الأمن العليا ، و دعاية الصحافة الرخيصة الفاجرة المحترفة التي
هتكت كل القيم و المبادئ الانسانية ، و تعرت عن سائر
اعتباراتها الخلقية و مسؤولياتها الصحفية ، فكل ذلك تفسير
﴿ انا لمدركون ﴾ و تصوير دقيق معجز لتلك الحوادث التي
وقعت على أرضك و تحت سمعك و بصرك ، فاستمدى
لمواجهة هذا الوقت العصيب بنور النبوة و فراستها الصادقة ،
و ثققتها بالله ، ثقة لا تقاس و لا توزن بالعقل المادي المحدود ،
و ذلك ما تجلّى في قول موسى عليه السلام ، اذ قال : ﴿ كلا ،
إن معي ربي سهيدين ﴾ .

و بعد ، فما كتبت شيئا عن سيد قطب و ان كان سيد

^١ الشعراء ، الآية ٦١-٦٢ .

قطب هو الذي أفاض علينا بهذه السطور ، و دفعنا على
 تسجيل بعض ما تجيش به الصدور من مقت و تدمر ، و حب
 و تقدير ، و ياس قاتل مرير ، و أمل مشرق منير ، فاذا صرفنا
 وجوهنا تلقاء جنود فرعون و رأينا طغيانه و عدوانه ، و
 جولته و صولته ، و ذخائره و أسلحته ، قلنا : ﴿ انا
 لمدركون ﴾ و اذ صرفنا وجوهنا إلى قدرة الله و آياته في
 الأرض و السماء و وعده لعباده ، المؤمنين الصابرين ،
 المخلصين المجاهدين ، تمثنا بقول موسى عليه السلام : ﴿ كلا
 ان معي ربي سيهدين ﴾ .

نجم تألق ثم هوى

الدكتور مصطفى السباعي ... !

ذلك الاسم العذب الجميل الذي كان يحلو لنا أن نسمعه و نتحدث عنه في مختلف أجزاء وطننا الإسلامي الكبير، الاسم الذي كنا نعتز به ، لا في سوريا فحسب ، بل في العالم العربي و الإسلامي كله ، الاسم الذي كان يهابه المستشرقون و المستعمرون على السواء لعلمه الغزير و جرأته الأدبية .

الاسم الذي كان يحتل مكانا رفيعا عاليا حبيبا في النفوس بعد الامام الشهيد حسن البنا ، هذا الاسم الذي تألق في سماء العالم الإسلامي برهة سعيدة من الزمن ، ثم محى من صفحة الوجود ، و سجل في عالم الخلود ، لقد سقط الجندي الثائر في المعركة ، و هو يقاتل في سبيل الله و يدافع عن دين الله ، سقط و على هامته وسام العز ، و على جبينه ضياء الايمان ، و على شفته بسمه الرضا ، و في عينه بريق الأمل ، أمل الغد المرتقب و اليوم المشهود .

الدكتور مصطفى السباعي كان - بلا نزاع - من

أساتذة الحركة الإسلامية العالمية ، و من صفوة الدعاة و المرشدين و العلماء من الطراز الأول ، و هو الذي جمع بين الايمان العميق بالمبدأ ، و الفهم العميق بروحه ، و العلم العميق بدقائقه و أسرارهِ ، و القلم السلسال اللبق ، و اللسان العذب الذلق للتعبير عنه على صفحات المجلة و منبر المسجد و منصة الجامعة و مسرح السياسة على السواء ، من غير تهريج أو دعاية ، و من غير إشفاق أو وجل ، و هي ميزات و مواهب قلما تجتمع في رجل واحد ، إلا ما شاء ربك.

الدكتور مصطفى السباعي اسم معروف في الأوساط العلمية و الدينية في الهند و باكستان ، و اسم محبوب في الحركات الإسلامية هناك ، و ذلك للمقالات القوية الممتعة التي كانت تنشر له في الصحف الإسلامية مترجمة ، أو لمؤلفاته التي نقلت بعضها إلى اللغة الأردية ، و كان لمقالاته " عن السنة و مكانتها في التشريع " تأثير قوي و دور فعال في دحض الموجات الفكرية الهدامة التي كانت تهدد باكستان و تتحدى العنصر الإسلامي في هذه البلاد ، و ذلك عدا مقالاته الأخرى في مختلف الموضوعات الإسلامية التي كانت تنشرها

الصحف الإسلامية السيارة في البلدين .

أما دوره ككاتب ، و مؤلف ، و باحث ، و خطيب ،
فحدث عن البحر و لا حرج .
فاليبت يعرفه و الحل و الحرم .

إن أيما رجل تتبوع قواه و مواهبه في مختلف المجالات
الفكرية و العلمية ، أو يشتغل بتنظيم جماعة و ادارة مؤسسة ،
أو يشتغل بالدعوة و الخطابة ، لا يستطيع ان يركز همه في
التأليف و البحث و الدراسة ، أو يأتي فيه بشئ جديد رائع ،
و يقوم في هذا المجال بدور يذكر ، و خدمة تشكر ، أو يسد
فراغا ، و يملأ مكانا شاغرا ، و لكن الدكتور مصطفى
السباعي كذب هذا الخيال ، و مؤلفاته كلها تشهد بذلك و
تدل على دراسة واسعة و اسعة ، و تفكير طويل ، و استنباط رائع ،
و اجتهاد سليم ، و رزانة علمية ، لا تخلو منها حتى مقالاته .

و شرح " قانون الأحوال الشخصية " و " اشتراكية
الإسلام " و " المرأة بين الفقه و القانون " و " السنة و مكانتها
في التشريع الإسلامي " برهان ساطع على روحه العلمية ، و
نظرته العميقة ، و دراسته الواسعة ، رغم حياته المليئة
بالصخب و الضجج ، و السرعة المذهلة ، و الاشغال

المتلاحقة ، و المواعيد المتلاصقة ، و زيارات و اجتماعات ، و
أحاديث و رحلات ، في داخل البلاد و خارجها ، و إشراف
على تنظيم الاخوان و سيره على الوضع المقبول .

أما كتاب " اشتراكية الإسلام " فهو من رائع الكتب
الإسلامية التي ألفت في الموضوع في العصر الحديث ، و نال
عليه المؤلف الجائزة التشجيعية ، و قالت فيه اللجنة المؤلفة من
كبار فقهاء الشريعة في القاهرة و دمشق " انه يتميز بتأصيل
التفكير الاشتراكي من الناحية الفقهية و اختيار النصوص
الصريحة من الكتاب و السنة و آراء الفقهاء و تفسيرها
تفسيرا علميا من غير تكلف و لا تعسف في التأويل .

كما أن شرح قانون الأحوال الشخصية يعتبر موسوعة
علمية في موضوعه ، و مرجعا و مادة للتدريس و البحث و
الكتابة ، عدا مؤلفاته الأخرى الممتعة الشيقة ، و كل من ينظر
في كتبه يظن أن مؤلفها باحث بحت لا شأن له بأي شيء آخر ،
و قد وضع فيها عصارة أفكاره ، و ركز فيها كل مواهبه و
جهوده ، و أذكر أنني قرأت كتابه " اشتراكية الإسلام " و
" من روائع حضارتنا " فوجدت في هذين الكتابين لذة البحث
العلمي ، و الحصافة الفكرية و اشراق الروح المؤتنة ، فتركت

في نفسي أثرا ناعما جميلا ألمسه كلما أذكر السباعي و أذكر
جهوده في سبيل العلم و الدين .

أما حذقه الكتابة الصحفية و تناوله الموضوعات
الاجتماعية و السياسية فاسأل عن ذلك مجلة " حضارة
الإسلام " الغراء ، فهي من أروع المجلات الإسلامية في هذا
الزمن الذي تضاءلت فيه المجلات الإسلامية ، و استمع إلى
أحاديثه في الاذاعة ، أو اقرأه في كتاب " من أخلاقنا
الاجتماعية " فبذلك تطلع على أسلوبه الصحفي و الاذاعي ،
و كلها تتم عن لباقة الحديث ، و عمق الموضوع و موضوعية
البحث .

و انظر كذلك إلى بحوثه في " السنة و مكانتها في التشريع
الإسلامي " و قد نال الكتاب اعجاب الباحثين في الهند و في
باكستان ، و ترجم إلى اللغة الأردية ، و التقى الدكتور
مصطفى السباعي بأعلام المستشرقين ، و اختلط معهم في
زيارته لأوروبا عام ١٩٥٦ م ، و كانت له معهم جولات و
مواقف و مناقشات برز فيه كعملاق بين الأقزام ، أو مدرس
بين الطلبة الصغار ، و هو ليس تهويلأ منى أو مبالغة ، فقد
ظل المستشرقون يخافون منه ، لأنه فضحهم في الطريق ، و أمام

الناس عدة مرات ، تعتمد السباعي في هذه الرحلة مطاردة هؤلاء فقابل أكثرهم ، أمثال " اندرسون " و " آربري " و المستشرق اليهودي المعروف " شاخت " بـ " ليدن " (هولندا) و كثيرا غيرهم ، و زار الجامعات العلمية الكبرى ، و قابل رؤساء الأقسام العربية و الإسلامية ، و كان له بـ " شاخت " المذكور آنفا قصة طريفة حكاها في مجلة " حضارة الإسلام " قال :

" في جامعة "ليدن" بـ "هولندا" اجتمعت بالمستشرق الألماني اليهودي "شاخت" - وهو الذي يحمل في عصرنا هذا رسالة "جولد تسيهر" في الدس على الإسلام ، و الكيد له ، و تشويه حقائقه - و باحثه طويلا في أخطاء "جولد تسيهر" و تعمد تحريف النصوص التي ينقلها عن كتبنا ، فأنكر ذلك أول الأمر ، فضربت له مثلا واحدا مما كتبه "جولد تسيهر" في تاريخ السنة ، فاستغرب ذلك ، ثم راجع كتاب "جولد تسيهر" و كنا نجلس في مكتبته الخاصة ، فقال : معك الحق ، ان "جولد تسيهر" أخطأ هنا . قلت له : هل هو مجرد خطأ ؟ فاحتد و قال : لماذا تسيئون به الظن ؟ فانتقلت إلى بحث تحليله لموقف الزهري من عبد الملك بن مروان ، و ذكرت له من

الحقائق التاريخية ما ينفي ما زعمه "جولد تسيهر" و بعد مناقشته في هذا الموضوع قال : و هذا خطأ أيضا من "جولد تسيهر" ألا يخطئ العلماء ؟ قلت له : ان "جولد تسيهر" هو مؤسس المدرسة الاستشراقية التي تبنى حكمها في التشريع الإسلامي على وقائع التاريخ نفسه ، فماذا لم يستعمل مبدأه هنا حين تكلم عن الزهري ؟ و كيف جاز له أن يحكم على الزهري بأنه وضع حديث فضل المسجد الأقصى ارضاء لعبد الملك ضد ابن الزبير ، مع أن الزهري لم يلق عبد الملك إلا بعد سبع سنوات من مقتل ابن الزبير ؟ و هنا اصفر وجه "شاخ" و أخذ يفرك يدا يده ، و بدا عليه الغضب و الاضطراب ، فأنهت الحديث معه بأن قلت له : لقد كانت مثل هذه الأخطاء كما تسميها أنت تشتهر في القرن الماضي ، و يتناقلها مستشرق منكم عن الآخر على أنها حقائق علمية ، قبل أن نقرأ - نحن المسلمين - تلك المؤلفات إلا بعد موت مؤلفيها ، أما الآن فأرجو أن تسمعوا منا ملاحظتنا على "أخطائكم" لنصححوها في حياتكم قبل أن تتقرر كحقائق علمية .

و بالجملة فكل ما كتب عن المستشرقين و مكائدهم

شئى هام خطير، و جدير بالبحث و الدراسة و المتابعة و الاطلاع ، أما عن خطابته فقد كان خطيبا بالطبع و بالسليقة و من أفذاذ الخطباء في العالم العربي ، و قد سمي " خطيبا هائلا " في سوريا عن جدارة و حق ، فهو يملك عنان الجمهور ، و يستولى على مشاعر الناس و أحاسيسهم بصوته الرخيم القوي و حديثه الحماسي المتزن في وقت واحد ، و يبرز على أقرانه في المجالس و النوادي و الحفلات .

و دور السباعي في إنشاء كلية الشريعة عام ١٩٥٤ م و جهوده في هذا المضمار تضيف إلى مآثره و حسناته ، و قد كرس عليها جهوده أخيرا ، و بقي عميد هذه الكلية الأولى من نوعها في الشرق الأوسط مدة أربع سنوات ، و كانت مدة حافلة بالأعمال و الخدمات ، و بقي رئيس قسم الفقه الإسلامي فيها إلى آخر عهده .

و ثم ناحية أخرى تسمو بمكان مصطفى السباعي على كثير من العلماء و الخطباء و الدعاة ، و تدخله في صف المجاهدين الأبطال ، و هو جهاده الرائع في معركة فلسطين مع الاخوان المسلمين ، و قد سبق في هذا الأمر على كثير من اخوانه و أقرانه ، و كانت بداية ذلك في أواسط الحرب

العالمية الثانية عام ١٩٤٢ أو ١٩٤٣ م ، اذ عاهد مع عمر الخطيب أن يعلن صوت النذير و الايقاظ و يبدأ بالجهاد ، و ألقى أول محاضرة عن فلسطين في مقر الاخوان ، و قام بجولة للمدن السورية كلها يشرح للجماهير خطورة الوضع ، و خاض في المعركة أخيرا فدافع عن المسجد الأقصى ، و كان له سهم كبير في سائر المعارك التي خاضتها كتائب الاخوان ، و يذكر منها معركة الحى اليهودي ، و معركة القدس الكبرى ، و قد أظهر فيها المجاهدون من البطولات ما يعجز منه الرصف، فقد كانوا يتقدمون لنسف الحى اليهودي بيتا بيتا بأيديهم الرشاشات ، و القنابل كان يقذفها اليهود عليهم من نوافذ البيوت .

و قد أثبت السباعي بذلك أنه يملك السيف و القلم ، و له في كل منهما جولة و صولة ، و مواقف و بطولات ، و درس عبرة لمن يأتي بعده من الدعاة و العاملين .

ان الدكتور مصطفى السباعي قدم لنا مثالا رائعا للكاتب الإسلامي و الداعية الإسلامي و المجاهد الإسلامي ، و عرض علينا - عمليا - كيف أحاط بالجهات المختلفة ، و كيف حافظ على الاتزان بينهما ، و كيف استقام على الطريقة ، و

صمد في وجه الأعاصير و الزلازل الفكرية و السياسية ، التي
اشتدت في عهده ، و التي لا تزال في أوجها و قوتها ، و التي
سوف تحتاج في المستقبل إلى كثير من أمثال مصطفى السباعي
في مختلف الظروف و المناسبات .

و بعد فهذه سطور عاجلة لا تصور واقعه الغنى و لا
تمثل حياته العامرة الخصبة ، و انما هي كلمة أملها الحب ، و
الاخلاص ، و الوفاء للراحل الكريم ، و الفقيد العظيم .
رحم الله مصطفى السباعي و جزاه عن المسلمين في
مشارك الأرض و مغاربها ، أحسن ما يجزي عباده المخلصين و
الصادقين .

و انا لله و انا اليه راجعون .

الشعوب تعيش بالرسالة لا بالمال

ان الشعوب - دائما - في حاجة إلى دعوة ورسالة تنبأها و تتحمس لها و تتفانى في سبيلها ، و هي في ابان نهضتها و في صعودها أحوج إلى مثل هذه الدعوة ، التي تعمل - بخفاء - وراء كل هذه المواهب و الطاقات و المؤهلات ، و العجائب و المعجزات التي تصنعها أمة و يقوم بها شعب ، انما تملي ارادتها على المال و على رجال الأموال ، و على الجبال الراسيات .

ان أي شعب من شعوب العالم لا يخلو من رسالة أو هدف ، و قد يكون هذا الهدف هدف الاستعلاء على الأرض، و قد يكون هدف القومية، و هدف الاشتراكية و الشيوعية ، و الاستعمار و الاحتلال ، و العبث بالشعوب الفقيرة المستضعفة ، و لكنه على كل حال هدف واضح محدد، مشرق السمات و المعالم ، لا غموض فيه و لا التواء ، هدف يثير قوي هذه الشعوب و يستغل طاقاتها ، و يستفد مواهبها ، و كل ذلك دليل على أن هذه الشعوب لا تستطيع أن تعيش - طويلا - من غير رسالة، و لا تستطيع أن تصمد

أمام العواصف و التيارات ، و تواجه الأحداث و التقلبات إلا
بالدعوات و الرسائل .

هذا هو شأن الأمم و الشعوب التي ليس لها نصيب في
الدنيا و الآخرة ، و التي أذلت نفسها ، و أضاعت جوهرها ،
و فقدت قلاذتها و وسام عزها و شرفها بين متاع الدنيا
العاجل ، و حطامها الفاني ، أما الأمة الإسلامية التي ابتعثها
الله لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ، و من عبادة العباد
إلى عبادة الله وحده ، و من ضيق الدنيا إلى سعتها ، فهي
أولى بأن تحمل رسالة و تتقلد دعوة و ترفع راية .

ان الدور الذي تربه الشعوب الإسلامية و الشعوب
العربية الإسلامية بوجه خاص يحتم علينا أن نفهم قيمة الرسالة
و أهميتها في حياة الشعوب ، لا سيما في حياة هذه الأمة ، و
ذلك لأن عدم معرفتها أو الخط من شأنها تجعل هذه الشعوب
فريسة المال ، و إلى ذلك أشار النبي الكريم ﷺ حين قال :
﴿ لا أخشى عليكم الفقر ، و لكن أخشى أن تبسط عليكم
الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم ، فتهلككم كما
أهلكتهم ﴾ أو كما قال عليه السلام .

/ إن المال مهما تضخم و تكدس ، و مهما شاع و انتشر

لا يغنى عن ذلك الفراغ المعنوي الروحي الفكري ، الذي يقع
بفقدان الدعوة ، انه لا يغنى عن القلب و آفاقه ، و الفكر و
فسحاته ، و الضمير و تأملاته ، و الحب و بطولاته ، انه لا
يغني عما وراء المشاهد المحسوس ، و الواقع الملموس ، انه لا
يستطيع أن ينظر ما وراء المعدة و الشهوة ، أو القوة و
السيطرة .

انه لا يستطيع أبدا ، أن يحل محل الفكر الدقيق الحصيف
و يعوض عن الرأي السديد ، و الجرأة و الشجاعة ، و
البطولة و الاقدام ، انه يبنى صرحه الشامخ الجميل على
الرمل يخاف عليه في كل لحظة ، و تهدمه كل هزة .
(المال لا يجبر كل كسر ، و لا يسد كل عوز ، و لا يملأ
كل فراغ ، انه يجول و يصل في مجال ضيق محدود ، هو مجال
أسباب الرخاء و الراحة و الهناء ، و الغذاء و الكساء ، و
العلاج و الدواء ، أما مجال القيادة الفكرية و السياسية ، أما
مكان العزة تحت الشمس ، أما مكان التوجيه و الارشاد ، و
مكان التكوين و الاصلاح و البناء ، فهو غير مجال المال ،
فهناك لا تنفع إلا العاطفة و القلب ، و الدعوة و الرسالة ،
و الهدف و الغاية ، و الفكر و التأمل ، و التصميم و العمل .)

المال أساسه الدعوة ، وقوته الرسالة ، وهو يستطيع أن يفعل الكثير و يأتي بالمدحش العجيب ، اذا عجن بالدعوة ، و مزج بالرسالة ، و زكى بالأهداف الصالحة ، و الدوافع الخيرة ﴿ و مزاجه من تسنيم عينا يشرب بها المقربون ﴾^١ .

هذا هو المال المزكي ، المال المطهر ، المال المقبول عند الله ، أن هذا النوع من المال - وحده - يقدر على انشاء جيل جديد قوي متماسك ، يملك جميع أسباب القوة ، و يستطيع أن يصمد بفضل هذه الدعوة و الرسالة أمام الحوادث ، ان هذا المال لا يلهو به اللاهون ، و لا يعث به العابثون ، لأنه أمانة الله في أعناقهم ، ان كل ما بينه هذا المال يدوم أساسه ، و يطول عمره ، و يصلب عوده ، و تحلو ثماره ، لأنه قام على أساس متين من الايمان و العقيدة ، و عاش تحت ظلال الايمان و القرآن ﴿ و آتوهم من مال الله الذي آتاكم ﴾^٢ ﴿ و أنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ﴾^٣ .

هذه الدعوة و الرسالة هي حلم الأمة العربية المنشود ،

^١ سورة المطففين ٢٧-٢٨

^٢ النور ٣٣ .

^٣ الحديد - ٧ .

و هي الماء الزلال الذي اشتدت اليه حاجتها و به يشفى
غليلها .

(ان شعوبنا العربية و أخص منها المملكة السعودية و
امارات الخليج العربي لا تفتقد شيئا ، و لا تحتاج إلى شيء
بمثل ما تحتاج إلى دعوة مؤمنة صافية ، (حية نامية ، تبطل ما
صنعوا ، و ما زيفوا ، و ما أتوا به من شعارات كاذبة باطلة ما
أنزل الله بها من سلطان) ان الدعوة التي تتحكم في المال و
تصرف في الأنساب ، و الدعوة التي تتحكم في العقول و
النفوس ، و تغزو القلوب و تسرى في الشباب و النشء
الجديد ، كما يسري الكهرباء في الأسلاك ، أو الصهباء في
العروق ، الدعوة الإسلامية الكريمة ، الخالدة المنقذة التي
تفدي بالمهج و الأرواح و الدموع و الدماء ، الدعوة التي
يطير بها الانسان شوقا ، و يهتز بها طربا و يتفانى في سبيلها
إيمانا و حنانا و حبا و هياما ، الدعوة التي يعيش فيها الانسان،
في غدوه و رواحته ، و ليله و نهاره ، فلا يتحرر عنها في لحظة
من لحظاته ، أو يقدم لها - على أقل تقدير - شيئا من التضحية
و الفداء كما ضحى الناس براحتهم و هوائهم من أجل
أهداف مادية حقيرة تافهة لا خلاق لها في الدنيا و الآخرة .

١ هذه الدعوة هي طريق الخلاص الوحيد من عذاب
العبودية و الذل و الهوان ، و الفرقة و الانقسام ، الذي تعانيه
هذه الشعوب العظيمة المؤمنة منذ زمن طويل .
فهل من مجيب ؟

أرادوها جنة فأنقلبت جحيما

إنها قصة أمريكا ، أمريكا التعسة البائسة المنكوبة ، التي
يعتبرها البسطاء و أهل الهوى في شرقنا الإسلامي جنة في أرض
الله .

و الأرض تأتي أن تقبل هذه الشجرة الخبيثة ، و ترضى
بهذه النذالة و الاسفاف ، و الهبوط و التمرغ في وحل
الشهوات و حماة الرذيلة على ظهرها لو لا حكمة الله و
مشيئته البالغة ﴿ ان الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شئ
قدرا ﴾^١ .

إنها أمريكا السامة و القلق ، أمريكا الجشع و الطمع و
الأنانية و الأثرة ، أمريكا الجنون و الانتحار ، و الخمر و
القمار . أمريكا التي لا مكان فيها لصلة القرابة و الرحم ، و
وشائج اللحم و الدم ، و لا اعتبار فيها لتلك النزعة
الانسانية ، و الحب الطاهر المستور في الصدور الذي يخفف
آلام الحياة و يهون متاعها و همومها و مشكلاتها ، و يمسح
ثقلها و كآبتها .

^١ الطلاق ، الآية - ٣ .

أمريكا ، التي لا كرامة فيها للعجائز و الأمهات ، و
الآباء و الأجداد ، و الفقراء و الضعفاء ، لأنهم تجردوا عن "
القوة و المال " اللذين لا اله لهما غيرهما .

إن القوة وحدها هي القوة الجسمية ، و قوة الشهوة ،
و قوة القتل و النهب ، و قوة الابادة و التدمير ، هي الاله
الأكبر الوحيد ، الذي يخضع له رأس كل أمريكي - و لو
ادعى بالمسيحية - تقديسا و اجلالا ، فاذا تجرد انسان -
لسبب طبيعي أو عضوي - عن هذه القوة لم يبق انسانا في
نظر الامريكي ، و أصبح وزرا و عباً ثقيلا على عائلته ، و
مجتمعه ، و شعبه ، يحاول أن يتخلص منه في أقرب فرصة ،
الدولة تهمله ، و الشعب ينبذه ، و العائلة تقسو عليه ، حتى
أن أولاده و أفلاذ كبده يتبرمون منه ، و يشورون عليه ، و
يتمنون موته بل يقتلونه بعض الأحيان .

لماذا ؟

لأنه أصبح هرما ، أو أصبح فقيرا ، أو صار مريضا ، لا
يقدر على الكسب و الانتاج .

حتى أن هؤلاء الذين يضحون بالأنفس و الأرواح في
سبيل الوطن و يفقدون أعضاءهم أو يصيبهم أذى جسدي لا

يحتملهم الأزواج و الأبناء، و لا تقبلهم العائلات الأمريكية ،
لأنهم ينغصون عليها صفو العيش ، و يشاركونها في الحياة من
غير سهمهم في الكسب و الانتاج .

الحياة في أمريكا - يا أهل الشرق - ليست كما
تصورها في بلادنا الفقيرة الضعيفة ، انها لا تمت إلى السعادة
بصلة ، و لم تذق طعمها يوما من الأيام ، لقد أرادوها جنة
فانقلبت جحима ، و عذابا أليما ، أرادوها حرية كاملة و
انطلاقة واسعة ، فراحت عبودية خانعة و رقًا مطلقا دائما .

ان قصة أمريكا ، قصة ذات فنون و شعجون ، و سوف
لا أطيل عليكم بذكر مشاكلها حول تلك الحياة الحرة المنطلقة
عن كل قيد ، أو تلك الجمادات الحية التي يسمونها الآدميين،
و تلك المستشفيات الغاصة بالمجانين ، أو نوادي العراة
المتفنين، و لا أحدثكم عن متاعبها في " فيتنام " أو عن سباقها
الرهيبة في مجال الأقمار و الصواريخ ، و لا أذكر عبثها بالمرأة
و تجريدها عن كل معنى انساني نبيل ، و لكن أحدثكم عن
مكانة العجائز و الشيوخ في المجتمع الأمريكي ، ففي ذلك
كفاية .

ان من عذاب الله لأهل أمريكا ، و من نقمته و سخطه

عليهم ، أنه نزع ما في صدورهم من حب الآباء للأبناء ، أو حب الأبناء للآباء ، و حب البنات للأمهات و بالعكس ، و نظرة عابرة طائرة على هذه البلاد تهزنا لهول المنظر و بشاعة الوضع ، و الوقاحة البشرية ، التي أصبحت في أمريكا عادة شائعة متبعة ، و تقليدا يتوارثه الأجيال ، و لا غلثك في هذا المكان إلا أن يقف خاضعين خاشعين أمام الجلال الالهي ، و قدرته البالغة و علمه المحيط :

﴿ و لنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون ﴾^١

العجائز و الشيوخ في المجتمع الأمريكي هم أخط قدرا و أصغر شأنا من أي مخلوق آخر حتى القطط و الكلاب ، فلا تستطيع عائلة أمريكية أن تتحمل هذا العذاب الأليم و تشاركهم في حياتهم العادية و الروتين اليومي فضلا عن أكرامهم و اسداء الخير اليهم .

إن ما ينفقه الأمريكيون على دواجنهم و على كلابهم (بوجه خاص) قد يكفي - بعضه - للعناية بعجائزهم و شيوخهم و البر بهم ، و لكن المشكلة ليست مشكلة المال انما

^١ السجدة ، الآية ٢١ .

هي مشكلة الدافع ، مشكلة القلب ، القلب المادي النفعي ،
المتحجر ، القاسي ، القلب الصناعي ، الذي سدت عليه منافذ
العاطفة النبيلة ، و الدوافع الصالحة ، و الأهداف الكريمة ، و
المثل العليا ، القلب الذي نشأ في " مجتمع الخنزير و الكلب "
فشبت على جبهما ، و قامت بينهما ألفة و مودة و رحمة ، و
تخطت حدود القياس و العقل السليم ، انهم يوصون لكلاهم
ببالغ باهظة ، بينما لا يرضون لهؤلاء العجائز و الشيوخ عيشا
هادئا في منازلهم ، و لا ذنب لهم إلا أنهم عجزوا عن العمل و
الانتاج ، و فقدوا الصحة و الشباب ، و أصبحوا عالة على
أبنائهم " الأشراف " .

ان هذا الجانب أظلم الجوانب و أبشعها في هذا المجتمع
السافل الساقط الذي يسمونه عندنا في الشرق المغلوب على
أمره " مجتمع الحرية و التقدم و الانطلاق و العالم الحر " و
يتمنون رؤيته و التمتع بمباهجه و لو مرة في العمر .

واليك ما حدثت به جريدة لائف (Life) الدائنة
الصيت ، و كفى شهادة و اعترافا بالأمر الواقع :

انها كتبت تحت عنوان " مشكلة الشيخوخة عند
العجائز " أن أمريكا تعاني اليوم مشكلة دقيقة استعصت عليها

معالجتها ، انها مشكلة الشيوخ و العجائز ، فقد زاد عددهم في هذه العقود الأخيرة إلى ١٢ مليون نسمة ، انهم نيفوا على ٦٥ عاما و يملكون حق التصويت ، و اقترح البعض أن تقدم اليهم الدولة المعونة الطبية مجانا ، و لكن اتحاد الأطباء عارض هذا الاقتراح أشد المعارضة ، انها مشكلة تعاني منها إنجلترا و النرويج ، و السويد ، و الدنمارك ، و ألمانيا ، و اليابان أيضا ، انها دعت هذه المشكلة بـ " Old Age Problem " و تريد حلها بإنشاء دور الرعاية (Homes Nursing) و تدابير أخرى .

و نشرت الجريدة بعض صور تدل على الوضع القاسي الشديد الذي يعيش فيه هؤلاء البؤساء " الأموات و الأحياء " فيها صورة لاحدى المستشفيات العقلية (Mental Institutions) جلست فيها عدد من المريضات الناعسات و قد وضعن رؤوسهن على ركبهن ، و نشرن شعورهن على كواهلهن ، تدمرا و أسى ، و بمقربة منهن نساء يزاولن حركة رياضية بلذراعهن في حركة يومية معهودة .

و صورة لعجوز في المستشفى ارتقت على فراش تحمق في الجو في صمت مطبق و ليس عندها أحد .

و هناك صورة أخرى لعجوز نيفت على السبعين ، انها
فقدت اترانها من شدة الوحدة و وحشتها و العزلة التي لم
تطققها ، جلس بجوارها عالم من علماء النفس يدلي اليها ببعض
الأسئلة في هذا الشأن ، و في صورة أخرى نراها جالسة في
حجرة للبحث عن وظيفة في دار من دور الاقامة و قد
وضعت يمينها على يسارها ، و على وجهها سحابة من حسرة
و أسى .

و صورة لدور العجائز (Old Age Homes) اجتمع
عدد كبير من الشيوخ المعمرين ، يشتغلون بأمور مختلفة ، أو
بالأصح ينتظرون منيتهم ، و هم يقطعون حسرة و أسى
وغما و ألما .

انها صورة حية لهذه المستنقعات البشرية ، و الأوحال
الانسانية التي لا تحيا فيها إلا الشهوات الرخيصة ، و اللذة
الجسدية الفانية ، و النزعات الجنسية الهابطة الساقطة .

هل إنها حضارة ؟ هل انها معرفة ؟ هل انها طبيعة قاهرة
لا دخل لنا فيها ؟ كلا ! بل انها عذاب في الدنيا قبل العذاب
في الآخرة .

انها تفسير ﴿ نسوا الله فانسا هم أنفسهم ﴾^١ .
 انها سامة و خواء ، و كبت و تدمير و مقت ، سميها
 في الشرق : الحرية ، و العالم الحر ، و المجتمع الحر ، و الطبيعة
 و الفن .

انه ياس مرير ، و فراغ هائل ، و تخطيط و فوضى ، و
 انهيار و حيرة و ضلال ، سميها في الشرق " وجودية و ثورة
 و انطلاقا " إلى قائمة طويلة من الأسماء و الشعارات ألقت بها
 أمريكا و فرنسا ، و تلهف عليها أدباؤنا الشباب و تساقطوا
 عليها كأنها " وحي من الله " أو " مائدة من السماء " .

ان الله لا يعذب عباده الذين بغوا في الأرض بسيول
 عارمة و عواصف قاصمة فحسب بل انه يعذبهم أحيانا في
 راحتهم و هنائهم . و يشقيهم في أمواتهم ، و بين أزواجهم و
 أبنائهم ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ، و أملي لهم ان
 كيدي متين ﴾^٢ .

و انظر إلى هذا الجانب المشرق الذي يقوم عليه المجتمع
 الإسلامي المثالي ﴿ و قضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه و

^١ الحشر ، الآية ١٩ .

^٢ سورة القلم ، الآية ٤٤-٤٥ .

بالوالدين احسانا ، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما
فلا تقل لهما أف و لا تنهرهما و قل لهما قولا كريما واخفض
لهما جناح الذل من الرحمة ، و قل رب ارحهما كما ربياني
صغيرا ، ربكم أعلم بما في نفوسكم ، إن تكونوا صالحين ،
فانه كان للأوابين غفورا ﴿١﴾

صدق الله العظيم

الإسلام أوسع من الاصطلاحات

الاصطلاحات - في كل مجتمع و في كل بلد - لها جو خاص و طابع ممتاز ، و هي وليدة تجارب يمر بها شعب أو مجتمع ، و عصارة أفكار و عقول ، و نزعات و ميول ، و تقاليد و عادات و مرافق ، فإذا أخذناها أخذناها برمتها و استوردناها مع أجوائها و ظلالها و تاريخها ، و سائر مقوماتها الداخلية و عواملها النفسية .

إن معظم هذه المصطلحات تدور حول الأدب و الفلسفة و الاقتصاد و السياسة ، و تعبر - دائما - عن وضع خاص ، و تشير إلى منهج خاص في هذه العلوم و الآداب ، و من هذه المصطلحات المشهورة التي استوردناها ، الديمقراطية و الرأسمالية ، و الشيوعية ، و الاشتراكية ، و الشيوقراطية ، الخ ..

فما كان الداعي إلى قبول هذه الاصطلاحات ؟ اننا رأينا في المصطلحات بعض ما يلائمنا ، أو يعجبنا ، أو يتفق - في خط من الخطوط - مع أهدافنا ، فأحببنا أن نستعين بها في تعريف الإسلام و عرضه على الجيل المثقف الجديد ، الذي

افتتن بهذه المصطلحات و آمن بها كإيمانه بالله و رسوله .
و كان المجال الأول و المجال القريب هو الحكم
الإسلامي ، الذي صار موضوع النقاش و الجدل منذ أعوام
طوال ، و قد ظهرت هذه المحاولات في العالم الإسلامي -
خاصة في مصر وباكستان في صورة مؤلفات ودراسات تنظر
إلى الحكم الإسلامي بهذا المنظار الغربي الجديد - منظار
المصطلحات المحدود - فاذا رأوا فيه حرية شخصية قالوا : انه
ديمقراطي و رأسمالي ، و اذا رأوا فيه مساواة قالوا : انه
اشتراكي ، و اذا رأوا فيه خليفة يأمر و ينهى ، قالوا : انه
ديكتاتوري ، و اذا رأوا فيه أحكاما الهية لا دخل فيها لبشر ،
قالوا : انه ثيوقراطي ، و اذا رأوا فيه بيعة عامة و خليفة كأبي
بكر ؓ - يقول في أول خطبته حين بايعه الناس " أطيعوني ما
أطعت الله فيكم فاذا عصيته فلا طاعة لي عليكم " قالوا : انه
شعبي ، الحكم الأخير فيه للشعب !

فما هي طبيعة الحكم الاسلامي و منهاجه الأصيل ،
المتكر المجرد عن الملابس و المصطلحات و الشكليات ،
أليس للإسلام فكرة مستقلة خاصة ، و نظام متكامل ،
متكافل ، متناسق ، غني عن الأخذ و الاقتباس و الاستيراد ؟

أليس له دعوة و منهاج و حكم ؟ ثم أليس له مصطلحات و
أسماء و شعائر أو شارات نعرفه بها ، ثم ندعو الناس إليها ؟
لا بل ان له منهاجا مستقلا كاملا !

فلنلق نظرة سريعة عابرة على ما يستقل به الحكم
الإسلامي ، أو ما يتميز به دون غيره من المناهج السياسية و
الاقتصادية المعروفة ، و لنر كيف يسمو عليها بنظامه الرباني
العميق الدقيق ، و ما هو الفارق بين المصطلحات الجاهلية و
المصطلحات الإسلامية ، و هل تسعه هذه المصطلحات أم لا ؟
الإسلام دين كامل أتم الله به نعمته على البشر ، فقال :
﴿ اليوم أكملت لكم دينكم و أتممت عليكم نعمتي و رضيت
لكم الإسلام ديناً ﴾^١ فهو إذاً نظام رباني أنزله الله على سيدنا
محمد ﷺ ، و أتمه في ثلاث و عشرين سنة ، و لم يدعه عرضة
للأوضاع المتغيرة ، و الملابس الخارجية ، و المشكلات
المتجددة و العصر المتطور ، شأن المذاهب السياسية الأخرى
التي لا تزال في دور التجربة و التكوين و البناء ، فجاء شاملا
لسائر النواحي و الوجهات بل الدقائق و الخلجات التي لا
تدركها الأبصار ، و لا يترقى إليها عقل البشرية القاصر

^١ المائدة ، الآية ٣ .

﴿ الا يعلم من خلق و هو اللطيف الخبير ﴾^١ .
 ﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ﴾^٢ ﴿ وله أسلم من في
 السماوات و الأرض طوعا و كرها و اليه يرجعون ﴾^٣ .
 ﴿ هو أعلم بكم اذ أنشأكم من الأرض و اذ أنتم أجنة
 في بطون أمهاتكم ، فلا تزكوا أنفسكم ، هو أعلم بمن
 اتقى ﴾^٤ .

و الآيات في هذا الباب كثيرة معلومة .

هذه هي المبادئ الأولية للحكم الإسلامي و أبعاده ، و
 سوف نتقدم الآن ببعض التفصيل ، و لتذكر - و نحن في
 بداية السفر - تلك الحقيقة الكبرى : أن الإسلام دين سماوي
 منزل من الله ، و أنه دين كامل لا يؤذيه التطور ، و لا تنال
 منه الأحداث ، أما المذاهب الأخرى - و المذهب أيضا
 اصطلاح لا يعبر عن النظام الإسلامي مطلقا - فناقصة محدودة

^١ الملك ، ١٤ .

^٢ المائدة ، ٥٠ .

^٣ آل عمران ، ٨٣ .

^٤ سورة النجم .

لا تزال في دور التجربة أو في دور الطفولة ، وقفت في سيرها أو بحثها عن الحق على بعض محاسن و وجوه من الحق و الجمال ، و البر و المعروف ، فحسبتها نهاية المطاف و آخر الشوط ، و ظنت أنها ظفرت بالغاية المنشودة ، و سمّتها باسم خاص ، و وضعت لها مصطلحات ، مع أنها كانت جانبا ضئيلا لا يصح الوقوف عنده أو التمسك به ، و لا يصح اعتباره كاملا ، يتوقف عليه مستقبل البشرية اذا قيس بالجوانب الضخمة الأخرى ، التي لا تكتمل بدونها الصورة ، و لا يستقر بغيرها الوضع .

و نقدم الآن بعض جوانب الحكم الإسلامي على سبيل المثال :

﴿ و أمرهم شورى بينهم ﴾^١ .

﴿ و شاورهم في الأمر ﴾^٢ .

و في المستدرك ﴿ عن أبي هريرة ؓ : ما رأيت أحدا

أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ ﴾^٣ .

^١ الشورى الآية : ٣٨ .

^٢ آل عمران الآية : ١٥٩ .

^٣ زاد المعاد ج ٢ - ص ٦٤ .

انها ناحية مهمة من نواحي الحكم الإسلامي حسبها
ديمقراطية يخضع فيها الرئيس لرأي الأكثرية ، و لو كان هذا
الرأي غير صالح أو غير نافع ، و هو تجن على الإسلام و دليل
على سوء فهمه .

و يأتي مبدأ ﴿ و أطيعوا الله و أطيعوا الرسول و أولي
الأمر منكم ﴾^١ .

و هو جانب خطير أيضا ، فقد نهى الجمهور عن
معارضة الخليفة و الأمير و الحاكم ﴿ ما أقاموا فيكم الصلاة
﴿ و نهى عن الخروج عليهم ﴾ ما لم يظهروا كفرا بواحا ﴾ و
هذا القرار لقيمة الحكم الإسلامي و أهميته ، و سموها على
الخلافات الصغيرة ، و فيه تدعيم لأركانه ، و تشييد لبنائه ،
و هنالك تلتقي الصورة أحيانا ببعض صور الحكم في التاريخ
القديم و الحديث ، و لكنها لا تمتزج فيها أبدا ، و قد تجلّى
ذلك واضحا صريحا في موقف عمر ؓ ، حين قال :
" أصابت امرأة و أخطأ عمر " .

انه وضعت له حدود و معالم و اطار واضح ، و هو " لا
طاعة لمخلوق في معصية الخالق " و روى الشيخان " على المرأ

^١ النساء : ٥٩ .

المسلم السمع والطاعة فيما أحب أو كره ، إلا أن يؤمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة " انه ليس الحكم المطلق ولا الطاعة الدائمة ، بل شئ بين هذا وذاك ، هو أقرب إلى الفطرة وأقرب إلى روح الإسلام ، وأما أمر البيعة فهو أشبه بنظام الانتخاب والتصويت في العصر الحديث ولكنه يفرق عنه كما افرق أولا في سائر المبادئ والوجهات في عدد الأصوات ، بل انه بيعة عامة يستقل بها الخليفة وأمير المسلمين ، ثم يدير دفة الأمور بمشورة من أصحابه .

هذا هو الاطار العام الوجيز السريع للحكم الإسلامي وهو نظام مستقل بطبيعة الحال ، غنى عن الاصطلاحات ، بعيد عن الشكليات ، بل ان الاصطلاحات تجنى عليه وتحول بينه وبين فهمه على حقيقته و غطه في الشئون الاقتصادية مثل نمطه في الشئون السياسية .

و موقفه في السلطة الشخصية ، و في مسألة الأحزاب الفردية ، و في التأميم وعلاقات العمال و رجال الأموال ، و في المساواة الطوعية والاجبارية ، و نحو ذلك من المشكلات الفنية موقف مستقل بذاته ، ذو طابع خاص و سمات واضحة مشرقة ، و حدود معلومة ، لا تستطيع هذه المصطلحات

السياسية (التي جعلها الينا الغرب) أن تعبر عنه بدقة ، أو
تصوره تصويراً صحيحاً .

انها لا تقدم إلا صورة مشوهة ، محدودة ، شاحبة لهذه
النواحي الهامة ، و لا تستطيع أن تدرك غايتها أو تمس
مستواها ، و تفهم روحها و أسلوبها و منهاجها المستقل
الأصيل ، المتفرد ، المبتكر .

ان جوانب الحكم الإسلامي أعلى من أن نعبر عنها بهذه
الاصطلاحات المكدودة المحدودة ، فلنرجع إلى المآخذ الأولى و
الشعائر الأولى ، أو نضع لها اصطلاحات اسلامية خاصة ليس
لها صلة بالغرب و نفسيته نقيه من شوائبه و علائقه و أكداره .

جان بول سارتر

و الأدب الوجودي (١)

الوجودية (Existentialism) من التيارات الفكرية و الأدبية المعاصرة التي صادفت هوى في نفس الأدباء ، و تجاوزت مع أفكار كثير من الشباب المثقف الحر المنطلق في فرنسا و بالتالي في سائر أوربا .

و كان نصيب واحد من زعماء هذه الحركة الأدبية و الفلسفية "جان بول سارتر" (Jean Paul Sartre) أكثر من زعيمها الآخر "مارسيل" (Marcel) شهرة و قبولا ، مع أن مارسيل يعتبر من أقطاب الوجودية و هو مؤسس مدرسة فكرية مستقلة في المذهب الوجودي .

و نرجع قليلا إلى الوراء فنلتقي "باندريه جيد" الذي نال إعجاب الجمهور المثقف و تخطت شهرته البلاد و الأمصار ، و برز على مسرح الأدب القصصي العالمي كقائد و زعيم .

فماذا كان السبب في نجاحهما و شيوع أفكارهما في أوربا ، بينما فشل الآخرون ؟ و ما هو السر في هذه الشهرة السائرة الذائعة الصيت ؟ و ما الذي حمل بعض أقطاب

السياسة في العالم العربي على تكريم واحد منهم ، و الترحيب
به على الصعيد الرسمي ؟

ذلك ما نحاول عنه الاجابة في السطور الآتية :

أما السر في نجاحهما و شيوع أفكارهما فهو نقدهما
اللاذع على التقاليد و الأخلاق ، و المبادئ "المرعومة" ، فهو
نفس الشيء الذي لجده في "داروين" و "فرويد" و "أدلر" و
أمثالهم .

و قد يلتقي "سارتر" مع "فرويد" في كثير من الخطوط ،
و ربما استقى منه جزءا كبيرا من نظريته الشاذة عن الحياة ، و
الوجود ، و العدم ، كما يلتقي أحيانا مع "أندرية جيد" الذي
سبقه في دعوته إلى الانطلاق العام عن المبادئ الخلقية التي
يفرضها المجتمع ، فجمع بين سواتهما ، و أضاف إليها ما
ألمي عليه فكره و نفسه من نظريات و آراء أكثرها غامضة
مبهمة تتم عن ذهن مائع لا يستقر في مكان ، و لا يطمئن إلى
نتيجة و فكرة ، انه يؤمن - كـ "فرويد" - أن Mature Sex
Impulse هو نتيجة تطورات طويلة ، و أنه أصل عميق في
الكيان البشري منذ طفولته ، و يسرى في العلاقات الانسانية
كلها ، و لكنه يضيف إليه أن الدافع إلى الجنس ليس القوة

الجنسية و أسبابها فحسب . بل ان نزع الوجودية الكامنة في
الانسان تدفعه على ذلك ^١

أما "أندرية جيد" فقد اعترف الأدباء أن "سارتر" شديد
التأثر بهذا الكاتب الفرنسي ، و قد أخذ منه مفهومه عن الخير
و الشر و الأقدار الخلقية . و أكمل منه ما نقص و زاد فيه
زيادات ، و هو يؤمن كأندرية جيد أن هذه الأقدار كلها نسبية
لا مطلقة ، و أن الانسان هو صانع هذه الأقدار أو خالقها بلا
استثناء ^٢ كما أنه تأثر إلى حد كبير بالفلسفي
الوجودي الألماني "هيدجر" (Heidegger) الذي مزج
الباطنية بالاحاد و عرف به ، و لكن يبدو من دراسته أنه
تلمذ على "فرويد" - فكريا - أكثر من أي شخص آخر ، و
قد شهد بذلك (Hazelebarnes) الذي نقل كتابه الهام - أو
المبهم في عبارة أصح - إلى اللغة الانجليزية ، و هو شديد
الاعجاب به، كثير الاستيحاء منه .

فالسرو الوحيد في بروزه و شهرته أنه برر للشباب طريق

^١ اقرأ : : By (Introduction) Beingand Nothingness
"J.P.SATRE"

^٢ "الأدب الفرنسي" للدكتور "يوسف حسين" ص : ٤٥ - ٥٠ .

المهوى ، و زينه بالعلم و الفلسفة و الأدب و الرواية ،
بالعكس من "مارسيل" مؤسس مدرسة فكرية خاصة في
المذهب الوجودي الذي نتحدث عنه قريبا .

و نستعرض الآن بعض نظراته الأساسية التي قامت
عليها الوجودية:

إن الايمان بالله هو العائق الوحيد عند الوجوديين ، لأن
الانسان اذا آمن بقدرة تسييره ، و حكمة تدبر أمره ، و قوة
تسيطر عليه ، و رقابة لا تنفك عنه ، فهو لا يستطيع أبدا أن
يستقل بوجوده و لا أن يتحمل المسؤولية دون غيره ، أو دون
الله ، فوجود الانسان نفسه و حبه للحرية و الانطلاق و
تحمل المسؤوليات على حسابه و عدم التقييد في تقاليده و
أوضاعه، ينفي وجود الخالق المدبر ، و قد أشار اليه الأستاذ
"Hazelebarnes" في مقدمته لكتاب سارتر "Being and
Nothingness" بشئ من التفصيل .

و قد رد "سارتر" على تصور Leibniz للحرية ، الذي
يقول : بأن الله أودع في كل انسان جوهرًا خاصًا Essence
، ثم تركه و أعطاه الحرية الكاملة أن يتصرف في حياته وفق
ما يقتضي منها هذا الجوهر - و هي نظرية تشبه نظرية

القدرة التي كانت تؤمن بالتعطل و تجرد الخالق عن قدرته و صفاته ، و كان جوابه عليه أن هذه الحرية ليست حرية في أي حال من الأحوال ، لأننا اذا فرضنا أن الله خلق فينا جوهرًا خاصًا فمعنى ذلك أنه يكيف الحياة تكييفًا خاصًا و تتسم حياة الانسان اذاً - بطابع محدود خاص^١.

و ذلك يشير بصراحة و يؤيد قولنا بأنه يعتبر الايمان بالله عائقًا كبيرًا في حرية الانسان ، و لا يجب أن يرى في الانسان أثرًا ما للتعاليم الالهية و أوامرها ، لأنها - عنده - تفسد عليه حريته أو بالأصح - تضعف فرصته - فرصة التمتع بالأهواء و التمرغ في الشهوات .

الوجودي لا يؤمن بوجود الله و لا يؤمن بنظام خلقي يسود على الانسانية ، الانسان عنده حر و مسئول في ذات الوقت ، لكنه مسئول أمام نفسه ، لا أمام الله^٢ ، انه لا يعتمد على عقله و لا يعتمد على الروح و لا يؤمن بالله و لا بنفسه ، هو يقول : ان الانسان مجموعة أعماله ، و هذه الأعمال ظل ما يملئ عليه وجوده أنه يعارض أي نظام و

Being and Nothingness (Introduction) by Translator.

تنسيق للحياة البشرية - لأنه يناقش الحرية المطلقة عند القوم -
و يقضي حياته بتوجيه من عمله و وجدانه فحسب ، أيا كان
نوعه ، و مهما جر من ويلات على البشرية^١

و ننتقل إلى ناحية أخرى لها أهمية كبرى في تكييف
حياة الوجوديين، و هي تلقي الضوء على نظرة "سارتر" إلى
الاقدار الخلقية و الخير و الشر ، و علاقة الانسان بالانسان .

و نستطيع أن نلخص فكرته في جملة واحدة ، و هي أن
هبوطنا و سقوطنا و أخطائنا لا وجود لها بنفسها ، بل ان لها
مبررا من وجود الآخرين الذين نعيش فيهم ، فلولا "هؤلاء"
أو لولا "الخارج" ما كان لهذه الأخطاء معنى ، و يشرح هذه
النظرية بقوله : " It is before the others that I am Guilty "
و يقول في صدد الكلام : "اني مجرم اذا رأيت إلى الآخرين"^٢.

و يقول : اننا تعساء مساكين في هذا العالم ، لأن وجود
كل واحد منا هو يتداخل في وجود الآخر بطبيعة الحال من
غير أن نحب أو لا نحب ، فاحترام بعضنا لبعض و استيحاء
بعضنا من بعض و مفاهيمنا الأخرى لا حاجة اليها ، لأنه

^١ الأدب الفرنسي ، ص : ٤١٤ .

^٢ Being and nothingness P. 409-410 .

انتهاك مكشوف Violation لهذه الحرية التي نحترمها ^١ .

و يضرب لذلك مثالا في التعليم ، فيقول : ان هناك منهاجا للتربية يرغم الأولاد على اعتناق ما ينبغي من قيم و أقدار ، و يسوقهم إلى أهدافه الخاصة التي يريد ، و هناك منهج آخر أكثر توسعا و مرونة ، فهو لا يستخدم هذه الخشونة أو الضغط ، و لكنه يريد أن يوجه الأولاد إلى أغراض معينة ، مع أن ترغيب الأولاد (اذا فرضت عليهم قيم معينة) ليس أقل خطرا من الترحيب ، و هكذا الاحترام لحرية الآخرين فهو أيضا كلام فارغ ، لأنه تجريح لحرية التي ننشدها ^٢ .

هذه خلاصة لبعض أفكار هذا الوجودي و مقوماته الأساسية التي تدل على فلسفته الحائرة التي يسميها L'Étréneant أو Being and nothingness بالانجليزية ، و قد تدور معظم أبحاثه بين الوجود بنفسه Being for itself و الوجود لغيره Being for Others .

و لكن الطابع الذي تتسم به أبحاثه من غير استثناء هو

^١ نفس المصدر : P. 409 .

^٢ نفس المصدر : P. 409 .

طابع اليأس و الألم ، و المقت ، و التدمير ، و القلق ، و
التشاؤم ، و الشعور بأنه لا يستطيع أن يعبر عن وجوده و
ذاتيه على الوجه الذي يريده ، فالحرية المطلقة مهددة دائما
بالآخرين الذين يعيش بينهم حتى يموت ، و الشعور بهذا
العبء الثقيل ، عبء المسؤولية الكبرى التي حملها على عاتقه
وحده تكميلا لحيته المفقودة المنشودة ، و الشعور بالخواء
الروحي العظيم الذي نشأ من أجل الالحاد ، و نبذ القيم
الخلقية ، و اعتبار المجتمع و الدولة و الأسرة و العائلة
متداخلة في شئون الفرد ، منغصاً حريته ، و لكنه يحاول أن
يكسو هذا الشعور القاتل بالعزلة و الوحدة و الخيبة و اليأس
ثوب الفلسفة و الأدب ، فيأتي أدب غامض مبهم ، و فلسفة
ملينة بالمتناقضات و الأضداد و الأسئلة الحائرة التي لا تجد
جوابا ، و غموض لا يقبله العقل السليم ، و شنود لا
تستسيغه الفطرة السليمة ، و تستعصي عليه هذه الأسئلة و
ترعجه حتى يضطر إلى أن يؤخر الرد و البحث فيها لعمل
قادم Future Work و قد أعلن بذلك في آخر كتابه .

انه يدعو إلى الحرية المطلقة الدائمة البرينة عن كل قيد ،
ثم يقيدھا بوجود الآخرين ، فيتركھم ليعيشوا أشقياء أبدا ،

تعساء دائما ، يحلمون بها، فلا يجدونها ، وينشأ بين وجود و
وجود ، أو بين Being for others و بين Being for itself
لون من العداء ، أو نوع من الجفاء .

جون بول سارتر و الأدب الوجودي (٢)

الاتجاه الفكري الذي يتزعمه "سارتر" في المذهب الوجودي هو - في الواقع - ظل هذه الحروب العالمية التي رزئت بها الانسانية ، ان هذا القلق ، و السآمة ، و القوضى ، و الميوعة الفكرية التي طغت و سادت على التفكير الانساني و نشاطه في هذه العقود من السنين ، هي المسئولة عن هذا المذهب الاباحي الغامض ، و لا عجب في ذلك فقد اكسوى الرجل بنار هذه الحرب و عاش بين شظاها ، حين قبض عليه في الحرب العالمية الثانية ، و لبث في السجن عاما كاملا ، ثم تسلل من هذا السجن ، و لاذ بأذيال الفرار ، و انضم إلى حركة معادية لألمانيا و عاد أخيرا بأدب جديد يرخى العنان للإنسان و يبرر كل صنعة أو شنيعة يأتي بها ، و يحاول أن يقضي على همومه و متاعبه و آلامه عن طريق هذه الحرية التي لا حدود لها و لا قيود ، و لا رقيب لها و لا حارس .

ان "سارتر" يعرف - بنفسه - ان هذا الخواء ، و الوحدة و العزلة أصيلة راسخة في كيان الانسان و لكنه يرجو

أن يستولي عليه الانسان ، أو يتناساه - في تعبير أصح - بهذا الشذوذ الفكري و الاباحية العقلية ، و التصرف الحر ، و يضع عنه "أغلاله" و "أثقاله" من الايمان و الأخلاق ، و المثل العليا ، و يحطم كل مقياس أو ميزان للخير و الشر ، و الخيث و الطيب ، و المنكر و المعروف ، أما اذا تدخل في هذه الحرية وجود انسان آخر ، فذلك قسر طبيعي ، لا غلثك إلا أن نواجهه بضغط نفسي شديد و كبت ، أو نتصر عليه باستعمال حريتنا في نطاق أوسع أو بالامبالاة إلى آخر الحدود.

و قد تجلّى ذلك في روايات "سبل الحرية Les Chemins Laiberte" و مونة الروح Lamort dans l'ame . و "عصر العقل" L'agederasion التي صور فيها تلك الأوضاع الاجتماعية و الظروف التي تحيط بالانسان المتمثل في شخص "بطل القصة" الأوضاع التي تدخل في حريته الفردية و انطلاقاته الواسعة فيواجهها بعنف أحيانا ، و بلا مبالاة بعض الأحيان .

و هو في هذه الناحية - ناحية اليأس و التشاؤم - لا يقل في أي حال من شهوبنهور (Schopenhauer) - زعيم

المتشائمين - الذي قال:

Life swings like a pendulum from pain to ennui
from ennui to pain.

أي ان الحياة تتدلى كالبندول من الألم الى السآمة ، و
من السآمة إلى الألم " ^١ هذه السآمة و القلق هي الطابع العام
البارز ، لجميع هؤلاء الكتاب و الفلاسفة و الأدباء ، السآمة
و الشعور بالفراغ ، ثم ملء هذا الفراغ بالتدهور إلى درجة
الوحوش و السباع ، و ممارسة ألوان مضحكة للتسلية و
الترفه ، و ارواء هذا الظمأ النفسي الشديد بسخافات لا
يصدقها العقل السليم و لا تقبلها الكرامة البشرية ^٢ .

فالسبب الرئيسي لانتصار هذا المذهب و انتشاره في
الشباب و الأدباء ، و الكتاب أنه هيا سندا كبيرا و ركنا

^١ الأدب الفرنسي ، ص ٥٥١ .

^٢ و ما هذه الرقصات المجنونة النائرة أمثال الجاز و الروك أندروول أو
وقصة الحمير و البغال ، و هي آخر الموضات ، أو ظهور عصابات
لمغنيين و المغنيات أمثال Elwis presley' blingcras by ,
Franksintara أو Beatles إلا محاولات يائسة لتخمس من هذا القلق
النفسي و الحرمان و اليأس الذي يئن الغرب كنه تحت وطأته الشديدة

شديدا للمستهترين و العابثين و فتح لهم الأبواب على مصراعها لتحقيق نزوات الجسد ، و شهوات النفس ، بمرأى من العالم و مسمع ، و ذلك تحت ستار "الفلسفة" و "الأدب" و الأدب كما قال "اندرية جيد" : لا ينبغي أن يصبو الى غاية و يفضي إلى نتيجة حتى يبقى هذا الحد الفاصل ، أي النتيجة و الغاية بينه و بين الدين دائماً^١ .

و نعود الآن إلى "مارسيل" (Marcel) الذي يعتبر من أقطاب المفكرين في فرنسا (١٨٨٩ م) و هو زعيم مدرسة خاصة في المذهب الوجودي و نرجع منه بصورة نقابلها بصورة "سارتر" فاذا هي تختلف عنها اختلافا هائلا ، سواء في الأبعاد و الحجم ، أو في القسمات و الملامح ، أو في الطابع و اللون ، مع أنهما زميلان في المذهب الوجودي رغم اختلاف المنهج الفكري (School of Thought) و الاتجاه الأدبي .

الفرق الرئيسي و الفرق الأصيل بين الأدبين أن الأول يمثل الجناح الملحد الإباحي ، الكافر بسائر القيم الخلقية في هذا المذهب أو هذه الحركة الفلسفية الأدبية ، و الثاني يمثل الجناح المؤمن بالله المعترف بالقيم الخلقية ، الداعي إلى التفاهم

^١ الأدب الفرنسي ص : ٥٥١

مع المسيحية .

ان "مارسيل" يؤمن بالروح ، و يعتقد أن الانسان لا يحظى بالحرية الصحيحة و الحرية الكاملة إلا اذا اتصل بقوة أكبر منها ، وهي الذات الالهية ، و كل اعتباره و قيمته أنه اختار الله و رضي به غاية و هدفا ، انه يرى أن الاستقرار في النشاط الفردي و الكفاح الاجتماعي لا يتأتى بدون هذا الايمان ، و هنالك يلتقي "مارسيل" بالمسيحية في أوسع نطاق و أفصح مجال^١ .

انه يقول : ان الحس الخلقي و الارادة الشخصية هما يفيضان على الحياة معنى و غاية ، انه لا يعتبر الحياة ضائعة مهمة لا معنى لها و لا قيمة شأن "سارتر" و "كامو" (Camus) بل انه يؤمن - بالعكس - بأن الأمل و الرجاء أصيل متسرب في الروح البشري متغلغل في كيانه ، و نحن لا نستطيع أن نفوز بذواتنا إلا في حالة الأمل و الرجاء ، لا في حالة اليأس و الشقاء ، فان الأمل للحياة الروحية ، بمثابة النفس ، للحالة الطبيعية^٢

^١ الأدب الفرنسي ص ٥٤٨ .

^٢ نفس المصدر ص ٥٤٩ .

انه يؤمن بالحب و الوفاء و الرجاء و سائر المعاني النبيلة
 الكريمة التي أودعها الله في الانسان ليستعين بها في مشاق
 سفره ، و يتزود بها في رحلته الطويلة فتخفف ما به من آلام
 و متاعب و صعوبات ، و مشكلات و عقبات ، و لكنه لا
 يستطيع أن يضع لها تصميمًا واضحًا ، أو يشير إلى منهج
 خاص يضي له الطريق ، فاذا كان الأول كمثل ﴿ الذين طبع
 الله على قلوبهم و على سمعهم و أبصارهم ﴾ ^١ كان الثاني
 كمثل الذين وصفهم الله بهذا الوصف المعجز البليغ ﴿ كلما
 أضاء لهم مشوا فيه ، و اذا أظلم عليهم قاموا ، و لو شاء الله
 لذهب بسمعهم و أبصارهم ان الله على كل شئ قدير ﴾ ^٢ .
 و أما روايته و تمثيلاته فمجرد عناوينها و أسمائها تدل
 على منهج تفكيره و عاطفته و وجدانه ، فهنا تمثيلية مشهورة
 له سماها "ولي من أولياء الله" (Unhomme de dien) و
 رواية تحت عنوان "قلوب الآخرين" (LacoEURdes autres)
 بخلاف روايات "سارتر" .

Lagrace و ثلاثة اسمها " التوفيق الالهي " .

^١ سورة النحل ، آية ١٠٨ .

^٢ سورة البقرة ، آية ٢٠ .

و نقدم هنا نموذجاً واحداً من رواية "ولي من أولياء الله
" فهو يلقي الضوء على أسلوب تفكيره و على ضميره
العلمي، و عقله المشبوب بالوجدان و العاطفة .

انه يصور في هذه الرواية قسا من البروتستانت (و هو
بطل الرواية) غفر لزوجته بعض جفوتها و عفا عما أتت به من
جناية أو خيانة ، و لكنه تحول منذ ذلك الوقت شخصا آخر ،
و حدثت في نفسه ثورة عجيبة ، فبينما كان يشق بكل واحد
أصبح لا يعتمد الآن على أي شخص مطلقا و يرى الناس
حوله بنظرة الشبهة ، و يسعى بهم الظن ، ثم راح يشك في
نفسه فتعبد في الخلوات ، و مضى في العبادات لعله يبرأ من
علته ، و لكنه لم يتخلص منها ، و ابتلى بها مدة من الزمان ،
و توجه أخيرا إلى خدمة الرهبان في الكنيسة ، و انصرف إليها
كلياً ، و حاول أن ينسى نفسه في زحمة الأشغال و الوظائف
اليومية المعتادة ، و نجحت هذه الفكرة و هذه المحاولة ، فلم
تذهب عنه الظنون و الشبهات فحسب ، بل انه عثر بذلك
على ضالته المنشودة . فبدأ يلمس في حياته معنى خاصا .

انه نموذج لكاتب كبير له مكانة مرموقة في الأدب
الفرنسي و طابع ممتاز بين المناهج الأدبية و أساليبها ، و زعيم

من كبار زعماء المذهب الوجودي ، فما هي اذا جنايته اذ
تخونه الأعين و تفوته الأبصار ، في مصر و سوريا و لبنان ، و
لا ينال هذا الأديب المؤمن بالذات الالهية و بالقيم الأخلاقية
- و أنا لا أدافع عنه ففي أدبه مؤاخذات و في فلسفته
فجوات و ثغرات يضيق عنها المكان - بعشر ذلك الترحيب
الحار أو بهذه الورود و أزهار التي نالها ذلك الكاتب الملحد
المعروف بذهنه المائع و فلسفته الفاجرة الهدامة لسائر القيم و
المبادئ و الأخلاق ، و الدعوات و الرسائل التي قامت بها
الأرض و تشرفت بها الانسانية ، و امتاز بها الجنس البشري
على حشرات الأرض و فقايع البحر .

هل هي " مؤامرة أدبية " للكتاب الاشتراكيين و الأدباء
الثوريين لتحقيق ما تصبو اليه نفوسهم من هدم للدين و اشاعة
الفاحشة في المسلمين أم انه انسياق مع التيار من غير هدى ،
و تحبط في ضلالة و عمى .

لقد أحاطوه بهالات التقديس و الاجلال و فرشوا له
الحاجر و القلوب ، كأنه نبي أرسله الله إلى الاشتراكيين
العرب ، أو قديس جادت به أرض فرنسا - كعبة هؤلاء
الأدباء المزعومين - ليمسح دموع هذه الأمة المنكوبة و يبارك

على أحزابهم المتنافرة و هيئاتها المتنافسة و دويلاتها المتفرقة و
حكامها المتناحرين المتكالبين على مقاعد الحكم و القيادة ، و
مناصب الامارة و الرئاسة ، أم أنه مسيح يحبى الموتى و يبرىئ
الأكمه و الأبرص باذن الله .

لقد وقع بصري على تصريح و تعليق لبعض رجال
السلك الدبلوماسي ، قالنى هذا المستوى المنخفض الساقط
الذليل من التفكير و هذه العقلية الصغيرة القاصرة ، عقلية
العصافير أو عقلية القروود و البيغاوات التي تحسن التقاليد و
تجيد فن المحاكاة .

يا عباد "سارتر" ! يا أيها الأقزام المقلدون ، المتآمرون
على الشعب العربي المسلم ، و يا أيها المتكبرون لمبادئكم ،
المنحرفون عن جادتكُم ، السادرون في غيكم ، ان تحمسكم
لهؤلاء الكتاب الملحدين و احتفالكم بهؤلاء الأدباء الأشقياء
في الدنيا و الدين ، و تصفيقكم لهذه الشرذمة القليلة من
الطغاة و المجرمين - الذين سودوا وجه الانسانية و انحطوا بها
إلى درجة الكلاب و الذئاب - تسوقكم في نهاية المطاف إلى
مزبلة التاريخ التي تكدس فيها كل ما أبته النفوس الطاهرة
المؤمنة ، و مجته العقول النظيفة و الأرواح الشفافه ، و عافه

القلب السليم و الفكر المستقيم .

انها ترمي بكم في النهاية و من غير احتفال في أوساخ
التاريخ أو في مهوى سحيق ، فهل أصبركم "سارتر" و
"ماركس" و "تيتو" و "هيلا سلاسي" على هذا المصير ؟
﴿ و ان يروا سبيل الرشدا لا يتخذوه سبيلا ، و ان يروا
سبيل الغي يتخذوه سبيلا ﴾^١ و صدق الله العظيم .

^١ سورة الأعراف ، الآية : ١٤٦

بناء الانسان أفضل

أم بناء العمارات ؟ !

من المحن و الأزمات التي ابتلي بها الشرق الإسلامي شغفه الزائد بالبنائيات الحديثة و المعاهد العلمية الفخمة التي تشبه الفنادق و البنوك في ضخامتها و ارتفاعها ، و أناقتها و تأثيثها ، و شاع أمثال هذه الجمل : ان هذه البناية أكبر بناية حديثة في الشرق الأوسط ، و ان هذا الصالون أو هذا المدرج أو هذا المتحف ، الأول من نوعه في المنطقة بأسرها ، و قد سموا هذا البناء الحجري ، أو البناء الظاهري بناء الوطن ، بناء الجيل ، بناء الحضارة ، بناء الثقافة ، إلى آخر هذه التعبيرات البراقة التي كثر استعمالها في الوقت الحاضر .

و قد طغى "آخر موضة" و "آخر طراز" على جميع الحقائق و أصبح "الأحدث" و "الآخر" و "الأكبر" المثل الوحيد للنهضة و الرقي ، و البراعة و النبوغ ، و قد عمت هذه الظاهرة في أكثر البلاد الإسلامية ، فهذا أكبر مسجد في العالم في أندونيسيا ، و آخر في "كوالالمبور" و ثالث في "اسلام آباد" ، و قوي هذا الاتجاه المعماري على حساب الأصالة في

العلوم و التعمق في الدراسة ، و الرسوخ في العقيدة ، و
الاضطلاع بالدعوة ، و اصبحت البنايات تستهلك قوى
الأمة، و تستنفد مجهودها و طاقتها ، و مكاسبها ، و أموالها و
عقولها ، لا تستطيع عنها حولا ، و لا تبغى بها بدلا، لأنها
آخر طراز و آخر ما قدمه الفن المعماري الحديث ، و الأولى
من نوعها في آسيا و ذلك "مبلغهم من العلم" .

هذا في محيط البنايات ، أما في محيط الانسان فلم نسمع
- في عرض العالم الإسلامي كله - من يقول في نفس التعبير ،
و في نفس القوة و الاعتزاز ، هذا أكبر عالم في الشرق ، و
هذا أكبر طبيب في "آسيا" . و هذا أكبر مهندس في العالم
الإسلامي ، و هذا أكبر كيميائي في المنطقة بأسرها ، و هذا
أكبر ضابط و أعلمهم بفنون الحرب في البلاد العربية كلها .

إن كثرة البنايات و الفنادق - يا قادة العالم الإسلامي
- لا تنجب الرجال و لا تنجب الكفاءة و المقدرة ، و النبوغ
و البراعة ، و العلم و التقوى ، انها - بالعكس - تلهي الأمة
عن المكرمات و البطولات ، إنها تستنفد قواها و تشغل بالها ،
و تصرفها عن غايتها السامية ، و أهدافها العالية ، و تجعلها في
قفص ذهبي تجد فيه كل ما يحتاج اليه جسدها من عيش رغيد،

و تفقد كل ما يحن اليه طائر الروح من حرية للخروج و
أجواء فسيحة للطيران تركى جوهرها الأصيل و ترخى لها
العنان .

إن بناء الانسان لا يحتاج إلى بناية و لا يحتاج إلى دعاية ،
بل انه يحتاج - فقط - إلى تصحيح الاتجاه ، و تنوير الوعي ،
و تنمية الشعور و العناية بالأولى و الأهم ، و التركيز على
النواحي المهمة الحساسة ، و تقوية الجانب الذي تضاءل
واضعحل وضعف بدلا من تغذية الجانب الذي تسمن و
تضخم ، و طفى و بغى على الجانب الضعيف .

إن مثلنا في ذلك كمثل رجل نزل عنده ضيف اشتد به
الجوع فاعتنى بعرفته كل العناية ، و أثنها تأثينا جيلا ، و
حشد له كل ما لا يحتاج اليه من كماليات ، و مع ذلك فلم
يقدم اليه وجبة طعام ، أو كأسا من ماء .

أو كمثل رجل أتاه مريض يشكو ألما في القلب ، أو
وجعا في الصدر فهدهاه إلى مساحيق التجميل ، أو استعمال
الملابس الفاخرة .

لقد عينا - كثيرا - بالبنيان ، فلتجبه الآن إلى
الانسان .

همسات إلى جزيرة العرب ..

ان نظرة المسلمين البك يا جزيرة العرب - يا مهبط
الرسالة الأخيرة و مأوى النبوة الخالدة - تختلف عن نظرتهم
إلى شقيقاتك من البلاد العربية و البلاد الإسلامية القريبة و
البعيدة كل الاختلاف ، فأنت في نظرهم مآزر الإسلام و
الايمان ، و مركز الحسن و الاحسان ، و منبع الصدق و
الوفاء ، و معدن الحب و الولاء ، و ملتقى الأرض و السماء .
و أنت في نظرهم - بجانب ذلك - محط الآمال و موئل
الأمة الشاردة الحائرة ، المفتتة الموزعة ، المتخاصمة المتناحرة و
سهمها الأخير الوحيد الذي يتوقف عليه مصيرها ومستقبلها ،
و عزتها و كرامتها .

أنت في نظر المسلم العجمي أحب إليه من الوطن الذي
عاش فيه منذ نعومة أظافره ، و الأرض التي قضى عليها أحلى
أيامه و أسعد أوقاته ، و البيت الذي حمل أطيّب ذكرياته .
فهل تعرفين سبب حبه لك و غرامه بك ، و تهافته
عليك تهافت الصادي على الماء الزلال ، و تساقطه عليك
تساقط الفراش على النور ؟

و هل تعرفين سبب ايمانه بك كالمعقل الأخير و الحصن

الأخير للإسلام في هذا الزمان ؟

انه نداء ابراهيم و دعوة محمد صلوات الله عليهما و سلامه ، إن هذا الاسم العظيم الكريم ، الحبيب الأثير ، اسم محمد ﷺ ، هو الذي أضفى عليك كل هذا الطهر و البقداسة ، و منحك تلك المكانة الفريدة المحسودة التي لا يمسه بلد من بلاد العالم ، و لا تحمل بها بقعة من بقاع الأرض .

لقد كانت مروج "كشمير" و جبال المغرب و ضفاف النيل و غوطة دمشق أجمل بقعة من بقاع العالم و أغناها بالموهب الطبيعية ، و لكن شاءت حكمة الله أن تبقى هذه البلاد كلها - و ما سواها - عالة عليك في دعوتك و رسالتك ، متطفلة على فتات مائدتك ، تنظر اليك بنظرة السائل و المحروم ، و لا تنكر فضلك يا جزيرة العرب فقد آتيتها سؤلها ، و مننت عليها بما هو أغلى من الوجود و أثنى من الحياة ، و هو الايمان .

لقد شاءت حكمة الله البالغة أن ينزل أول وحى على محمد ﷺ في غار حراء ، بين رمال و عساء و جبال جرداء ، و تنطلق الشرارة الأولى للدعوة بواد غير ذي زرع ، و تدور

المعركة الفاصلة في تاريخ الإسلام ، معركة بدر الكبرى في الصحارى القاحلة و الأرض الجرداء المجذبة التي لا زرع فيها و لا نبات ، فكانتها بذلك ارادت أن تقطع صلتك بالمظاهر المادية قطعاً باتاً ، و تعلن أن قيمة هذه الجزيرة في دعوتها و رسالتها و في الأهداف التي جاهدت في سبيلها ، لا في مظاهرها و ثرواتها ، و وسائلها و أدواتها .

إن هذا الاسم العظيم الكريم الحبيب الأثير اسم سيد ولد آدم و سيد الانبياء : محمد ﷺ ، هو الذي منحك هذا المكان النادر ، الفريد الأصيل ، الجميل ، الكريم ، النبيل ، في مصاف الشعوب و أسرة الأمم ، مكان الوصاية العادلة الرحيمة ، على الانسانية الحائرة و القيادة المنيعة الرشيدة للشعوب الضالة ، مكانة الجهاد المتواصل المبرر مع القوى الباغية ، و الرباط الدائم على ثغور الإسلام ، مكان النجدة و الغوث للمسلمين المعذبين ، في مختلف أرجاء الأرض ، و أقصى بلاد العالم .

إن قيمتك أيتها الجزيرة الحبيبة ليس في هذا الذهب الأسود الفانئ الذي تتدفق به الصحراء ، و في هذه المباريات للريح و الناطحات في السماء ، إن قيمتك و اعتبارك و ثمنك

في سوق العالم - مهما تغيرت الدنيا و نظورت - هو إيمانك
بهذا النبي ﷺ ، و حبك له ، و اتباع النور الذي أنزل معه .

إن قيمتك هي الحفا على سمعة هذا الاسم الحبيب و
الانتصار له و التمسك به ، و التفاني في سبيل عزته و كرامته
في وقت عم فيه الضلال و انتشر فيه الغوغاء ، و قل فيه
الوفاء ، و كثر فيه النكران و الجحود .

إنني أراك أيتها الجزيرة تنظرين إلى الغرب الذي داس
كرامته الثوار في "فيتنام" بالأقدام ، نظرة فيها بعض الاجلال ،
و فيها بعض الطمع ، و فيها بعض الشعور بالهوان ، و فيها
شيء كأنه "الندم" مالي أراك مسرعة متحضرة تريدين
استدراك ما فاتك في هذه العقود من السنين من رواسب
الحضارة الغربية و أثائها البالي القديم .

إنني أراك يا جزيرة العرب تستوردين من الغرب كل
شيء و لا تصدرين اليه ما خصك الله به من عقيدة نقية
صافية ، و إيمان عميق ، و غايات نبيلة ، و دوافع صالحة ، و
جمع بين الأخلاق و الوسائل ، و الغايات و الوسائط و ما
خصك الله به من نور النبوة الذي انطقت مصابحه و
انطمست معالمه في الغرب .

إنك يا جزيرة العرب تواجهين عدوا يضمرك لك الحقد و
الكيد منذ زمن طويل ، عدوا يعلن مطامعه التوسعية و يهدد
الأماكن المقدسة ، و يطمع في المدينة المنورة و خيبر ، فليكن
ردك عليه رد الرجال الأبطال ، لا رد بنات الحدور و ربات
الحجال ، و ذلك لا يمكن إلا اذا حولت بلادك و فلذات
أكبادك ، و محلاتك التجارية و أسواقك العامرة ، و أبنتك
الشامخة ، و مدنك و بواديك إلى معسكر ، و إلى قاعدة
حربية ، و مركز تدريب ، فاذا نزل ضيف و ورد زائر رأي أمة
متهيأة للوثوب منتظرة ساعة الصفر ، متعطشة إلى المعركة ،
متلهفة على الشهادة ، و رأى شبابا يسرعون إلى نوادي
الرماية ، و مخيمات التدريب ، و مراكز الدفاع و الحرس
الوطني ، كما يسرعون إلى الملاعب ، و مراكز الرياضة
البدنية ، و مباريات كرة القدم .

إنك لو كنت يا جزيرة العرب مثل البلاد الإسلامية
الأخرى كتركيا أو اندونيسيا أو أفغانستان لحففنا عليك
الثقل ، و أقللنا عنك الحمل ، و التمسنا لك الأعذار ، و
لكنك في مكان دقيق و موقف دقيق ، و مسئوليتك أكبر و
اضخم من مسئولية أي بلد إسلامي في العالم ، فاذا طلبنا من

غيرك تضحية طلبنا منك تضحيتين ، و اذا رجونا من غيرك
مرة رجونا منك مرتين ، و لا عجب فهي ضريبة الشرف ، بل
هو عين الشرف .

إن مسئوليتك بحكم هذا الشرف - اضخم و اكبر من
مسئولية مصر ، و مسئولية سوريا ، و مسئولية الأردن ، و
مسئولية العراق ، و مسئولية الجزائر ، و تركيا و باكستان .

إن أمل العالم الإسلامي قد ضعف في شقيقاتك الأخرى
التي انسافت مع التيارات الغربية كل الانسياق - و أنا آسف
على هذه الصراحة - و هو لم يعد يرجو منها خيرا ما دامت
على نكرانها لنعمة الإسلام ، و جحودها بفضل محمد ﷺ ، و
ما دامت تلهج بالثناء على الحضارات السائدة و المدينيات
الجاهلية ، و ما دام فيها من البعثين الملحدين الذي يسخرون
من الله في الصحف الرسمية علنا و جهارا ، و مرارا و تكرارا .
إنك يا جزيرة العرب السهم الأخير الوحيد في كنانة
العالم الإسلامي - و الله أعلم بأسراره و خفايا أموره - فلا
تخبي أمله و رجاءه ، و لا تنظري إلى هؤلاء "الأقزام" يا كبار
و اعجاب الذين أساءوا الى العالم الإسلامي اساءة لن ينساها
التاريخ .

إنك أيتها الجزيرة قد جهرت بالاسلام في كل مناسبة من المناسبات ، محلية كانت أم دولية ، سياسية كانت أم دينية ، بينما استحي منه الآخرون ، و استنكف منه "البعض" و حاربه "البعض الآخر" و أشدت بذكره بكل صراحة و قوة و اعتزاز، و هي ماثرة سوف يسجلها لك التاريخ بكل تقدير و اعجاب ، و ذلك ما حمل المسلمين في جميع أنحاء الأرض على أن يعتبروك العقل الأخير في هذا الصراع الطويل المريع بين الدين و اللادينية ، و الإسلام و الجاهلية ، الذي تدور رحاه في البلاد العربية في أقصى صوره و أظفح مظاهره ، فاعرفي مسئوليتك الضخمة الدقيقة في هذه المعركة الفاصلة الحاسمة ، و المرحلة الخطيرة الهامة في تاريخك المشرق الطويل .

إنك أسعفت الانسانية يا جزيرة العرب في القرن السادس المسيحي، بعد أن كادت تقع في الهاوية و أخرجتها من جور الأديان إلى عدل الإسلام، و من ضيق الدنيا إلى سعتها ، و هي لا تزال تذكر فضلك و تذكر أبطالك الغر الميامين ، من الصحابة و التابعين ، و لكنها ترنو اليك مرة ثانية ، مستعطفة مسترحمة أن تسعفيها مرة أخرى و تتولى زمام قيادتها من جديد .

و أريد أن أهمس في أذنك يا جزيرة العرب بكلمة
وجيزة أخيرة سأمحني فيها و لا تؤاخذيني عليها ، و هي ان
الحياة صبر و جهاد ، و جد و اجتهاد ، و شك و قتاد ، ان
الحياة الكريمة الحرة ، حياة العز و السعادة ، و الشرف و
الكرامة لا تبنى بالرفقة و النعومة ، و البذخ و الاسراف ، و لا
بوسائل الترفيه و أدوات التسلية ، أو أسباب الزينة و الجمال ،
انها تحتاج إلى دموع و دماء ، و تحتاج إلى صبر و تضحية ، و
غلظة و خشونة ، و بساطة في المعيشة ، و اقتصاد في المأكل و
الملبس ، و المسكن ، فاذا جمعت بين عقيدتك و دعوتك ، و
بساطتك و توضيحتك ، أحسنت إلى نفسك و إلى الأمة
الإسلامية كلها و إلى الانسانية بأسرها ، و تفضلني أخيرا
بقبول تحيات من عاش في أحضانك زمنا سعيدا و قضى في
ربوعك و عطفك و رفدك أياما حلوة ، و رأى من واجبه
الديني أن يهمس في أذنك و ينقل إلى سمعك و بصرك ما
شاهده بدقة و أمانة و صدق و نزاهة ، و السلام عليك و
رحمة الله و بركاته .

فيتناميات جديدة

إن الأمم لا تحارب بالأسلحة و لا تحارب بالمال ، و لا تحارب بالاعلام ، أو بالأمني و الأحلام ، انما هي تحارب بالروح المعنوية ، بالوعي الحربي ، بالدم الفائر ، بالقلب الثائر ، بالأهداف الواضحة ، بالغيرة و الالباء ، بالجروح و الآلام ، انها لا تحارب بالصاروخ "الظافر" و "القاهر" ^١ و البوارج و البواخر ، بل انها تحارب بتلك الشوكة الصغيرة التي يشاكها قلبها ، فتؤرق نومها ، و تنغص نعيمها ، بتلك الغيرة البشرية ، و الحياء الانساني الذي يظلم عليها الحياة و يضيق عليها الأرض ، بتلك الغضبة التي تطيح بالأرباح الرخيصة الحقيمة و تكتسح النباتات السامة و الأحراش الحبيثة ، انها تحارب بوفقة الرجل الحر الكريم ، الذي أهين في عرضه ، و جرح في شرفه ، و شتم في مروءته و رجولته ، و لعن في سلالته و أسرته ، و فصيلته و قبيلته ، فيهجربات الرجال ، و يركض إلى ساحة القتال ، ليغسل عاره ، و يأخذ

^١ أسماء الصواريخ التي تبجحت بها الصحافة في العهد الناصري ثم تلاشت و تبخرت .

ثأره ، و يرد اعتباره .

إن الأمم - يا أبناء سيد الشعوب و الأمم : محمد ﷺ -

لا تحارب بصور الممثلين و الممثلات ، و المغنين و المغنيات ، و
الراقصين و الراقصات، انما هي تحارب بالشرارة الملتهبة في
الصدر ، بالدماء المتوثبة الفائرة في العروق ، ببريق الشار و
النصر في العيون ، باشراقة الغد المأمون المضمون على
الجباه، بترنيمة الفجر الجديد و النصر الأكيد على الشفاه .

انها تحارب بعاطفة "صلاح الدين" و غيره "بابر" و
"شهاب الدين"^١ التي أبت و عافت كل ما لذ و طاب ، من
طعام و شراب و ثياب ، ما لم يتم النصر و يتحقق الانتصار ،
و تقر عيون المسلمين بنصر الله ، ينصر من يشاء ، و هو
العزيز الرحيم .

إنها لا تحارب بالعمارات و العقارات ، و الفنادق و
السيارات ، و الصحف و المجلات ، و التلفزيون و الاذاعات،
و لا تحارب بالدخل و الايراد ، و تضخم الميزانية و حركة
التصدير و التوريد ، و المرافق العامة و المنشآت الجميلة ، و
التجارة المزدهرة ، و السوق العامرة النافقة ، و المحلات

^١ من غزاة الهند المسلمين و ملوكها الفاتحين .

التجارية الكبرى ، و البواخر المحملة بالبضائع ، و الذهب
الاحتياطي في البنوك ، و الأسهم الكبيرة في المصارف و
الشركات ، و الرحلات الجوية إلى روما و باريس و بيروت ،
فحسبك ما كان عليه الفرس و الروم في زمن البعثة المحمدية
من زينة و تفاخر و تكاثر في الأموال و الأولاد ، فلم يغن
عنهم شيئا ، و ما كانت عليه فرنسا - في الزمن الأخير - من
حضارة زاهية مزخرفة رقيقة ، و أسواق عامرة ، و سمعة طيبة ،
فلم تغن حضارتها و أسواقها و سمعتها من جحافل ألمانيا شيئا ،
و ما عليه الآن أمريكا من قوة و سيطرة و تجارة و نفوذ ، و
حياة ارتفع مستواها و تنوعت مطالبها و رقت حواشيها و
كثرت ملاحيتها فلم يغن عنها مستواها الرفيع ، و قوتها
السياسية و العسكرية ، و تجارتها العالمية ، و نفوذها الكبير ،
و أساطيلها البحرية المشهورة ، و غاراتها الجوية ، و قنابلها
المخرقة ، و غازاتها السامة ، و حملاتها الوحشية الانتقامية من
الثوار الفيتناميين شيئا .

إنها سنة الله في الخلق ، و هي لا تفرق بين مسلم و
كافر ، و لا تميز بين عربي و عجمي ﴿ من يعمل سوءا يجز

به، و لا يجد له من دون الله وليا و لا نصيرا ﴿١﴾
لقد كانت جيوش ألمانيا تحارب بنشوة غريبة ، و عاطفة
قوية ، و روح معنوية عالية ، حينما كانت فرنسا غارقة في
لهوها ، عابثة بأموالها ، معجبة بأدابها و حضارتها ، مزهوة
بقوتها و وزنها السياسي ، لا تملك عاطفة ، و لا تحمل روحا
قوية تهون عليها الشدائد ، و تكهرب طاقتها الكامنة و تأخذ
بيدها في البأساء و الضراء ، و حين البأس .

و هذه هي قصة الفيتناميين ، فانهم يحملون من الروح
المعنوية و الوعي الحربي ، و عاطفة الأخذ بالثأر ، ما لا تملكه
أمريكا - رغم كل ما فيها - و النتيجة معلومة ظاهرة لا
تحتاج إلى بيان .

إننا نستحي كثيرا بسرد هذه الأسماء ، و ضرب المثل
بالشعب الفيتنامي أو الألماني ، لأحفاد محمد الفاتح ، و صلاح
الدين ، و لكنه حضيض وقعنا فيه و رضينا به و وضع قبلناه
و عشنا فيه ، و صورة مشوهة أحببناها ناسين وجهنا الحقيقي
و سيرتنا الأولى .

إن عنصر الحياء هو العنصر الوحيد الذي ينعش

١ النساء ، الآية : ١٢٣ .

الرفات، و يحى الأموات ، و يجعل الرجل الخامل المتكاسل
يثور كالليث ، و ينقضّ على عدوه كالصقر ، فليعن العالم
الإسلامي و الشعوب المسلمة بهذا العنصر الذي تضاءل و
اضمحل ، و تقلص و انكمش ، أكثر من أي عنصر آخر .
إن هذا العنصر ، عنصر هام أساسي في الحروب ، و
ركن شديد تأوي اليه الشعوب ، انه يسمح هذا الغبار ، الذي
يتراكم على الأمم الضعيفة الصغيرة بعض الأحيان ، فتأتي
بالعجائب ، و تصنع المعجزات ، و ترضى بموت الشرف أو
بحياة الأسد الغيور ، و الليث المصور ، مقابل لقمة العيش و
تمديد أجل الحياة ، حياة الذل و الخضوع ، و الاستسلام و
الخنوع.

إن العالم الإسلامي أصيب بنقصان في هذه الفيتامينات
الروحية ، و القلبية و العصبية - اذا لم نقل انه فقدوها - منذ
زمن طويل ، فأصبح مشلول القوى ، عاطل الارادة و
التفكير ، و فاقد الهمة و الطموح ، لا تثيره محنة ، و لا يهزه
"تأديب" و لا تجرحه اهانة ، و لا يستفزّه عدوان .

فليكن تركيزنا على هذه الناحية ، و ضغطنا على هذه
النقطة ، و الضرب على ذلك الوتر الحساس ، من أوليات

الأمور التي نتدارسها ، و نعالجها حول نكبة ٥ حزيران ، و
الله المستعان .

دولة لا تغرب عنها الشمس

إننا في حياتنا الشخصية و الاجتماعية و السياسية -
نعالج الأغراض بالأغراض ، و نعالج الأنانية بالأنانية ، و
الطمع بالطمع ، و الخيانة بالخيانة ، و الظلم بالظلم ، و الإثم
بالإثم ، فتصبح الحياة كلها غابة موحشة مظلمة لا توجد فيها
غير الذئاب و الكلاب ، و الأسد و الدياب ، و غير الأحراش
و الآجام ، و الأوحال و المستنقعات ، و تصبح الدنيا كلها
مسرحا تتصارع فيه الأغراض ، و تتشابك فيه المنافع ، إننا
نقول : منينا بهذه الخسارة لخيانة فلان ، و مؤامرة فلان ، و
اهمال فلان ، و جناية فلان، و لكننا لا نعلم أننا منينا بهذه
الخسائر بخرد تلك الأغراض الشخصية و الفردية ، و الخزية
و القيادية ، التي تتحكم في جميع مصالحنا ، و مرافقنا
العسكرية و المدنية ، و تتحكم في مخبراتنا و في قيادتنا العربية
"الموحدة" و تتحكم في ولاية الأمور و حكام البلاد ، و رؤساء
الجمهوريات ، بمثل ما تتحكم في أوساط الناس و عامة
الشعب ، أو تتحكم في رب البيت و رجل الشارع .
إن هذه الأغراض تتحكم في مدرس كلية و أستاذ

جامعة ، فيروق له أن يتخطى جميع الحدود ، و يهضم جميع الحقوق ، و يفض النظر عن كل شئ ، و يستغل كل شئ ، حتى يصل إلى مقامه اللائق ، في الكلية و الجامعة ، حيث يتقلب في أعطاف النعيم ، و يعيش عيشة الأمراء و كبار الوزراء .

و تتحكم هذه الأغراض في ضابط صغير بدأ يحلم "بالرئاسة" رئاسة جمهورية اشتراكية تقدمية مثلاً ، أو بدأ يسعى للوصول إلى درجة ضابط كبير ، صاحب الأوسمة الرفيعة و البطولة الفذة من غير حق ، فيستغل جميع الفرص و يتآمر على سلامة البلاد ، و يستعين بالأعداء ، و يقف بوطنه و بلده و شعبه على فوهة بركان لجرد الفوز بالمرتبة الأولى أو الثانية .

و تتحكم هذه الأغراض في حارس مركز استراتيجي كبير ، فتزأى له الدنيا حلوة راقصة ، و ينساق مع أوهامه و أحلامه ، فيرى أن اللذة القادمة و المتعة الرخيصة طوع أمره ، و رهن اشارته ، فيبيع الأسرار بثمن بخس .

و تتحكم هذه الأغراض في رئيس جمهورية ، فيطمع في البلاد المجاورة ، و يسيل لعبه على خيرات الآخرين و تشتد

فيه شهوة الحكم و شهوة المدح و الاطراء فلا يبالي بالملايين
من الضحايا ، و لا يبالي بالرؤوس المهشمة و الأجساد المحرقة ،
و يقامر بكرامة بلاده .

إن ٩٩ في المائة من الحروب و المعارك و التعذيب و
الاضطهاد و الشر و الفساد ، يرجع إلى الأغراض ، أما
"الضمير" و "المبدأ" و "حقوق الانسان" و "من أجل الشعب"
و "في سبيل الشعب" و "باسم الشعب" فهي ألفاظ فارغة ، و
كلمات معسولة ، لا يراد بها وجه الحق ، بل انها ستائر تلقى
على هذا الوجه القبيح من الأغراض ، لتلايفتضح الأمر ، و
ينكشف السر .

إن هذا الحرص الشديد على زعامة الشعوب العربية
المؤمنة لا تتصل - من قريب أو بعيد - بالایمان العميق
بالمبادئ ، و الاخلاص الكامل في الجهود و الأهداف ، إنها
زعامة في سبيل توزيع المنافع و الأرباح ، و المناصب و الجاه ،
انه تسابق إلى الأوسمة و الشارات ، و الأسماء و الشعارات ، و
كسب الجماهير "الثائرة" للتصفيق و الهتاف على الوعود
المعسولة ، و التهديدات المجلجلة ، و الخطب الرنانة الطنانة ،
و الأحاديث الرخيصة الرصينة ، على أمواج الأثير و شاشة

التلفزيون .

إن "الأغراض" هي التي أضاعت المسجد الأقصى ، و أراقت الدماء في غزوة وسيناء ، و أذلت رقاب المسلمين في العالم ، و أنشأت الفوضى السياسية و الخلقية في البلاد العربية "الاشتراكية" و تركت القوى العربية تقاوم وحدها العدو المشترك .

فهل هناك طريق للتخلص من هذا الداء ؟

إن طريق الخلاص قريب و بعيد ، و سهل و عسير في نفس الوقت، إنه قريب منا و من أرضنا و من تاريخنا ، و من دمائنا و عروقنا ، بعيد عن واقع حياتنا ، و أوضاعنا السائدة التي نعيش فيها بعيد عن الصيادات التي لا تعرف غير شكوى في متلس الأمن، بعيد عن هذا الأسلوب الرخو الناعم ، الرقيق من الحياة ، التي لا تستطيع أن تواجه الشدائد و تركب المخاطر و تخوض المعارك .

إنه سهل لا نحتاج إلى أن نبحث عنه في تركستان و القفقاز و الهند و السند ، فهو في متناول اليد ، و السبب الوحيد أننا لم نسر على هذا الطريق منذ زمن بعيد ، فأصبح غريبا علينا ، و أصبحنا غرباء عليه .

إنه طريق التضحية و الايثار و نكران الذات، و الكفاح الشاق المضني على درب الحياة، إنه طريق الاحتمال و الصبر، و كبح جماح النفس، و إيثار الآجل على العاجل، و الالتحاق بركب الصحابة و التابعين على صعيد الدعوة إلى الله و رسوله. إن هذا الطريق لا مكان فيه للأغراض ، فان الاخلاص لله يعارض الأغراض المادية على طول الخط ، فاذا دخل الاخلاص من باب واحد خرجت الأغراض من باب آخر .

و قد روى المؤرخون من العجائب و النوادر في الاخلاص و التجرد عن الأغراض ما يكشف سِر هذه القوة و النصر ، و العزة و الكرامة ، و الهداية و القيادة ، و يعجز التاريخ البشري عن نظائره على طوله و امتداده.

فقد يغنم جندي في المدائن تاج كسرى و بساطه ، و هو يساوي مآت الألو ف من الدنانير فلا يعث به يد ، و لا تشح عليه نفس ، ثم يسلمه إلى الأمير ، و يرسله الأمير إلى خليفة المسلمين فيتعجب و يقول : إن الذين أدوا هذا لأمناء .

و يعزل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : خالد بن الوليد، و هو في غمار المعركة عن منصبه العسكري الكبير ، و هو منصب "القائد الأعلى للقوات المسلحة" في التعبير الحديث ،

فيقبل أمر العزل عن طيب خاطر و ينقاد للحق ، و لا يعبث
به الهوى شأن القادة و الزعماء ، و لا يضعف أو لا يخور في
القتال ، بل ظل يجاهد بنفس القوة و العاطفة و النشاط كأنه لم
يعزل عن هذا المنصب ، و لا آتاه أمر جديد .

فلو سمح للأغراض - لا قدر الله - أن تعمل عملها في
ذلك الزمان ، و أرخى لها العنان ، لما كان الإسلام و ما كانت
مصر و الشام ، و ثارت العصبيات القبلية ، و الوطنية و
الجنسية ، و استبد كل امرئ برأيه و حكمه و هواه ، و احتدم
لتنافس و التباغض و التحاسد بين مختلف الطبقات و الفئات ،
و ضاعت هذه البلاد كما ضاعت الأندلس و فلسطين.

إن الاخلاص أنقذ هذه الأمة دائما من الهبوط و التزدي
و أسعفها في أيام المحنة ، و أبان لها معالم الطريق ، أما الأغراض
فقد حالت - دائما و أبدا - دون رؤية الحقائق ، و أعمت
القلوب و البصائر ، و أرغمت أبناءها على سخافات لا
يتصورها العقل ، و تصرفات صبيانية و ألعاب بهلوانية تذر
الرماد في العيون ، و تلقى الغشاوة على الأبصار ، كما حدث
عند إغلاق خليج العقبة ، و مضايق تيران و حرب ه جزيران .
إن الاخلاص و التجرد عن الأنانية و الأغراض ، حاجة

الأمة الأولى في كل عصر و مصر ، و كل زمان و مكان ، فان
تغيير اللغات و الواجهات ، و تبديل الشعارات و الهتافات ،
و اختراع التعبيرات و ضخامة الحروف و الكليشات ، لا
يقدم و لا يؤخر في القضية ما دامت الأغراض تتحكم في
النفوس و القلوب ، و ما دامت الأنانية و تعبد الذات ، و
تقديس الأصنام البشرية و الهياكل الانسانية متغلغلة في
الأحشاء ، جارية مع الدماء ، غارقة في الأنفس و الأرواح ،
و ما دامت المصلحة الشخصية ، و المتعة المادية ، و الحياة
الرخيصة التافهة ، و تقليد الغرب "التعس الشقي" عن فهم و
من غير فهم ، و الغرام بفنون اللهو و ألوان الطرب أقصى ما
تهفو إليه القلوب و تشرئب إليه الأعناق ، و غاية ما يحلم به
أبناء الفاتحين العرب ، و أشبال الأمة الإسلامية في الشرق و
الغرب .

كيف نؤدي دورنا في بناء العالم المعاصر ...؟

إن الحياة تغيرت فيجب أن نتغير معها ، و نسايرها إلى آخر الشوط، و نهاية المطاف ، تلك هي خلاصة ما يقوله دعاة التجدد و التغريب في هذا الزمان ، و علينا أن ننظر في صحة هذه النظرية قبل أن نحكم عليها "بنعم" أو "لا" .

إننا نحيل البصر في العالم المعاصر ، و نجول في عواصم العالم الكبيرة المشهورة ، فنؤمن بصدق هذه النظرية ، و نرى أن الدنيا تقدمت تقدما كبيرا في جميع نواحيها و مرافقها ، و أصبحت غير ما كانت عليه قبل عقود من السنين فضلا عن الأجيال و القرون ، إذاً كيف يجوز لنا أن نقف جامدين ، مترمتين نحو هذا التقدم المشاهد الملموس ؟

إن المنطق و العقل ، و البدهاة و التجربة كلها تقتضي أن نغير موقفنا و نغير نفوسنا و أفكارنا حتى ننسجم مع هذا التطور المدهش السريع، و لا نتخلف عن الركب ، و لا نحرم المتع و اللذات ، و الوسائل و التسهيلات التي توفرت و انتشرت في جميع البلاد و الأقطار ، إن معنى هذا أن الحالة

الاقتصادية و الأوضاع المادية ، هي التي تولد الأفكار ، و
تنتج النظريات ، و تصنع الاتجاهات ؟ و معنى هذا أن
الصناعة هي التي تنشئ الحضارة و تنشئ المفاهيم ، و تحدد
الاتجاه ، و تقرر الأهداف .

هذه فلسفة آمن بها الغرب و الشرق ، و أجمع عليها
الطبقة المثقفة الذكية في العالم أجمع ، حتى أصبحت " حقيقة
مسلمة " لا تحتاج إلى جدل و نقاش ، حتى ان جميع الدراسات
العلمية و الحركات الفكرية في الغرب قامت على أساسها ..
و هذه في نفس الوقت نقطة لا يقبلها الحق و الحقيقة في
أي حال من الأحوال ، و الإسلام يعارض هذه النظرية على
طول الخط .

الصناعة في الإسلام لا تكيف الحياة ، و لا تصنع النظريات ،
و الأفكار ، بل ان النظريات و الأفكار هي التي تسخر
الصناعة و تكيفها كيف تشاء

"الأهداف" - في الإسلام - هي التي تتمتع بالحكم
الأخير و القول الفصل - و الكلمة المسموعة في جميع مرافق
الحياة و نواحيها أيا كان نوعها ، و مهما كانت ضخامتها و
مهما كان نفوذها و فعاليتها .

إن قيمة الصناعة عنده نسبية (Relative) انها مقبولة
و مرحب بها ما دامت تخدم مصالحه ، لا تغطي على مثله و
أهدافه ، و نظرتة و أفكاره ، و لا تمسها بسوء ، أما اذا هي
طغت عليها ، و تعدت حدودها فهي مرفوضة مردودة ، و قد
تجلت هذه النظرية في الآية التالية ﴿ و لأمة مؤمنة خير من
مشركة ، و لو أعجبتكم ، و لا تنكحوا المشركين حتى
يؤمنوا ، و لعبد مؤمن خير من مشرك و لو أعجبكم ، أولئك
يدعون إلى النار و الله يدعو إلى الجنة و المغفرة بإذنه ﴾^١ .
و بذلك تنتهي خرافة (الصناعة الخلاقة) للنهاية .

و ظهرت هذه النظرية القرآنية أكثر صراحة في آية
أخرى .

﴿ و يستلونك عن الخمر و الميسر ، قل فيهما إثم كبير
و منافع للناس ، و اثمهما أكبر من نفعهما ﴾^٢ .

إن القيم و الاقدار لا تتغير بالوسائل و العمران ، و
النهضة الصناعية .

فالذي يريد أن يغيث ملهوفاً أو ينصر مظلوماً أو يطعم

^١ البقرة : ٢٢١ .

^٢ البقرة : ٢١٨ .

جائعا مسكينا يستوي عنده العربية و الطائرة ، إلا أن الطائرة
تعجل هدفه و تيسر مهمته ، أما اذا لم يرد شيئا ، و لم يحمل
عاطفة ، فان الطائرة و العربية حتى الصاروخ و ما فوقه لن
يقدر على أن يثير في نفسه ذرة من شعور و ديبا من ألم .

و الذي يريد أن يكتب شيئا يستوى عنده قلم
الرصاص، و القلم الناشف ، و "باركر" من أعلى الانواع ،
إن "باركر" لا يدفعه على أن يكتب في موضوع نافع فاضل ،
كما أن قلم الرصاص لا يرغمه على أن يكتب في موضوع
رخيص سافل ، الاعتبار هنالك بالفكرة التي آمن بها صاحب
القلم - أيا كان نوعها ، و أيا كان لونها - و العاطفة التي
حملها في صدره .

و قد تجتمع الوسائل عند أناس يختلفون في المبادئ و
العقائد فلا توحدهم هذه الوسائل و لا توحدهم الصناعة على
مبدأ واحد ، و ذلك ما أبان عنه القرآن قائلا .

﴿ كَلَّا تَعِدُّ هَؤُلَاءِ وَ هَؤُلَاءِ مِنْ عِطَاءِ رَبِّكَ وَ مَا كَانَ
عِطَاءُ رَبِّكَ مُحْظُوراً ﴾^١ .

إنه يقول ان هذه الوسائل عامة مباحة للمؤمن و الكافر،

^١ سورة بني إسرائيل : ٣٠

هذا يستعملها في خير ، و ذاك يستعملها في شر .

﴿ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده و الطيبات من الرزق ؟ قل : هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ﴾^١ .

إن الصناعة - من صناعة الأقلام إلى صناعة الصواريخ و الأقمار - لا تملك قدرة على إنشاء نهضة و تقديم مثل ، و توجيه أذهان ، انها آلة صماء في يد من يحملها و يستعملها .
فالقول بأن الحياة تغيرت ، فيجب أن نغير نظرتنا إلى الحياة حتى ننسجم مع هذا التطور ، و لا نتخلف عن الركب ، قول لا أساس له في عالم الواقع ، انه سحر هذه الحياة الزاهية المتحررة الخلافة . التي عبر عنها القرآن بكلمة بليغة و جيزة ﴿ و لو أعجبتكم ﴾ .

إن الإعجاب بهذه الحضارة التي نشاهدها في الغرب هو الذي يدفعنا على التقليد الأعمى ، و يخيل إلينا من ضجيج الماكينات و هدير الآلات أن الصناعة هي التي انتجت هذه الحضارة مع أن الأمر بالعكس .

إن الدنيا لا تتغير في الخارج أبدا ، انها تتغير في داخل

^١ سورة الأعراف : ٣٢ .

نفوسنا أولا ثم تبدو نتائج هذا التغير النفسي العميق على
السطح المادي الظاهر ، يقول الله تبارك و تعالى :

﴿ إِنْ اللَّه لَا يَغِير مَا يَقُوم حَتَّى يَغِيرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾^١

إن الحياة لم تتغير حتى نحتاج إلى تغيير ، اننا نحتاج فقط
إلى تصحيح مفاهيمنا و أفكارنا و اتجاهاتنا ، حتى نستعمل
هذه الوسائل في صالحنا كما يستعملها غيرنا في صالحه .

نستعملها في بناء مجتمع نظيف كريم ، و أسرة صالحة ،
و حكومة رشيدة ، كما يستعملها أعداؤنا في الضلال و
الاضلال ، و الفساد و الدمار ، و إثارة الغرائز و الشهوات ،
و اشاعة المنكر و الفحشاء .

المصيبة أننا - في الشرق - نهتم بالوسائل و المظاهر
أكثر مما نهتم بالروح و الحقيقة ، و الهدف و الغاية ، و
الدعوة و الرسالة ، فكانت النتيجة أن هذه الوسائل بدأت
تتحكم فينا ، و تملّي ارادتها علينا بدلا من أن نتحكم فيها ، و
نملك زمامها و نسيطر عليها و نوجهها إلى حيث نشاء .

إن كثيرا من الشباب المثقفين ، و كثيرا من الموجهين و
المفكرين ، و الزعماء السياسيين ، يظنون أن هذه الوسائل

^١ سورة الرعد : ١١ .

المريحة هي الحضارة ، و أصبحت المقاييس تتغير حسب
الاذواق ، فالحضارة عند البعض رفع مستوى المعيشة - أو
بتعبير أصح - فندق كبير مزود بأحدث الأجهزة ، متوفر
بكافة التسهيلات ، و الحضارة عند البعض رحلات إلى رومة ،
و باريس ، و عند الآخرين تقليعات و مוזيات ، مع أن كل
هذه الأشياء لا صلة لها بالحضارة ، انها أدوات في أيدي
المتحضرين ، خلقها الله سبحانه للبشر لينظر كيف يعملون ،
قائلا في كتابه المجيد : ﴿ هو الذي خلق الموت و الحياة
ليبلوكم أيكم أحسن عملا ﴾ ^١ ، و قال على لسان قوم
موسى عليه السلام ﴿ و ابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة و لا
تنس نصيبك من الدنيا ﴾ ^٢ .

و قد ثبت من هذا أن "الدعوة" إلى التغير مع تغير الزمن
دعوة غير علمية ، و غير مبنية على الاصالاة و التعمق ، انها
تبدو بريئة في أول أمرها ، و لكن سرعان ما ينكشف أمرها و
يفتضح سرها ، انها تدل على أننا استوردنا هذه الفكرة من
الغرب ضمن مشحوناتنا الأخرى من غير أن نفكر فيها .

سورة الملك : ٣ .

^٢ سورة القصص : ٧٧ .

فاذا كانت السيارة تحمل المرء في لندن أو شيكاغو إلى صالة رقص أو حانة خمر .. ظننا من شعور أو من غير شعور أن كل من يشتري هذه السيارة لا بد له أن يتوجه حيث ما توجه اليه الانجليزي و الامريكي .

و اذا كان التلفزيون في الغرب أداة للبعث الحرام ظننا أنه على كل من يصنع هذا التلفزيون أو يستورده أن يقدم نفس البرامج ، كأن السيارة لم تخلق إلا ليتوجه إلى البار ، و كأن التلفزيون لم يصنع إلا للخلاعة و المجنون، و هذا ينطبق على سائر مرافق الحياة ، اننا لم نستورد الوسائل فحسب ، بل اننا استوردنا معها الغايات و المناهج ، و الفكرة و الروح ، و الدوق ، و تلك هي الطامة الكبرى ، و البلية العظمى .

و هكذا حدث في التربية

التربية في جميع الأقطار أداة لتوجيه الشعب إلى غايات معلومة ، واضحة المعالم ، ظاهرة الملامح ، فالتربية في الدول الاشتراكية غير التربية في الدول الغربية ، بل ان التربية في أمريكا ، غير التربية في إنجلترا ، و التربية في الصين الشيوعية غير التربية في الاتحاد السوفيتي ، و ذلك لأن لكل دولة أغراضا و مصالح و أهدافا يسخر لها جميع أجهزة البلاد بما

ففيها التربية و الرياضة ، و المسرح و السينما و الاداعة ، أما نحن في الشرق فقد نستورد هذه المناهج التربوية و الكتب التربوية (بنقلها إلى العربية) بجمليتها ، مع أنها تعارض أهدافنا الإسلامية الواضحة و مثلنا العليا و مصالحنا الدينية كل المعارضة ، و تشير صراعا فكريا و اضطرابا عقائديا بطبيعة الحال .

و كل هذا ناتج من هذا الوهم الخاطي بأن الصناعة و النهضة المادية هي التي تغير ملامح المجتمع ، و تفتح آفاق الفكر ، و تمنح الافكار و النظريات الفاضلة ، و اننا نحتاج إلى أن نتغير و نتطور مع الزمن حتى لا نتخلف عن ركب "المتحضرين" و نتقى تهمة "الرجعيين" .

إننا مهما جمعنا من وسائل و أسباب - نحتاج إلى أن نكون أكثر أصالة و تعمقا ، و أكثر ذكاءا و فراسة ، و أكبر صبرا و هدوءا ، في مواجهة هذا السيل المتدفق الفوار ، الذي ينهمر علينا من الغرب ، فنأخذ منه و ندع ، و نترك و نختار ، نأخذ الآلات المجردة ، و ندع الأفكار اللاصقة ، نختار العلوم التطبيقية و نسخرها للرسالة العظيمة التي آمنا بها ، و الدعوة التي حملناها .

إننا بذلك نقدم شيئاً مهماً خطيراً ، في مضمار العلم و
الثقافة للعالم المعاصر ، شيئاً جديداً يسمو على هذه الأفكار و
الدعوات العصرية كلها ، و نصصح اتجاه الإنسانية من جديد
لتسير على درب مستقيم لزمن آخر طويل لا يعلمه إلا الله

المنهج الإسلامي للحكم

المنهج الإسلامي للحكم أو للسياسة و الاجتماع لا يحتاج إلى بحث و تدقيق ، بمثل ما يحتاج إلى تنفيذ و تطبيق ، و لا يحتاج إلى تصريحات و اعلانات ، و مؤتمرات و اجتماعات ، و دراسات و مناقشات ، أكثر مما يحتاج إلى اخلاص في القول و العمل ، و ايمان راسخ عميق بالمبدأ ، و اقتناع واف كامل بسمو الهدف ، و دافع قوي على الاقدام ، و ولاء صادق عملي بالاسلام و سيدنا محمد عليه الصلاة و السلام

المنهج الإسلامي ، منهج مستقل ، منهج مختلف ، منهج

أصيل ليس بينه و بين المناهج الوضعية وجه شبه أو نسب ، فبينما المناهج الاخرى أو الديانات السائدة الاخرى ، تختلط مع الشعوب البشرية العامة في سوق المادة و المعدة ، و تجتمع معها على مائدة واحدة ، و تتمتع معها بملذات الحياة المحرمة بحرية تامة ، نرى الإسلام ينفصل عن هذه الشعوب المادية من أول الطريق ، احتفاظا بسماته و خصائصه ، و غيرة على دين الله و استمسাকা بالعروة الوثقى ، و كراهية للمناهج الباطلة و الدعوات المزورة الكاذبة ، و ذلك هو المراد بما جاء في

الحديث الشريف من مخالفة اليهود و النصارى و التشديد على النهي عن متابعتهم و لو في الأمور العادية البسيطة ﴿ و تحسبونه هينا و هو عند الله عظيم ﴾^١ .

إن هذه الأحكام الدقيقة التي نجدها في كتب الفقه الإسلامي عن الطهارة و آداب الأكل و الشرب و الدخول و الاستئذان ، و الكلام ، و الحلق و القص و القصر ، و نحو ذلك من أمور قد تبدو أنها لا تتصل بالعقيدة و المبادئ هي نفسها أبلغ دليل على اتجاه الشريعة الإسلامية و نظرة الإسلام الشاملة المتكاملة إلى الحياة ، فإذا لم يكن المراد أن يختلف المسلمون عن غيرهم على مسيرة التاريخ و درب الحياة ، و ينفصلوا عنهم لا في العقائد و المبادئ و النظريات العلمية و الافكار الثقافية فحسب ، بل يختلفوا عنهم في كل شيء ، ما كانت الحاجة إلى كل هذا "اليسار و اليمين" في الأكل و الشرب و القيام و القعود و ما كانت الدعوة إلى "الوتر" في مثل هذه الامور ، و ما كان الاقتضاء إلى طريقة خاصة للطهارة و الاختصار عليها، و الاهتمام بالقبلة و احترامها حتى في غير العبادة .

^١ سورة النور ، الآية ١٥ .

إن أمثال هذه الأحكام والآداب والأمر ، - وهناك كثير غيرها - ليست بدافع الفضول ، أو بدافع التعصب و التزمّت ، أو بدافع الحقد و المقت ، انها شرعت للأمة الاسلامية بحكمة بليغة و حجة بالغة و هي الحفاظ على هذا المنهج الكريم ، المستقل الفريد ، الأخير الذي تتوقف عليه سعادة البشرية ، ليعيش المسلمون بين مواطنيهم من أبناء الديانات الأخرى أو المناهج السياسية و الاجتماعية الأخرى ، كدعاة تنضح ملامحهم بالصدق و تشرق جباههم بنور الايمان و تمتلئ قلوبهم بالسكينة و التقوى ﴿ حنفاء لله غير مشركين به ﴾^١

و هذا هو السر في الاعادة و التكرار ، و الشرح و التفصيل في وصف المؤمنين في القرآن الكريم ، وعد خصائصهم و حسناتهم و فضائلهم، و الغرض من هذا كله أن لا يقع بصر أحد على مسلم حتى يعرفه بأنه مسلم ، يعرف ذلك عن وجهه و عن شمائله و عن طريقته و آدابه، و لا يحتاج إلى النظر في "هويته" أو "بطاقته" و الاستفسار عن دينه و عقيدته .

^١ سورة الحج ، ٣١ .

هذه الغاية العظيمة الكريمة هي التي جعلت المنهج الإسلامي للحكم كمنهجه في سائر شئون الحياة و الامور العامة منهجا مستقلا ، أصيلا يمشي على قدميه ، و يزاحم بمنكيه ، و ينظر بعينه ، لافتا للأنظار من غير تصريح و إعلان ، ناطقا على جدارة الإسلام و خلود الإسلام من غير منطق و كلام، و دعاية و إعلام .

هذا المنهج لا يترك الحبل على غاربه ، و لا يسمح لأي ناحية من نواحي الحياة بأن تكون حرة لا قيد عليها ، بل انه يهيمن - وفق الغاية التي ذكرناها - على جهاز الحكم بأسره ، فاذا أردنا أن نختار المنهج الإسلامي للحكم ، و جب علينا أن نأخذه كله ، نأخذه جملة واحدة ، فلا يجوز لنا أن نأخذ منه ما ساعه الهوى ، أو اقتضته المصلحة ، و دعت إليه الحاجة ، بل نأخذه بحذافيره و برمته ، و نطبقه على نظام التربية و نظام الاقتصاد و نظام الصناعة .

أما في ناحية التربية فالمطلوب منا أن نضع من الثانوية إلى الجامعة جهازا جديدا لتربية النشء على الطراز الإسلامي ، و أن نكفر بكل هذه المبادئ و النظريات التربوية و الأفكار الجاهلية التي استوردناها من أعداء الإسلام ، كما نستورد

أقلام الخبر ، و هذا الصوغ الجديد ، لا أعني به التغيير الشكلي في المواد المدرسية - رغم أهميتها - بل أريد به تطبيق المنهج الإسلامي على كل جزء من أجزائه ، و لو كان عاديا بسيطا إلى أن يكون جهازنا التربوي كفيلا بتخريج شباب أكفاء يبيضون وجه الإسلام ، و يعيدون مجد الإسلام ، و حتى يعترف الأعداء بأن جهازنا التربوي فريد مستقل ، لا يستورد و لا يقلد .

أما نظام الاقتصاد فهو بدوره يحتاج إلى سبك آخر جديد يخلصه من شرور الربا و القمار ، و العقود و المعاملات التجارية التي لا يسمح بها الإسلام ، ثم انشاء حياة مثالية و مجتمع مثالي لا يطفئ عليه الاقتصاد ، و لا تطفئ عليه المعدة و المادة ، و التكاثر و التنافس ، و السباق المذهل نحو أهداف خيالية ، مثل "رفع مستوى المعيشة" .

إن نظامنا الاقتصادي له دخل كبير في بث الوهن و الضعف ، في جسم العالم الإسلامي ، فاذا قوم هذا النظام بمقياس المنهج الإسلامي الصحيح زال هذا الضعف الطارئ الدخيل ، و عاد كما كان سليما قويا بعيدا عن الشيع المفرط ، و السمنة الزائدة ، و تحررت البلاد من هذا التفاوت المالي

بين فئاتها المختلفة و أصبحت في مأمن من عواقبه السيئة في المجتمع و مصير الدولة .

و يأتي دور الصناعة و هي ناحية مهمة في حياتنا اليوم ، و أقل ما يقال عنها في هذه السطور هو أن نفرق فيها بين صناعة لازمة ، و صناعة زائدة عن الحاجة ، و بين صناعة نقيمها في بلادنا و صناعة نستوردها من الخارج ، و أن نركز أكثر قوتنا على ما يسمى Applied Science صناعة تطبيقية مجردة ، هذا النوع من الصناعة هو أنفع للعالم الإسلامي اليوم ، و في كل هذا التمييز و التطور و التقدم و التأخر نحتاج إلى مقياسنا العادل الصحيح ، المقياس الالهي الذي لا يخطئ و لا يتغير .

ذلك هو "المفتاح المفقود" أو ذلك هو المصباح الضائع مصباح علاء الدين ، الذي قرأنا قصته في ألف ليلة و ليلة ، المصباح الذي لا يغنى عنه ألف كتاب و خطاب ، و ألف جامعة ومؤتمر .

إن هذا الباب المغلق بيننا و بين التاريخ لا يفتح أبدا ، و لو قدمنا اليه ألف دليل و عرضنا عليه ألف مذكرة ، و ألف احتجاج ، انه لا يفتح إلا بالاخلاص الكامل ، و التنفيذ الدقيق ، و التغيير العام الشامل في جميع مرافق الحياة ، و مناهج الحكم و نواحي الاجتماع .

النظام الإسلامي في معركة الأفكار

إذا أردنا أن نواجه الانظمة السياسية المعاصرة بفاعلية أكثر ، و أن نكسب لذلك شبابا لا يميع و لا يذوب ، و لا يسالم الأعداء ، و لا يفتر في النضال و الكفاح ، و الجهاد و الفداء ، و جب علينا أن نستعمل قوة الإسلام الذاتية في هذه المعركة ، فان الإسلام لم يأت إلا ليسود ، و يحكم ، أو يوجه ، و ينتصر على الدعوات الاجتماعية و الانظمة السياسية التي تزاحمه ، ثم يشق طريقه إلى الامام معتمدا على قوته الذاتية و منهجه الخاص في السياسة .

هذه القوة الذاتية في النظام الإسلامي تأوي إلى ركنين شديدين : أولهما : الثقة بالاسلام كمنهج الهي تتوقف عليه سعادة الانسان ، و ثانيهما : كراهية الأنظمة الباطلة (غربية كانت أم شرقية ، رأسمالية أو اشتراكية ، قومية أو علمانية ، شيوعية أو ماركسية) كراهية عقائدية طبيعية ، تمتاز بالنفسية و الروح ، و العقل و العاطفة ، و اللحم و الدم ، و ذلك على أساس أن هذه الأنظمة تحول دون إقامة النظام الإسلامي ، و تطبيق منهجه ، و تنفيذ شريعته .

فالركن الأول (يعني الثقة بالنفس ، و الاعتماد على ما جاءت به الشريعة) يمنعنا من الانسياق مع التيارات الجاهلية ، و يحافظ على إيماننا و عقائدنا ، و لكنه لا يتقدم إلى أكثر من ذلك ، و المعلوم أن الجمود لا يؤدي إلا إلى الزوال ، و المرء الذي يدافع عن نفسه فحسب تخور قواه و تنهار أعصابه في النهاية حتى يستسلم للعدو ، و لذلك أردفه الإسلام بركن آخر يقوى أوله و يشد عضده ، و هو كراهية الأنظمة الجاهلية ، بجميع ألوانها و أشكالها ، و في جميع عصورها و أدوارها ، و مقت الذين تولوا كبرها ، و حملوا لواءها مقنا شديدا ، و بذل كل الجهد و الوقت لأقصائهم عن مسرح القيادة حتى لا يستطيع شرهم ، و لا ينتشر مذهبهم المادي و منهجهم الحيواني في النوع الانساني الذي أكرمه الله بالامانة و الخلافة ، و النبوة و الرسالة ، و شرفه بالايمان و العرفان و الحب و الحنان .

إن هذا المنهج الإسلامي لا تقتضي به استراتيجية المعركة و العقل العملي فحسب ، بل انه من غايات الإسلام العظيمة التي نص عليها القرآن، و لا يتكامل بغيرها الايمان - يقول الله تبارك و تعالى يصف المؤمنين : ﴿ و الذين معه أشداء على

الكفار رجاء بينهم ﴿ الآية ^١

و يقول :

﴿ أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، يجاهدون في
سبيل الله و لا يخافون لومة لائم ﴾ ^٢

و يقول :

﴿ لا تجد قوما يؤمنون بالله و اليوم الآخر ، يوادون من
حاد الله و رسوله ، و لو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم
أو عشيرتهم ، أولئك كتب في قلوبهم الإيمان ، و أيدهم
بروح منه ﴾ الآية ^٣ .

و يقول :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا
يألونكم خبالا ، و دوا ما عنتم ، قد بدت البغضاء من أفواههم ،
و ما تخفى صدورهم أكبر ﴾ ^٤ .

و يقول :

^١ سورة الفتح : ٢٩ .

^٢ المائدة : ٥٤ .

^٣ المجادلة : ٢٢ .

^٤ آل عمران : ١١٨ .

﴿ كفرنا بكم و بدا بيننا و بينكم العداوة و البغضاء
أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾^١ .

و ذلك لأن القرآن يريد أن يغرس هذه المعاني في قلوب
المؤمنين و يرسخها في أذهانهم حتى لا ينسوا دورهم العظيم
في هذه المعركة ، و لا يؤخذوا على غرة .

أما في الحديث الشريف فقد جاء صراحة :

﴿ من أحب لله و أبغض لله فقد استكمل الايمان ﴾ أو
كما قال عليه الصلاة و السلام ، و أوجب على كل مسلم
أن يجدد هذه المعاني في كل عشاء ، فيقول في دعاء القنوت
في صلاة الوتر (و هو واجب لا يصح بدونه الصلاة) : ﴿
نخلع و نترك من يفجرك ﴾ و هو أبلغ و أوضح في تنبيه الفكر
و ايقاظ الشعور و إثارة العاطفة .

و جاء في وصف رسول الله ﷺ على لسان سيدنا علي
بن أبي طالب ؓ ﴿ ما رأيته ﷺ منتصرا من مظلمة ظلمها
قط ، ما لم ينتهك من محارم الله تعالى شيء ، فاذا انتهك من
محارم الله تعالى ، كان من أشدهم غضبا ﴾^٢ .

^١ المتحنة : ٤ .

^٢ عن الحسن بن علي بن الحسين بن علي رضي الله عنهم (الشمايل -

و قد بات الأمر بالعكس في هذا الزمان ، و ظل
المسلمون لا يغارون على أنفسهم ، أو لا يغارون على شيء
كما حدث أخيراً و أصبح الاعتبار عندهم أكثر الأحيان
بالأراضي و الأوطان لا بالكفر و الإيمان .

و ورد في آثار أخرى :

﴿ و من مات و لم يغز و لم يحدث به نفسه ، مات على
شعبة من نفاق ﴾^١ .

﴿ و ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : أن
يكون الله و رسوله أحب إليه مما سواهما ، و أن يحب المرء لا
يحبه إلا الله ، و أن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله
منه كما يكره أن يقذف في النار ﴾^٢ .

و ﴿ من جاء مع المشرك و سكن معه فهو مثله ﴾^٣
إلى غير ذلك من آثار كثيرة في النهي عن التشبه بالكفار
و الأمر بمخالفتهم ، لا في الأفكار و المعتقدات فحسب ، بل

= للترمذي .

^١ صحيح مسلم - كتاب الجهاد .

^٢ متفق عليه .

^٣ زاد المعاد ج ١ ص ٢ .

في الآداب الاجتماعية أيضا ، و ليس الغرض منها إلا أن يتميز المعسكر الإسلامي عن المعسكر الجاهلي في كل شيء ، و يعرف موقفه و خطه في معترك الأفكار أو في ميدان النضال . و في ذلك حكمة بالغة و رحمة شاملة ، فان هذه المخالفة لا تمنع الكيان الإسلامي من التمتع و الذوبان فحسب ، بل تثير في المسلمين كراهية شديدة لنظام الكفر ، و التمرد و العصيان ، و رغبة ملحة في تغيير هذا النظام الفاسد ، اقتداء بسنة النبي الكريم ﷺ .

﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ﴾^١ .

و تدلنا على تلك البذور التي تبذرنا في قلوب المؤمنين نحو الجاهلية بأوسع معانيها ، و جميع أبطائها و ممثليها .

﴿ كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ ، فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ﴾^٢ .

فما دمنا لا نؤمن بقرارة نفوسنا أن هذه الانظمة السياسية و الاجتماعية تعارض اسلامنا على طول الخط ، و

^١ سورة الكهف ، الآية ٦ .

^٢ سورة الفتح ، الآية ٢٩ .

تربص بنا الدوائر ، و تدبر لنا المؤامرات و الدسائس ، و
تتنهز كل فرصة للنيل من الإسلام ، و الضرب على
المسلمين، سواءا بالهجمات و الغارات ، أو بالارساليات و
البعثات ، و المعاهدات و الاتفاقات .

و ما دمنا لا نؤمن أن هذه الانظمة تعادي - أصلا -
رسالة الله و شريعته الكاملة ، و تريد القضاء على من يدعو
اليها ، و تعتبر الدعاة إلى الله ألد أعدائها و أكبر عائق في
سبيلها لا تحدث فينا قوة المقاومة و قوة الهجوم ، و رد فعل
حاسم عنيف ينزل بنا حالا في الصفوف الامامية و خط النار .
إن هذين الركنين بمثابة جناحين للصقر ، فاذا كسر منها
جناح ، لم يقدر على الطيران ، و هذان الجناحان هما الحب في
الله و البغض في الله ، فاذا استويا عند المؤمن طار بهما و لم
يبال .

أما نظرية التقارب و التعايش و المسالمة التي يؤمن بها أو
يتظاهر بها - في تعبير أصح - المتغربون و التقدميون ، فهي
لا تستطيع أبدا أن تحل مشكلة التخلف و الضعف و
الانحطاط، و تنتصر في معركة الأفكار ، و صراع الانظمة و
الحركات ، لانها لا تقدر - أساسا- على منع الموجات ، و

صد التيارات ، و مواجهة العدو في أرضه ، و عقر داره ، و اخزائه و تعريته ، و كشف القناع عن أخطاره و مكائده .

فاذا دخل هذا النوع من الشباب الأعزل في معركة الحياة لم يجد ما يدافع به عن نفسه ، فليس عنده ثقة بذاتية الإسلام ، يحافظ بها على دينه و ثقافته ، و ليس لديه كراهية و مقت لأعداء الله و أعداء الانسانية ينتصر بها على الباطل ، فيذوب في نظامهم بطبيعة الحال ، كما يذوب الملح في الماء ، و ذلك بخلاف أهل ذلك النظام ، فانهم يؤمنون بذاتيتهم و يتعصبون لنظرياتهم و يتفجرون بغضا و عدااء للدعوة الإسلامية و المنهج الإسلامي في السياسة و التربية و الحكم ﴿قد بدت البغضاء من أفواههم و ما تخفي صدورهم أكبر﴾^١ .

فلا بد أن نوسع اطار كراهيتنا هذا النظام إلى حد يمنع ناشتنا و شبابنا من تقليد هؤلاء "الببغاوات" و "الاقزام في كل صغير و كبير ، و سواء في قطاع الأفكار و المعتقدات ، أو في قطاع المسليات و الكماليات ، و نضع حدا على توريد البرامج الفنية و وسائل التربية ، و أسباب الترفيه و التسلية ، فكيف يسعنا أن نتكفف أعداءنا لاسباب تافهة زائدة عن

^١ سورة آل عمران ، الآية ١١٨

حاجتنا كالكماليات ، و أمور دقيقة حساسة كالتربية و الاعلام ، و هم يترقبون للفتك بنا في أي فرصة ، و يرقصون فرحا على هزيمتنا في كل معركة .

إن نظام الإسلام السياسي لا يقوم على مجرد الدعوة ، و لا يقنع بالسلبية بل انه يب في أتباعه روح الكراهية و البغض نحو أئمة النفاق ، و الضلال و الكفر و الالحاد ، و دعاة الاباحية و الحيوانية ، و الشذوذ و الجنون ﴿ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، إن هم إلا كالانعام ، بل هم أضل سبيلا ﴾^١ .

و لذلك نجد القرآن العظيم يذكر لعن المؤمنين على أمثال هؤلاء بجانب لعنه و لعن الملائكة و الانبياء .
و الفرق الأساسي بين نظام الإسلام السياسي و الأنظمة الأخرى أنه لا يقتنع بالقوة السياسية و لا يحسبها أكبر همه و مبلغ علمه ، و لا يريد مجرد الفوز في الانتخاب و الوصول إلى مقاعد البرلمان شأن الحركات السياسية و أحزاب اليمين و اليسار ، " و أعداء الاستعمار " ، فان هؤلاء لا يعمقون الاستعمار أبدا ، انهم يطلبون وكالة الاستعمار و يطلبون حق

^١ سورة الفرقان ، الآية ٤٤

التوزيع و حق التمثيل فحسب ، و لذلك تراهم يفرقون بين استعمار و استعمار ، فتارة يساومون هذا و تارة يساومون ذاك ، فالاعتبار عندهم بشروط العقد أو الوكالة ، و حاشا أن يفكروا في مقتته و كراهته ، و كيف يمقتونه و قد استعمرت أرواحهم و عقولهم و أفكارهم ، و كيف يكرهونه أو يخاصمونه و قد أخذ منهم ميثاقا غليظا .

أما النظام السياسي في الإسلام ، فانه لا يعادي هذه الأنظمة و لا يصارع المذاهب السياسية و الدعوات الجاهلية ليستمتع أهله بالقيادة و منافعها ، كما استمتع بها الذين من قبلهم ، و يخوضوا كالذين خاضوا ، و يسيروا على المسلك الذي سلكوه ، و لو دخلوا جحر ضب لدخلوه ، بل يعادي هذه الأنظمة و يقاوم هذه الحركات في سائر المجالات و الجهات ، و يخالف أهلها من أول الطريق إلى نهاية الشوط . و يمقت احتلالهم الأراضي الإسلامية كما يمقت احتلالهم العقول الإسلامية ، و يمقت احتلالهم أرواح الشباب و طاقاته قبل أن يمقت نهبهم ثروات البلد و خيراته .

فالذي يؤمن بهذه النظرية ، و بهذا المبدأ ، و يسير على هذا الخط يعتبر مرابطا على الثغر ، يقظا واعيا لكل خطر ،

يصبر على أذاه ، و يصبر على حرمانه من المنافع المادية ، و لكنه لا يصبر على انتهاك حرمان الله ، و تعدى حدوده و نقصان دينه ، و ينطق بلسان حاله قبل أن ينطق بلسان مقاله ﴿ أينقص الدين و أنا حي ﴾^١ .

و يخرج من هذا النظام أكثر قوة و أقوى صمودا ، و أعمق إيمانا ، و أشد غيرة و حماسا ، فلا تجد هذه الانظمة فيه منفذا تدخل به ، و ثغرة تتسرب منها ، و ضعفا تستغله ، بل تنعكس الآية و يقف النظام الجاهلي (بشقيه الغربي و الشرقي) في موقف الدفاع و يرى في هذا المؤمن و نظامه الجديد خطرا على مكاسبه و انتصاراته و صولاته في أرض الإسلام .

إن هذا التحول ، تحول المعسكر الإسلامي من خط الدفاع إلى خط الهجوم ، و اندحار المعسكر الجاهلي الحديث من خط الهجوم إلى خط الدفاع ، تحول عظيم ، و هو لا يمكن إلا بتحقيق تلك المعاني و المبادئ و ارساء نظامنا السياسي على هذين الركنين العظيمين و الاستعانة بهذين الجناحين

^١ كلمة خالدة باقية ، قالها سيدنا أبو بكر - رضي الله عنه - في فتنة الردة المشهورة ، ففضى بها على هذه الفتنة .

الكبيرين .

إنه منهاج لا تقتضي به - كما قلت - استراتيجية
المعركة و العقل العملي ، و التحول النفسي فحسب ، بل انه
في ذات الوقت من غايات الإسلام العظيمة الكريمة ، التي نص
عليها القرآن ، و لا يكمل بغيرها الايمان .

عاهة الشيوعية

إن عداء الشيوعية للدين وحقدها الشديد الدفين
للاسلام قضية معروفة لدى الجميع ، أما ذهابها بأمن الحياة و
رخائها و سعادتها و نحسها على موارد البلاد و غناها ، و
زرعها و ثمارها و على تجارة البلاد و انتاجها، و كتبها حرية
العمل ، و حرية الكفاح ، و حرية التصدير و التوريد ، و
حرية الحياة العائلية و المنزلية و حياة المجتمع ، و انكارهم
للمعاني النبيلة مثل حب الاطفال و صلة الرحم و معاشرة
الاخوان ، و في اختصار العيش على هذه الكرة الارضية
كانسان ، فان هذه القضية أو هذا الفصل الأسود الخالك من
قصة التنازع الطبقي ، و الصراع الحيواني ، و الاستبداد
الحزبي، فصل لم تعرفه البلاد "الغرة" ... "السادجة" "الآمنة"
المطمئنة" التي لم تكتو بنارها ، و لم تجرب حظها في هذا
"اليانصيب" ، و لا أسرد هذا اللفظ عفوا و جزافا ، فان
كثيرا من الناس في هذه البلاد يتسابقون و يتزاحمون على
شراء هذه الآفة و العاهة ، كأنه خير كثير حرموا إياه بينما
سعد به الآخرون.

فهل هو خير كثير ، أم شر مستطير ؟

إن لنا جارة في شرق البلاد يقال لها "بورما" و هو اسم معروف ، و عندكم جارات تبنت الشيوعية و افتخرت بها، و لا أسميها ، أما "بورما" المسكينة المنكوبة بالماركسيين هؤلاء - الذين يستعملون أحيانا تعبير التقدمية و الثورية و التحررية و العلمانية تقنعا و تسترا ، و تفاديا من الصدام المكشوف ، و تغريبا بالشباب الفج - فأحكي لكم قصتها ، و معذرة إلى الثوريين الماركسيين في درة الخليج التي يحلمون بها و يسيل عليها لعابهم ، و إلى الشيوعيين المتسترين في مراكز الإسلام و حصونه و معاقله (و هم فيها أكثر تسترا و تحفظا و مراوغة و نفاقا بحكم الوضع و المنطق و الطبيعة) فانها تفضحهم قليلا في قارعة الطريق . لقد كانت هناك تجارة زاهرة للمسلمين في "بورما" ، و اسهام كبير في صناعة البلاد و بناء الوطن إلى جانب خدمتهم للدين ، فتلاشى كل هذا مع انهيار اقتصاد البلاد كنتيجة طبيعية دائمة للثورة الشيوعية و أصبح البلد سجنا كبيرا يعيش فيه الجمهور ، الذي كان يهتف هؤلاء عالة على فتات الحكم العسكري الشيوعي و صدقاته ، و اليكم اقتباسا مما نقلته "الديلي التلغراف اللندنية" :

" كانت "رنجون" عاصمة "بورما" تعتبر من أجمل المدن
الاسيوية في يوم من الأيام ، و لكنها فقدت اليوم كل جمالها و
بهائها ، و كل أناقتها و روائها ، و أصبحت البنايات الشائخة
نموذجا للقمامة و البلى ، و أما النظافة فهي كلمة لا مدلول
لها ، الأسواق و المحلات التجارية تغلق و تقفر من المساء
الباكر و تخلو الشوارع من الناس إلا الشرذمة القليلة التي
تراها مصطفى أمام دور السينما لمشاهدة الافلام الأجنبية ،
كما يوجد بعض المشاة في الطرقات عابسين وجوههم و قد
كانت هذه الوجوه يرسم عليها الابتسام في ماضي الأيام انها
صورة "بورما" اليوم بعد انتهاء عهد الجمهورية و احتلال عهد
الاشتراكية محله " .

و يصف المعلق السياسي الحالة الاقتصادية في البلاد
فيقول :

قد أنتجت هذه السياسة قلة المواد الاستهلاكية بشكل
فظيع ، و توزع الحوائج الهامة في محلات تجارية شعبية عن
طريق شركة تجارية حكومية و الاسعار مرتفعة جدا ، كما
يحتاج في شراء حوائج عادية إلى انجاز اجراءات رسمية ، و
الذين يضطرون إلى شراء هذه الحوائج من غير هذا الطريق ،

توفيرا للوقت ، و تخلصا من المآزق الرسمية ، يلجأون إلى السوق السوداء .

و بما أن الشيوعية في "بورما" قد قضت على الاحزاب المعارضة ، و أمتت الصحافة التي تملكها الحكومة الآن ، لا يمكن رفع صوت الاحتجاج على جميع هذه الويلات التي يعيش فيها الشعب البورمي و قد واجه تصدير الرز تأثيرا سيئا للغاية من قبل الاشتراكية الحديثة في "بورما" اليوم ، و ذلك ما تركز عليه جل اقتصادية هذه البلاد . و قد كانت "بورما" قبل الحرب العالمية الأخيرة في رأس قائمة البلدان التي تقوم بتصدير الرز ، و لكن نسبة التصدير نقصت فيها حتى بلغت اليوم إلى نصف ما كان عليه من قبل ^١ .

هذا ما حدث بجارتنا ، أما ما حدث بجاراتكم في هذه الناحية بالذات فأرجو أن تتولوا الرد عنها ، و أخاف أن يكون نصيبها أكثر في الحرمان و الحريات المقيدة ، و الحرمانات

^١ إن مسلمي الهند متصلون ثقافيا و دينيا بمسلمي بورما ، و بينهم صلات و أواصر ، و لهم معلومات عنها بمصادره الخاصة فجاء هذا التقرير الأجنبي مطابقا تمام المطابقة بما كانوا يعرفونه ، بل انه لم يصور فظاعة الموقف ، و اخفاق الاشتراكية في هذه البلاد كل التصوير .

المنتهكة ، و الدم المهرق ، فضلا عن الانهيار الاقتصادي و
التدهور الخلقي .

انظروا إلى بعض البلاد العربية الجميلة المؤمنة الآمنة ، ثم
تأملوا ماذا كانت و ماذا صارت ، اسألوا مروجها الخضراء و
حدائقها الغناء ، اسألوا أمطارها و أنهارها ، و ثراتها و
غلاتها ، و نخيلها و أعنابها ، لا تسألوا سوق العلم الذي
كسدت ، و دنيا القلب الذي خمدت ، لا تسألوا حلقات
الدرس ، و حلقات الذكر لا تسألوا الوجوه المشرقة بنور
الايمان ، و الشباب المؤمن ، الغض الطري في الميدان ، فقد
شوهتم هذا الوجه الحقيقي الجميل لبلادكم باسم البطون
الخاوية و الأجسام الضامرة ، باسم الفلاحين و العمال و
الطبقة الكادحة ، و لكن اسألوا التاجر ، و المعلم و الطالب ،
و الموظف ، و الفلاح و الحارث هل هو يعرف لذة الحياة ؟ و
معنى الكرامة ؟ و يذوق طعم الحرية و الأمن العاطفي ؟ هل لا
تزال الثمار و الحبوب ، و الغلات و المحصولات ، ترخر ، و
تفيض ، و تتوفر ، كما كانت تتوفر قبل اعصار الشيوعية و
لفحاتها ، ﴿ فأصابها اعصار فيه نار فاحترقت ﴾^١ و هل هذه

^١ سورة البقرة ، ٢٦٦ .

النار شئ آخر غير الجحود والكفران ، و الكفر بعد الايمان ،
و هل ينعم ابن البلد بخيرات بلده و ثمرات سعيه و جهده ، و
بركات أرضه و سمائه ، كما كان ينعم بها قبل دخول
الشيوعية ، أو قبل ذاك بكثير في عصور العلم و الايمان ، و
الدعوة و الجهاد ، و الصدق و الاخلاص و يقر بها عينا ؟؟

هل هو يأوي إلى فراشه ناعم البال قريير العين ، راضيا
مرتاحا ، آمنا مطمئنا ، بين زوجته الوفية و أولاده البارين ، لا
يخاف على نفسه من طارق يطلب بطاقة الجنسية و الهوية ، أو
شبح يطارده في المنام في صورة مخابرات و بوليس و حكام ،
أو رايات حمراء ترفرف - لا قدر الله - على بلاد الإسلام .

إن وطأة الشيوعية اشد و أنكى و أثقل على الذين
يطلبون الرخاء و الأمن و الاستقرار لبلادهم ، و هم فيه
مخلصون ، من الذين يحرصون على دينهم و ايمانهم ، و هم به
راضون مرتاحون ، فإن نار الشيوعية لا تمس هذه القلوب
المؤمنة السليمة الصادقة ، و لكنها تحرق ظاهر الأرض ، انها
تحرق فقط أموالا يكسبونها و مساكن يرضونها و تجارة
يخشون كسادها ، فاحذروا منها بدافع الاقتصاد و مصلحة
المعيشة و الرزق اذا لم يرق في عيونكم دافع الدين ، و لم
يهمكم أمر الإسلام و المسلمين .

العالم الإسلامي يبحث عن شخصيته

للمعسكر الغربي الرأسمالي شخصية دينية و سياسية و اجتماعية يعرفها الجميع ، و للمعسكر الروسي شخصية أخرى مميزة واضحة الاهداف و المعالم ، و للمعسكر الصيني الشعبي شخصية ثالثة يخاف منها المعسكران ، فهل للمعسكر الإسلامي أو للعالم الإسلامي شخصية دينية و سياسية و اجتماعية ، يعرفها الجميع ؟ شخصية واضحة الاهداف و المعالم ، بارزة الشعارات و الشارات ؟ كلا ! فالامر عندنا يختلف عن هذه المعسكرات المتنافسة ، و الكتلات المعاصرة كل الاختلاف ؟ فان شخصيتنا في الوقت الحاضر شخصية موزعة مبعثرة فيها شركاء متشاكسون ، شخصية مائعة تميل تارة إلى هذا و تارة إلى ذاك ، لا تتمسك بدينها فتتصر ، و لا تنساق مع الغرب المادي كل الانسياق فتطمئن ، لا تقتنع بما عندها من عقيدة و ايمان ، و منهج و سلوك كل الاقتناع ، و لا ترضى بما عند المعسكرات الأخرى من كفر و الحاد ، و عبث و فساد كل الرضا ، و تحاول التوفيق بين تراثها القديم و بين العالم الحديدي ، و من غير أن تفق بالاول كبير ثقة ، أو

تعرف الآخر عميق معرفة ، فتجمع بذلك بين جهلين ، جهل
بتراثها ، و جهل بعالمها ، و لو قدرت دينها ، و عقيدتها و
تراثها حق القدر ، و عرفت عالمها المعاصر بمشكلاتها و أزمتها ،
و فقره و افلاسها ، و يؤسه و حرمانه كل المعرفة ، لفازت
بالحسينين ، فالحكمة ضالة المؤمن حيثما وجدها فهو أحق بها .
و أصبح مبلغ هذه الشخصية الإسلامية من رسالتها
السامية و علمها النافع للإنسانية ، الهادي للبشرية ، كلمات
في كتاب أو هتافات في خطاب ، أو تسبيحات بين المنبر و
المحراب ، أما خارج هذه النواحي الثلاث فلا تجد هناك إلا
شخصية فرنسية أو ايطالية أو صينية .

شخصية واعظ ديني ، و مصلح اجتماعي اذ رأيتها على
المنبر ، و شخصية تاجر ايطالي أو خبير هولندي اذ رأيتها في
البيت أو المكتب أو الديوان .

لا تؤاخذوني أيها السادة ! فهي قصة المسلمين جميعا ،
سواء كانوا في باكستان ، أو تركيا أو المغرب الإسلامي ،
فالعلماء - رحمهم الله - لهم شخصية مزدوجة ، شخصية
الخطيب حين يصعد المنبر ، و شخصية الموظف حين يقبض
الراتب ، و الساسة لهم شخصية مزدوجة شخصية ابن البلد و

المواطن الاول و المناضل البطل حين يواجه الجماهير بكلام فارغ ، و شخصية السياسي الشاطر حين يساوم في عرض البلد و كرامة الوطن ، بل يبيع بلاده أحيانا في المزاد العلني ، و التجار لهم شخصية مزدوجة شخصية الرجل الوادع الرقيق القلب ، و طني النزعة ، اسلامي العاطفة ، حين يمد يده باكياس الجنيهات لبناء المساجد و الرباطات ، و شخصية التاجر القاسي الذي لا يبالي بشيوع الخمر بين الفتيات ، أو ازدياد عدد المدمنين و المدمنات ، و تحبط الشباب في حيرة البطالة و السّامة و الضياع ، اذا كان ذلك باعثا على تضخم ميزانيته ، و ازدياد وارده و صادره .

إن شخصيتنا شخصية مستعارة ، استوردناها من الغرب كما استوردنا الغسالات و الادوات المنزلية ، و هي شخصية ملونة تجمع بين المزاج الفرنسي ، و الطابع الامريكي ، و السمة الانجليزية ، و السلوك الروسي ، و طغت هذه الانواع و الالوان على لونه الإسلامي ، و قضت عليه في بعض الأحيان .

فما هي هذه الشخصية الإسلامية ؟ لندع الحكم في هذا الأمر للقرآن حتى لا يكون هذا الأمر مثار شبهة أو موضوع

﴿ و ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون و رجلا سلما لرجل ، هل يستويان مثلا ، الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعلمون ﴾^١ .

أنظر كيف يبت القرآن في هذه المشكلة بالقول الفصل و الحق الواضح المبين "رجلا سلما لرجل" .

إذاً فتلك هي سمة الشخصية الإسلامية ، و طابعها البارز الشاخص الحي ، الذي تكاد تلمسه بالبنان قبل أن تحسه بالوجدان ، و ما أروع البيان و أبلغ التشبيه حين تبدو حقيقة نابضة يراها كل واحد ، و لو لم يبلغ رتبة العلماء .

و يشرح القرآن هذه الناحية في موضع آخر ، فكأنه يفسر الآية المذكورة تفسيرا ، و يزيد الاجمال ايضاحا و بيانا .
﴿ يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ، و لا تتبعوا خطوات الشيطان ، إنه لكم عدو مبين ﴾

(سورة البقرة)

و الآن انحلت العقدة ، و تذلت العقبة ، و ظهرت المعجزة تملئ ارادتها على من يؤمن و من لا يؤمن !

^١ سورة الزمر

الشخصية الإسلامية اذا شخصية أصيلة مستقلة الخيال
و الوجدان و العمل و التفيد ، تؤثر و لا تتأثر ، تغلب و لا
تُغلب تعلو و لا يعلى عليها .

اذا تقلدها أحد لآخر أيام حياته ، بل لآخر ساعاته و
أنفاسه ، اذا قسنا باعتبار الزمان و تقلدها في بيته ، و منزله و
ديوانه و متجره و عرشه و تاجه ، و رئاسته ، و فخامته اذا
قسنا باعتبار المكان .

فهي شخصية واحدة متميزة تجدها متحمسة نشيطة في
السوق أو النادي كما تجدها قائمة راکعة في زاوية من زوايا
المسجد ، أو ساجدة خاشعة تحت جناح الليل ، و انظر ما
كان جواب القوم حين سأهم هرقل ، و قد دهش بانتصارات
المسلمين المتابعة عن سيرتهم و أخلاقهم ، فقد قالوا: ﴿إنهم
رهبان بالليل و فرسان بالنهار﴾ .

شخصية اختلفت ميادينها و صورها و أشكالها ، و
اتحدت نيتها ، و حقيقتها و غاياتها و أهدافها ، فالعاطفة التي
تحثها على النضال و القتال في أطراف النهار هي نفس
العاطفة التي تحثها على الدعاء و المناجاة ، و التضرع و
الابتهاال ، آناء الليل .

و العاطفة التي تحثها على الاعداد الصناعي و التنظيم
الحربي و الاستعانة بالتكنية و العلم هي نفس العاطفة التي
تحثها على اصلاح ما بينه و بين ربه ، فهي غاية الغايات ، و
سر الوجود ، و أصل الحياة .

إنها ليست شخصية المعتكف في المسجد ، القانع بما
عنده و عند غيره من متاع الدين و العلم و التقوى ، الجاهل
بتيار الحياة و سيلها العنيف و أمواجها الزاخرة الهادرة ، انها
شخصية العالم و المجاهد ، و العابد الزاهد ، و البطل و الفارس ،
و الحاكم و المستول ، و القائد و المعلم ، الزاهد فيما عند
الناس من متاع ، و الحريص على الهداية و التقوى ، فاذا
توجه إلى أسباب التجارة و وسائل الحياة النافعة - لا
الاستقرائية الضارة - لم يتوجه اليها إلا بدافع الدين ، و
مصلحة الإسلام و المسلمين ، كما توجه اليها عدد من أغنياء
الصحابة ، فكانوا سبب قوة الإسلام و شوكته .

إننا لا ندعو إلى هجر مرافق الحياة أو ترك استعمالها فلا
تزال الحاجة ماسة إلى العناية الزائدة ببعض نواحيها الهامة ، و
لا نعارض الأخذ بالأسباب ، فنصينا فيه ضئيل حقير لا يفى
بم حاجات الزمن المتطورة و وسائله المتغيرة ، و انما ندعو إلى

تكوين شخصية إسلامية قوية بارزة تتجلى في دوائر الحكم
كما تتجلى في دور العبادة ، تتجلى في البرلمان ، كما تتجلى
في المسجد ، و تتجلى في أوساط التربية و أجهزة الاعلام كما
تتجلى في كلام الواعظين ، و جهاد المصلحين و جهود الدعاة
و العاملين .

و حينئذ يكون العالم الإسلامي كله كتلة واحدة ذات
شخصية اسلامية مستقلة ، لا يصنع مؤسسة ، و لا يقيم
ادارة، و لا يقف موقفاً إلا و هو وفي بمبادئه ، حريص على
شخصيته ، محافظ على سماته و ملامحه ، متمسك بأهدافه و
غاياته ، مسلم في السلم و الحرب ، مسلم في الغنى و الفقر ،
مسلم في الحكم و الادارة ، مسلم في الاعلام و التربية ،
مسلم في الصناعة و العلم ، مسلم في السياحة و الفن .

مراجعة الحساب

لا ينقصنا المال فعندنا منه سيول داخل الصحراء ، و لا ينقصنا الدم فعندنا شباب غض الالهاب يكاد يتفجر دما ، و لا ينقصنا السلاح ، فالأسواق مفتوحة ما دامت الأيدي طويلة و الجيوب مليئة ، و لا ينقصنا الحضارة و المدنية و الثقافة ما دامت أسبابها متوفرة بل فائضة عن حاجتنا .

و لا تنقصنا العروش و التيجان و أنواع الحكم و ألوان الجاه و السلطان .

و لا ينقصنا الفنيون و المهندسون و المدرسون و المبعوثون ، و الدعاة و المرشدون ، ففي مصر وحدها من تلك الأنواع جنود مجتدة تصدر كل عام إلى البلاد العربية و الافريقية المجاورة .

فما هذا الشيء الذي ينقصنا دائما ؟

إنما ينقصنا فقط الشعور بفداحة الخسارة و عظم الكارثة و التألم الحقيقي على ضعف المسلمين في هذا الحين ، و قلة حيلتهم و هوانهم على الناس .

فهو العامل الوحيد الذي لا يعوّض بشيء ، لا بالمال و

لا بالعلم ، و لا بالسلاح ، و لا بالذكاء و الدهاء ، ان هذه المؤهلات العلمية و الفنية قد تعوّض بعضها البعض ، و قد تسد احدهما فراغ الأخرى لحين من الدهر ، أما اذا لم نشعر بالخسارة مطلقا و لم نتألم لها بتاتا ، أما اذا لم تتوجع قلوبنا على مصيبة العالم الإسلامي كتوجع المرء الذي أهين في قارعة الطريق ، أما اذا لم تستحي ضمائرنا و أحاسيسنا رغم شماتة الأعداء ، و نكاتهم اللاذعة ، و سخرية الأجانب في الصحف العالمية و هوان أبنائنا و شبابنا في العواصم الغربية ، فان هذا الذهب الفاتض في داخل الأرض ، و ان هذه الألوان الزاهية البراقة من الحضارة ، و ان هذه الأسلحة الحديثة المستوردة من الغرب و الشرق ، لا تنفعنا شيئا ، و لو جمعنا بين معونات الكتل السياسية كلها !

اذ قمتَ بجولة قصيرة بين العواصم العربية الإسلامية اليوم و جوّلتَ في أسواقها العامرة ، و شوارعها المزدهجة ، و رأيت صورتها في الليل، وجدتُها كاملة العدة و العتاد ، كاملة الزينات و المباهج و الملذات ، فيها العلم ، فيها الشباب و فيها الم ، و فيها الفن ، و عندها المقدسات ، و المشاعر ، و الشعائر ، بل عندها الحرم ، و عنها زمزم ، و لكن ينقصها مع

كل هذا الذي ذكرناه - و لا مؤاخذه - ذلك الشعور المفقود المطلوب بجراحها و آلامها ، جراحات القلب و الروح و آلام الوجدان و الضمير .

فما هو الحل ، و أين الطريق ؟

الحل أن "نكهرب هذه الطاقات الخاملة ، الجامدة التي لا روح فيها و لا حياة ، إن هذه القوى و الطاقات ، و المواهب و المؤهلات و الوسائل و الأدوات ، كأسلاك الكهرباء ، فكيف ترى اذا عطينا بالأسلاك و نسينا الكهرباء .
اننا بوسائلنا الحاضرة نستطيع أن نحقق ما لم يكن بالحسبان اننا بوسائلنا القصيرة التي ندرجها و نستزيدها نستطيع أن نصنع المعجزات و نأتي بما تدهش له العقول و تحير فيه الألباب ، و لكن بالوسائل الحية ، الوسائل النابضة المتحركة ، الوسائل "المكهربة" .

ان مواردنا و وسائلنا كثيرة متوفرة يفيض بها العالم الإسلامي كله ، فهنا مال ، و هناك أيد عاملة ، و هنا قرائح ، و هناك علوم ، و هنا عدد ، و هناك ذكاء ، و لكنها مع ذلك لا تؤدي وظيفتها و لا تلعب دورها ، و لا تنفع بلاها و أهلها ، و قد يبدو للرائي أن سببه التفرقة و الانقسام ، و

الوحدة تستطيع - اذا تحققت - أن تحل هذه المشكلة !
و ذلك خطأ كبير ، أضلنا أعواما طويلا في متاهة الحيرة
و القوضى الفكرية .

فالوحدة هي أيضا لا تتحقق ، و لا تخرج إلى حيز
الوجود من غير هذا الكهرباء ، من غير هذا العامل الأساسي
الوحيد الذي ذكرناه ، و هو الشعور بفداحة الخطب ، و
وخز الضمير ، و تألم القلب .

و الوحدة التي تقوم على أسس صناعية أو خيالية أو
على أغراض سياسية ، و لا يكون وراءها رصيد من تلك
الطاقة المكهربة أو الطاقة المولدة لن تدوم طويلا و تذهب
حيث ذهبت الوحدات السابقة ، لأنها وحدات ساقطة أو
وحدات ميتة ، أو وحدات عرجاء أو وحدات ذات أرجل
خشبية لا تستطيع أن تقوم ، و اذا قامت حيناً ، فلن تستطيع
أن تدوم .

فانشروا هذا الشعور بالألم في بلادكم كما تنشرون فيها
العلم ، و لَقِّنُوا أولادكم هذا القلق و التوجع ، و الوعي
بالمصيبة العامة و الخسارة الكبرى ، كما تلقنونهم مبادئ
الدراسة الأولية في الروضة و الثانوية .

لا ترفهوا عنهم بالبرامج الراقصة المضحكة ، المسلية
السارة ، بل دعوا قلوبهم يعتصرها الألم ، و يخزها الضمير
الجريح ، لقنوههم أنهم أصيبوا في دينهم ، و شرفهم ، و
شبابهم ، و رجولتهم ، و عليهم أن يغسلوا عن جيلهم هذا
العار ، و يُعدوا نفوسهم الأبية للثأر ، و الانتصار !

ازرعوا هذه الحبوب الكريمة ، حبوب الغيرة و الحياء في
ترابكم ، و اعكفوا على سقيها و ريها ، كما تعكفون على
حدائق النخيل و الأعناب ، و احفظوا غراسها من كل طارئ
و دخيل و غاصب و ناهب ، حتى يستوى على سوقه ،
يعجب به الزراع ليغيب بهم الكفار !

إن الأفلام و الصور و الغراميات ، و الأغنيات ، سموم
تحرق هذه الرياض و البراعم و الزهور ، و لفحات نارية
ستأكلها و تأتي عليها ، و تحيط كل ما صنعناه بعرق الجبين و
كد اليمين في لحات و ساعات ، قولوا لهم أن يصبروا عن
بعض متعتهم - رغم قدرتهم عليها - حين من الزمن ليجنوا
ثمارة الحلوة غير مقطوعة و لا ممنوعة ، زمنا طويلا و عمرا
مديدا .

دعوهم يتألموا من غير نياحة أو بكاء ، و من غير يأس و

تواكل ، دعوهم يذوقوا مرارة الخسارة ، و يطلعوا على عمقها و مساحتها ليعرفوا عظم المسؤولية ، و دقة الموقف ، و خطورة الأوضاع ، و يطلعوا على ما هم مقبلون عليه من ثغرات و فجوات يملأونها و فساد شامل كبير يصلحونه ، و زجاج منكسر يلمون شعثه ، و عصبية جاهلية يقضون عليها ، و وصمات عار يغسلونها ، و وجه شاحب كئيب للمسلمين يبيضونه ، و مجد سليب للإسلام يستردونه .

إن مثل هذه المسؤولية لا يمكن أداؤها بالعيشة التي يعيشها أبنائنا في عواصم العالم الإسلامي ، و معاقل العالم العربي .

إن هذا لا يمكن بتزيين الشهوات أمامهم بمختلف صورها و أساليبها ، و أقسامها و فنونها .

إنها لا يمكن باللهو البرئ و اللهو المباح ، فكيف باللهو الحرام ؟

إنها لا يمكن مع الدعابة و الفكاهة و الهزل ، و حوار المخرجين الفكاهيين الكوميديين ، فكيف يمكن مع خلع العذار و الخروج على آداب الحشمة و الوقار ؟
فالجدة لا يقتضي إلا الجد ، و ما رأيك في رجل يداعب

أهله أن يشتغل بالشعر و الأدب ، و يحكي الملح و النوادر ،
و هو في غمار الحرب، أو على رأسه سوط الجلاد ، لا بل انه
لا يشتغل بمثل هذه الأمور ، اذا تألم أو توجع على شئ خيالي
قد لا يعود عليه بضرر أو نفع ، تلك هي سنة الحياة و طبيعة
الأحياء .

فلنقف عندها ، و لنراجع حساباتنا ، و لنكشف أوراقنا
حتى نعلم ما صنعناه أمس بجيلنا ، و بلادنا ، و أمتنا ، و ديننا ،
و تاريخنا ، و ما نحن به غدا فاعلون ؟

الدرس الأول من حرب رمضان

الفارق بين حرب حزيران و حرب رمضان كبير !
انه فارق بارز تراه بالعيان بل تكاد تلمسه بالبنان ، انه
لا يخفى على الحاقد الأعمى فضلا عن البصير الواعي .
هذا الفارق يتخلص في ثلاثة جوانب :

١. تصحيح الشعارات و الأهداف أو تصحيح المسيرة .
٢. الروح المعنوية العالية في الشعب و القوات المسلحة .
٣. لذة الثأر و الحرص على غسل العار .

و لنقارن - مليا بين معركتين حتى نتوصل إلى نتائج
صحيحة بعيدة عن الخطأ و الانحراف .

كانت الشعارات في حرب حزيران "شعارات جاهلية"
اذا توخينا الایجاز ، أو "فرعونية" اذا وضعنا النقط على
الحروف و وضعنا أصابعنا و بصماتنا على موضع التهمة و
نقطة الداء .

و القصة معلومة لا تحتاج إلى اعادة و تكرار ، و قد بدأ
حتى بعض الكتاب الثوريين و التقدميين و الاشتراكيين
يعترفون بذلك بمراى من العالم و مسمع .

أما في الحرب الأخيرة فقد تغيرت تلك الشعارات و
الأهداف و المتنافسات إلى حد كبير ، أو تحففت حدتها ، و
زالت هيبتها و سلطانها من نفوس الشباب و الزعماء و
القادة ، و العمال و الفلاحين ، و قل استعمال المصطلحات
الثورية ، بل هجرها بعض الكتاب و اشمأزوا منها ، و حلت
الذخيرة الحية محل ذخيرة الكلام ، و غلبت الرزانة ، و
التفكير ، و الايجابية على الارتجالية ، و التهور ، و الطيش ،
الذي اتسم به العهد البائد المظلم .

و كان الفرق بارزا هائلا في الروح المعنوية .

فبينما كان الجندي يحارب في حيزان بروح باردة من
غير عاطفة أو حماس ، وكانت القيادة الحربية غارقة إلى آذانها
في اللهو و الترف ، و مناورات العزل و النصب ، و القتل و
الاعدام ، أو نائمة تغط في نوم عميق لم تدرك أمرها ، و لم
تتبين رشدتها إلا في : "ضحى الغد" ^١ حين سطعت الشمس على
خيانة سافرة ، و أمة مهزولة ، و رؤوس منكسة ، و عيون
تستحي من مواجهة أجنبي و ضحكة في وجه مائة مليون عربي

^١ قالها دريد بن الصمة :

أمرتهم أمري بمنعرج اللوى فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد

مقابل دولة صغير مساحتها أقل من مساحتها أقل من مساحة مصر بنسبة واحد في الأربعين^١ و عدد سكانها أقل من سكان القاهرة ، أما في جهاد رمضان فقد أثبت الجندي العربي و الجندي المصري و السوري بوجه أخص بطولته الفذة و تجرده عن الهيبة و الرعب ، و صموده أمام العدو ، و ثقته بالله ، و حنينه إلى النصر ، أو إلى الشهادة ، قد غمرت قلبه لذة الثار ، و دفعته روح الانتقام إلى بذل المهج و الأرواح ، و كانت النتيجة أنه استرد شرفه المفقود ، و كرامته الضائعة ، و لو لم يسترد أراضيه المغصوبة و حقوقه المهضومة كاملة .

و السؤال الضخم البارز الذي يحمل ألف استفهام : لماذا وقف هذا الانتصار الرائع الذي أحرزته القوات العربية المؤمنة في "سيناء" و "الجولان" عند هذا الحد ، و كيف تدخلت فيه أبعاد أخرى عكرت نشوة الانتصار بعد ما طابت و لذت ، و أفسدت ساعة النصر بعد ما حلت و صفت ، و الجواب بسيط :

"على قدر أهل العزم تأتي العزائم"

^١ مساحة اسرائيل نحو ثمانية آلاف ميل مربع ، أما مساحة مصر فهي أكثر من ثلث مليون ميل مربع .

إن هذا النصر العسكري جاء بحساب المد الايماني ، إن
الرواسب التي ورثناها من زعمائنا "الذين أغرقونا في الخزي
ظلما و عدوانا" ^١ رواسب القومية العلمانية و الاشتراكية و
الثورية هي التي أفسدت علينا هذا الفتح المبين و النصر الرائع
القريب ، اننا لم نتطهر بعد (رغم كل ما نادينا به من تصحيح
المسيرة ، و المتغيرات النفيسة ، و الحوار المفتوح) من علائق
هذا "الراث المشنوم" - و لا مؤاخذه - و شوائبه و أكداره
و أقذاره ، اننا حررنا أنفسنا من بعض ضغوطه أو سمومه و لا
شك ، و لكن لم نحرر نفوسنا كليا من سيطرته ، و نفوذه ، و
فتنته .

و صوت القرآن يهتف بنا منذ زمان :

﴿ يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة و لا تتبعوا
خطوات الشيطان ، انه لكم عدو مبين ﴾ ^٢

إن وحدة العرب الرائعة التي كسبت أعجاب العالم كله
في هذا الوقت العصيب ، و سلاح البترول الذي كان أقوى و
أمضى أكثر من المأمول (و قد كان للدول المصدرة للبترول و

^١ من تعبير أنيس منصور في جريدة "الشباب العربي" بالقاهرة .

^٢ سورة البقرة ، آية ٢٠٨ .

السعودية بوجه خاص في هذا المضمار موقف شجاع حكم
يشكر و يذكر) حقائق مكشوفة قد تراها رأي العين ، و قد
تنوه بها عن حق ، و لكن هناك -رغم كل ذلك- حقيقة
غيبية أخرى فوق سائر هذه الحقائق و الاعتبارات ، و القوى
و الطاقات و تقلبات الهزيمة و النصر ، و المد و الجزر ، و
تقديرات الخبراء و العسكريين ، و دسائس المتآمرين الحاقدين،
و صلف المتكبرين و المغرورين.

انها ارادة الله ، و هي مع المؤمنين الصادقين الصابرين
الذين آمنوا بالله وحده ، و كفروا بالجاهلية القديمة و الحديثة
بجميع أنواعها و ألوانها ، و ضروبها ، توكلوا على الله
فقطعوا رجاءهم عن أعداء الله رغم ما تربطهم بهم من
صلات و حاجات و مصالح ، (و الدنيا كلها حاجة و سؤال
و عليها أساس العمران) .

و نحن نرجو أن هذا النصر ستليه - ان شاء الله -
انتصارات أخرى في سائر المجالات العسكرية و الاقتصادية اذا
استقمنا على طريقة الايمان ، و الرجوع إلى الله ، و الاقلاع
عن المعاصي ، و البراءة من كل حول و طول ، و الابتعاد عن
الشعارات القديمة التي كانت سبب نكبتنا و ذلتنا في حزيران

عام ١٩٦٧ م .

لقد رجعنا إلى الله شبرا ، و أعرضنا عما يسخطه و
يجلب غضبه قليلا ، و أقبلنا اليه نستمد منه العون في الشدة و
الضراء و حين البأس ، و حاربنا بغيره الايمان و عاطفة الايمان
و حب الموت ، و كراهية الحياة ، فمنحنا الله ذلك النصر ،
و أكرمنا بالعزة و رفع درجتنا بالشهادة و رفع ذكرنا في العالم
بعد ما أسأنا إلى سمعتنا و لوثنا كرامتنا بأيدينا ، و جلبنا سخط
الله بأفواهنا ، و بذئ كلامنا ، و غرورنا و تبجحنا و
سفاهتنا .

فالدرس الأول من حرب رمضان أن نحرر أنفسنا بصورة
قاطعة و جملة واحدة من أسباب الخذلان و شعاراته ، و
علائقه و شوائبه و رواسبه و مخلفات فكره ، و نطهر نفوس
أبنائنا و بناتنا منها كما يطهر أحدنا ثيابه من الوسخ و الدنس .
لماذا هذا الاستحياء و لماذا هذا الاحجام يا قوم و إلى
متى ! إن الله معكم ، و الشعب العربي المسلم من ورائكم ،
و المسلمون كلهم جنودكم ، فسيروا على بركة الله و على
هدى من القرآن ﴿ و أعدوا لهم ما استطعتم من قوة و من
رباط الخيل ترهبون به عدو الله و عدوكم و آخرين من

دونهم لا تعلمونهم ، الله يعلمهم ﴿ و ﴾ ما تنفقوا من شئ
في سبيل الله يوف اليكم ، و أنتم لا تظلمون ﴿ ^١ .

نعم ، ان مجرد الايمان السلبي لا يكفي أبدا .

فلا بد معه من رفض للأوثان الظاهرة و الباطنة ، أوثان
الشخصيات و الشعارات و الضلالات ، و لو راقت الأسماء و
حسنت الواجهات !

ان الإسلام الخليط مع الجاهلية أو الخليط مع الظلم أو
الخليط مع النفاق و الشقاق لا يستطيع أن يغير في الوضع قيد
أنملة ، فقد قال الله تبارك و تعالى يصف هذا الطراز الرفيع
من المؤمنين ، الذين أخلصوا دينهم لله ، و يضمن لهم الأمن و
الايمان و السلامة و الإسلام .

﴿ الذين آمنوا و لم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم
الأمن و هم مهتدون ﴾ ^٢ .

و بعد هذا الإسلام الخالص ، الإسلام الكامل ، الإسلام
القوى ، الإسلام النقي ، الإسلام الحي ، الذي يمشي على
قدميه ، و يدفع براحتيه سوف نحتاج إلى "تصنيع" تصنيع

^١ سورة الأنفال ، الآية ٦١ .

^٢ سورة الأنعام ، آية ٨٢ .

كامل عام في سائر المجالات الحربية ، "الممكنة" وقد يقول
قائل : هذا محال ، فالحرب حرب العلم ، و الغرب متفوق
علينا في هذا المضمار قرونا طويلة ، فكيف نستطيع أن نلاحقه
في سنين و أعوام .

و القرآن قد سهل لنا هذه المهمة الصعبة أيضا بقوله
﴿ما استطعتم﴾ فلم يبق عندنا مجال للعذر ، و موضع للشك
و التأويل ، و المكابرة و الجدل .

﴿و أعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ الآية .

ان مثلنا في هذا كمثل طفل صغير بدأ يمشي ، و يخطو
على ركبتيه ، فيحمله الأب أو تحمله الأم على المشي على
رجليه و هو غير قادر عليه ، فيحاول الطفل أن يمشي و تتعثر
خطاه ، فيدركه الأب و يمسك بيده بل يضمه إلى صدره حبا
و حنانا ، و يباركه على أنه فاز في الامتحان ، و مشى كما
يمشي الرجال ، فيظن الولد انه فاز في الامتحان ، و مشى كما
يمشي الرجال ، و يظن .. أنه بدأ يمشي فعلا ، و هكذا أمر
هذه الأمة بالنسبة إلى ربها ، فلا يكلف الله نفسا إلا وسعها ،
انه يريد منها فقط أن لا تقصر في الواجب ، و لا تتهاون في
العمل ، و لا تدخر وسعا فيما قدرت عليه نعم ، انها لا

تستطيع الآن أن تصنع المعدات الحربية المعقدة و الألكترونية و لكن من منعها من أن تصنع البندقية ، و القنبلة ، و المدفع ، و الطائرة ، و الدبابة، و هي ليست في تلك الدرجة من التعقيد، انما هي تحتاج إلى وضع خطة حكيمة مدروسة و سهر و صبر لمدة ايام عن بعض ما لذ و طاب من الطعام و الشراب ، أو في تعبير آخر ، هذا المستوى الرفيع من الحياة ، و أعتقد أن ذلك ليس فوق طاقة بشر ، و لا يخرج عن حدود الامكان ، بل ان الأمة المسلمة مكلفة بها أصلا و رأسا و أساسا ، فلا تستطيع أن تنهرب من هذه المسئولية و الايثار و التضحية و "الصناعة الحربية" بأي حال من الأحوال ^١.

عن علي عليه السلام قال : كانت بيد رسول الله - ﷺ - قوس عربية ، فرأى رجلا بيده قوس فارسية ، قال : ما هذه ؟ ألقها ! و عليكم بهذه و أشباهها ، و رماح القنا فانها يؤيد الله لكم بها في الدين و يمكن لكم في البلاد .
(رواه ابن ماجة)

أنظر كيف فضل الرسول - ﷺ - سلاحا من صنع الأيدي العربية على أيدي العدو مع العلم بأن الفرس كانوا متقدمين في الصناعة الحربية ، و اشارته بأن الله ينصركم عما تصنعون بأيديكم من آلات الجهاد و معداته و ينزل عليها بركته ، و ان تضاعلت بجانب سلاح =

ان أبطالنا المغاوير و صناديدنا المشاهير في تاريخ

=العدو - و معداته ، لأنكم تنتصرون بعون الله و قوته ، لا بقوتكم و قوة أعدادكم .

و عن عقبة بن عامر - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : ان الله تعالى يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة : صانعه يحتسب في صنعته الخير ، و الرامي به ، و منبله ، و ارموا و اركبوا ، و أن ترموا أحب إلى من تركبوا ، كل شئ يلهو به الرجل باطل إلا رميه بقوسه ، و تأديبه فرسه ، و ملاعبته امرأته ، فانهن من الحق .
(رواه الترمذي ، و ابن ماجة)

و عنه قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : ستفتح عليكم الروم و يكفيكم الله ، فلا يعجز أحدكم أن يلهو باسمه .

رواه مسلم (مشكاة المصابيح كتاب الجهاد "باب اعداد الآلة") .
و عنه قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - و هو على المنبر يقول : و أعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، الا ان القوة الرمي ، ألا ان القوة الرمي ، ألا ان القوة الرمي (رواه مسلم) و قد فسرها الزمخشري بكل ما يتقوى به في الحرب و قال البيضاوي : لعله انما خصه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالرمي لأنه أقوى ، و تأمل في ما هذا المعنى من توسع ، و ما فيه من شبه بين سهم أو صاروخ في ضرب الأهداف بسرعة فائقة و دقة متناهية مع العلم بأن الصاروخ أقوى ما وصل اليه التقدم العلمي في مجال الصناعة الحربية !!

الإسلام، حاربوا أعداء كانوا أكثر منهم جمعاً و سلاحاً ، و
عدة و عتاداً ، فالتصروا ، لماذا ؟

لأنهم حققوا أمر الله و لم يدخروا وسعاً في العدة
للحرب في حدود امكانياتهم ، ان امكانيات العالم الإسلامي
اليوم واسعة ضخمة ، فهو يستطيع أن يحقق بها الكثير ، بل
يجب عليه أن يأخذ بأسباب القوة أكثر مما أخذوا ، و يصنع
أكثر مما صنعوا ، بحكم وسائله و امكانياته ، أما النصر فهو
من عند الله ﴿ و ما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ﴾^١
﴿ سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم
ينزل به سلطاناً ، و ما واهم النار ، و بنس مثوى الظالمين ﴾^٢
أما اذا أرقنا الدماء بسخاء و ضربنا أروع الأمثلة في
البطولة و الفداء ، و ما أخذنا للحرب أهبتها ، و لم نصنع ما
نستطيع أن نصنعه من آليات الحرب و معداتها ، فمعنى ذلك
أننا - رغم كل بطولة و تضحية - ما استوفينا شروط النصر.
إن بلاداً شرقية تحررت منذ ربع قرن من الزمان و
وصلت إلى مستوى الاكتفاء الذاتي في بعض الصناعات

^١ سورة آل عمران .

^٢ سورة آل عمران .

الثقيلة و المعدات الحربية الهامة، و قد استفادت منها فعلا في معاركها ، فعلىنا أن ننفق هذه السيول المتدفقة الفائضة في جوف الصحراء^١ ، و الطاقات البشرية و المؤهلات الانسانية في عواصمنا الكبرى و حقولنا الخضراء في هذا المجال الحيوي الحساس ، و نصنع مشروعا دقيقا لصناعة القاذفات و المدرعات و المعدات الاخرى ، و أعتقد أن ذلك ميسر ، ان شاء الله في زمن غير بعيد ، اذا أخذنا الأمر بطابع الجدية و العمل الصامت الدؤوب .

^١ نشرت صحيفة "الأوبزرفر" اللندنية بقلم متخصص في الشؤون النفطية في عددها الصادر في ٤ تشرين الثاني مقالا خطيرا جاء فيه " أقل التقديرات تدل على أنه سيكون لدى العرب عام ١٩٨٠ ضعف الذهب و احتياطات أرصدة العملة الأجنبية التي تمتلكها الولايات المتحدة ، و هذا التقدير البسيط ، يدل على ان زيادة الفائض العربي سيساوي ربع مجموع الاستثمارات العالمية كلها ، كيف سيوزع هذا الفائض العربي ، في أوروبا أو أمريكا أو دول أخرى ، و كيف سيستعمل العرب القدرة المالية المتاحة لهم ، هو الأمر الذي يشغل بال أوروبا ، و يجعلها في تنافس مع الولايات المتحدة .

تري أليس عندنا مجال لاستثمار هذا الفائض العربي و القدرة

المالية الهائلة ؟؟

إن التضحية التي قدمها الجندي العربي في هذه الجولة كبيرة و بسالته في الحرب عظيمة تستحق كل تحية و تقدير ، و اكبار و اجلال ، و ان التناسق الفسي الذي ظهر في العمليات الحربية يبعث على التفاؤل ، و ان دور النفط في الصفوف الخلفية كان رائعا كبسالة الجندي في الصفوف الامامية فيا ليتنا أضفنا إلى ذلك كله جانب "التصنيع" الذي لا بقاء لأمة بدونهُ^١ .

و أن تكون إلى جانب حقنا في الأمن و الحياة و تلهفنا

^١ كتب صحفي عربي الأستاذ عبد الله الجابري يصف دور البترول في هذه المعركة : "كان سلاح البترول هو الذي حال بيننا و بين الهزيمة ، و كان هذا السلاح هو الذي حمل "كيسنجر" إلى الرياض و القاهرة .. و غدا عندما نصبح أكثر قوة و عندما يتحول بترولنا إلى مصانع و مزارع و معاهد للأبحاث ، و مراكز للدراسات ، ستقضي المصلحة الأمريكية بأن تنال كل حقوقنا . و يتنافس الأمريكيون و الصينيون و اليابانيون و الأوروبيون على استقطابنا كشركاء و ليس كعملاء ، في هذه المرحلة لن تكون سيادتنا على أرضنا محل الشك ، و لن نطلب ضمانات أمريكية أو سوفيتية بعدم المساس لهذه السيادة كما فعل امبراطور اليابان عام ١٩٤٥ ، في هذه المرحلة سيعترف بنا كأمة ذات سيادة ، و يطلب منا الاسهام بدور فعال في حمل عبء القيادة العالمية".

إلى الجهاد والنضال ، و إلى جانب إيماننا وعقيدتنا ، و
دعوتنا و تراثنا ، و قيمنا و أقدارنا ، قوة حربية ضاربة في
حدود امكانياتنا و طاقاتنا ، و وسائلنا و مواردنا ، و هي
بالطبع واسعة كبيرة ، و هنالك يتغير لنا الموقف ، و يتم لنا
النصر و نستغني عن العدو ، و نتحرر عن ضغوط الكتل
السياسية و نفوذها و مصالح الدول الكبرى و مؤامراتها ﴿ و
لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله ﴾ و هنالك يأتي نصر السماء
يكمل ما نقص فينا من عدة و عتاد ، و ما فاتنا من آلات و
معدات ، و ما لم نستطع انجازَه لضيق الوقت أو لضيق المورد ،
أو لضالة المعونة الخارجية ، و المساعدة الفنية و لكن الله قادر
على جعل الضعف قوة و الذل عزة ، و الهزيمة نصرا و تمكيننا
و فتحا مبينا ، كما فعل بأجدادنا الأولين و أبطالنا الغر الميامين
من الصحابة و التابعين إلى محمد الفاتح و صلاح الدين ﴿ و
يومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء و هو العزيز
الرحيم ﴾^١ .

^١ سورة الروم : ٥ .

من وحي الزمان و المكان

المكان : بيت الله الحرام ، و مسجد النبي عليه و على
آله و أصحابه الصلاة و السلام !

و الزمان : زمن التشريق ، و التهليل و التحميد و
التكبير ﴿و لتكبروا الله على ما هداكم و لعلكم تشكرون﴾ .
فليكن حديث اليوم حديث المجالس و المخافل ، و
النوادي و الجامع ، و ليكن ذلك الشغل الحلو الجميل ، الشغل
الشاغل للمسلمين أجمعين ، لأنه حديث الحبيب و القريب ،
حديث الحب ، و الوفاء ، و الصدق و الولاء ، حديث
يشحن القلوب الفارغة ببطارية الايمان ، و يشعل الجامر
الخامدة الباردة بشعلة الحب و الحنان ، و يزكي مشعل النور
للمتخبطين في ظلام المذاهب و الشعارات ، و العصبيات و
الجاهليات ، مهما حسنت أسماؤها و راقى ألقابها ، و تنوعت
مظاهرها و أشكالها .

فهذي الليالي كلها أخوات

﴿و لعبد مؤمن خير من مشرك و لو أعجبكم﴾
و لئن رضي الجاحدون ، و المنكرون ، أو المفتخرون

بلقيمات لفظتها موائد الغرب فان الله لا يرضى لعباده الكفر،
انه يرضى بأن يرى حملة ديبه ، و الأمناء على رسالته
يتطفلون على فتات الطعام و يقفون كالايتام على مأدبة
اللثام!

و يتكرر الحج كل عام ليجدد ما طرأ على المسلم من
بلى ، و يصلح ما أصابه من زيغ ، و ما اعتراه من خلل ، و
ما لحقه من نقصان ، و ما لصقه من عار ، و ما جف فيه من
منابع الايمان و اليقين .

انه يقف بنا كل عام أمام بيت الله العتيق ، و في عتبات
الحرم و فسحات المشاعر ، لتذكر ما ينساه العبد المذنب ،
القاصر ، العائر ، المكدود ، في زحمة الحوادث و الاشغال ، و
خضم المحيط الهادر من أضواء الحياة و ضوضاءها ، و ضجيج
الحياة و عويلها ، و لمعان المادة و بريقها ، لتكشف الغشاوة
عن بصره ، و لتبين معالمه و مقاصده و مراميه البعيدة في
ذلك الجو المكفهر الملبد بالغيوم ، فيعرفها حق المعرفة ، و يثق
بها كل الثقة، ثم يعود منها - و قد قضى مناسكه و أوفى
نذوره - بإيمان جديد قوي غالب لا يعرف الهزيمة و
الانكسار، و يواجه الحقائق المرة و التحديات السافرة ليقضي

عليها و يرد كيدها إلى نحرها ، لا ليحني لها هامتها استصغارا
لنفسه ، أو يأسا من روح الله و نصره ، ﴿ فإنه لا يأس من
روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ .

إن الحج لا يحارب تلك الرذائل التي تلاصقت بالنفس
البشرية رذيلة رذيلة و لا يجهد نفسه في القضاء على علاتها
منفصلة ، بل يقضي عليها - اذا صحت نية المؤمن و سلمت
طويته - جملة واحدة ، انه يكتسح سائر الاحراش و النباتات
السامة في النفس البشرية كسيل جارف قوي لا يمنعه شيء ،
ثم يجعلها صالحة للغرس ، و الري و النمو ، و الازدهار .

إن الانسان الذي يخمد ، و يتوانى ، و يتقاعس عن
العمل لأجل بيئته الفاسدة ، و شرورها ، أو ينحرف عن
طريقة السوي بشعارات ضالة تأخذ بلبه ، أو يتبع هواه لترفه
و تنعمه يجد في هذا المكان ما يجدد نشاطه و يقوى همته ، و
يصحح مسيرته و يقضي على طغيانه و غفلته ، و يذكر أن
عباد الله ليسوا بالمتنعمين ، بل انهم من المجاهدين الصابرين ،
الصامدين ، و الحج بما فيه من وقوف و قيام ، و غرام و
هيام ، و تنقلات متتابة ، و رحلات مضيئة و تمثيل لنوادير
التضحية و البطولة و الفداء ، و استجابة لهاتف الغيب ، و

تلبية لرب البيت ، و خضوع للامر ، لا يدع له فرصة للراحة
و الاستجمام ، و القيام في غير مقام ، شأن المحب المتيم الذي
كابد الهجر و الفراق ، و برح به الشوق ، و كاد الحب يأخذ
بلبه و يتركه يهيم على وجهه ، دواؤه أن يلمح حبيبه و لو
من بعيد ، و يسمع حديثه و لو من وراء حجاب ، و يسمح
له بالاطراح على عتبته و الابتهاال على بابه ، و النياحة على
نفسه و التلويح بلوعة قلبه و كبده و لو لساعات و أيام من
جملة العام .

إن المسلم اليوم لم يفقد العلم ، و لم يفقد المال ، و لم
يفقد القيادة و لم يفقد النظام - رغم أهمية لكل من هذه
النواحي - بمثل ما فقد القلب الولوع الحنون ، القلب المشرق
العامر بالايمان ، القلب النابض الحي ، القلب الذي يتحرق
على خسارة الروح و الضمير أكثر مما يتحرق على خسارة
التصدير و التوريد .

إن هذه المناسك التي يؤديها المؤمن في الحج ، و
الوقوفات التي يقفها في حرمه و في مشاعره ليست أشكالا و
بطقوسا مجردة من كل روح ، خالية عن كل معنى ، انها
بطبيعتها تبعث المؤمن بعثا جديدا ، و تمنحه قسطا جديدا من

الحياة ، و تنقذه من أوزار المجتمع المادي الضيق المرسوم الذي عاش فيه زمنا طويلا ، فألفه و لم يرض عنه بديلا ، كالحشرات التي تألف الآجام و الأحراش و الأوحال و الجداول و الأنهار فلا تريد أن تخرج من عالمها الصغير المألوف ، فاذا بالحج يحطم سائر هذه الأغلال و الأثقال ، و يهدم سائر الحدود و السدود و القيود ، و اذا هو يقف به - من غير درس طويل و تربية طويلة - في عالم جديد يختلف عن عالمه القديم الشاحب الكثيب كل الاختلاف كما يختلف عالم الجنين الصغير عن هذا العالم المادي الكبير .

إن البيت العتيق هو - في الواقع - محور المسلم الذي تدور حوله رحي الحياة ﴿ و اذ جعلنا البيت مثابة للناس و أمنا ﴾ فلهم أن يسيحوا في الأرض ، و يبتغوا من فضل الله و لهم أن يشتغلوا بما طاب لهم من أشغال و وظائف و أعمال و خدمات و نشاطات و جهود في الحدود التي رسمها الإسلام ، و لكن عليهم أن يلجأوا أخيرا و في نهاية الشوط إلى هذا البيت ، كالطفل الصغير الشريد الذي يرقى إلى أحضان أمه و كنف أبيه أو كالعبد الآبق على عتبة سيده ضارعا إلى رب البيت نائحا تمرده و عصيانه ، و جحوده و كفرانه ، و غفلته

و نسيانه .

إن التحديات السافرة التي يواجهها المسلمون في هذه الأيام تتطلب أن يجددوا صلتهم بالبيت ، لا على صورة تقاليد جامدة ، و أشكال فارغة و مظاهر جوفاء بل على صورة مصدر حياة ، و منبع قوة ، و معين لا ينضب من تجديد الصلة بالله و الرجوع اليه في السراء و الضراء ، و الشدة و الرخاء.

إن جميع النشاطات التي نزاولها ، و الجهود التي نبذلها ، و المؤسسات التي نقيمها ، و البنيات التي نشيدها ، و الجمعيات التي نؤسسها ، و المخططات التي نصممها ، خطيرة و هامة ، و نافعة و مباركة، لا ينكر فضلها ، و لا يستهان بقيمتها ما دامت متصلة ببيت الله الحرام ، ما دامت ترى فيه بقاء حياتها ، و ايمانها و نجاتها ، و ما دامت تقوم أساليبها و مناهجها على هديه و نوره و ما دامت تعظم شعائر الله ﷻ و من يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب ﴿ ١ ﴾ .

أما اذا غرطنا مظاهر الحياة الخلابية التي تولدت من استعمال الآلة و الأداة ، أما اذا بهر أبصارنا تقلب الذين

^١ سورة الحج الآية : ٣٢ .

كفروا في البلاد ، و بدأنا نطمع فيما آتاهم الله من زخارف و
مباهج و ملذات ليعذبهم بها في الحياة الدنيا و تزهق أنفسهم
و هم كافرون .

أما اذا استصغرنا شأن البيت العتيق - لا سمح الله - و
ازدريناه ، و فضلنا عليه ما أحدثناه من طوابق و شقق و
فنادق فاخرة ، مجهزة ، مزودة بأحدث التسهيلات ، و وسائل
الترف و النعيم ، أما اذا احتقرنا رسالة الحج مقابل نظريات
باطلة ، و أفكار سامة ، و آداب فاسقة ، و حياة ماجنة
جاءت إلينا من الغرب ، أما اذا أصبحنا نحاكي موضوعاتهم و
تقاليدهم و آدابهم ، و سخافاتهم و نتساقط عليها كما
يتساقط الجائع و المحروم على المائدة ، فمعنى هذا أن صلتنا
بهذا البيت العتيق قد ضعفت ، و أننا بحاجة قبل كل شيء إلى
أن نجدها ، و نغذيها ، و نحذب عليها ، و نحرسها من كل
سوء ، و نتخذ لذلك ما يلزم من تدابير حكيمة ، و اجراءات
حازمة و معالجة دقيقة للقضايا ، و مراعاة لائقة بالطبائع و
الحاجات ، و الأذواق و المعارف .

فذلك وحده هو الطريق الآمن المضمون إلى المستقبل
الزاهر السعيد الذي أصبح حلمًا لدى الشباب المسلم منذ

زمن بعيد ، فهل يتحقق هذا الحلم و هل تكون حجتنا
هذا العام افتتاح عهد جديد ، و نواة انقلاب في التفكير و
الميول ، و الرغبات ، و الاشواق ! و هل نحن مستعدون
لتصحيح مسيرتنا من الفوضى إلى الانسجام ، و من التخبط
في الظلام إلى نور الايمان و عدل الإسلام ؟

حسن البناء في محراب التاريخ الإسلامي

هذا الاسم الذي دوى في بلاد العجم و عواصمها ،
كما دوى في القاهرة الزاهرة و دمشق الفيحاء ، و اعترف
بلمعانه الأصدقاء و الأعداء على السواء ، هذا الاسم الذي
كسب حامله ود الشبان و الشيوخ و الرجال و النساء في
العالم الإسلامي كله من غير استثناء .. هذا الاسم الحبيب لا
يزال غرة في جبين التاريخ الحديث .

أجل - أيها الامام الشهيد - قرعنا في رحاب الخلود
فإن وراءك جيلا جديدا انشأته على الحب في الله و البغض في
الله .

جيلا مؤمنا مسلما لا يقف في أعتاب الرؤساء و الوزراء
و ولائم الملوك و الأمراء و لا يبالي بسخط حاكم أو سلطان
في شرع و دين و قضية من قضايا الإسلام و المسلمين ، و لا
يخاف في الله لومة لائم .

﴿ إنه في الصلح و السلم غزال الحمى و في الحرب و
النضال أسد الشرى ﴾ .

و هذا الجيل الجديد المثقف الواعي ، القوي الأمين ،

الأغر الأبلج ليس إلا - مآثرة من مآثرك ، و ثمرة من ثمرات جهادك ، و نتيجة من نتائج حبك و اخلاصك .

و نحن نقدمه - في هذه اللحظة الخالدة - إلى روحك الطاهرة التي ترفرف بأجنحتها الشفافة في عليين فطب عيشا و نم هادئا مطمئنا فان زرعك قد أነع و أثمر رغم الظلم و الظلام .

انه قد طال الليل و اقترب الفجر و ها هي تبشيريه قد بدت في الافق ، و لو أنكروا المنكرون .

انها ضريبة الحب ندفعها اليك - أيها الامام الشهيد - من وراء البحار راضين مسرورين ، فقد ملأت القلوب إيمانا و عرفانا ، و ملأت الحركة الإسلامية حيوية و نشاطا و حولت جسمها البارد قلبا ثائرا ، و دما فائرا ، انك أيقظت النائمين ، و نهيت الغافلين و الحالمين ، و جعلت من أمة هامدة خامدة أمة كلها حركة و نشاط و عمل و جهاد ، فاذا العالم يرى دعوة محدودة تنبعث من الاسماعيلية - تلك النقطة الحساسة المباركة في أرض النيل - ثم لا تلبث أن تغطي أشعتها العالم العربي كله و العالم الإسلامي بأسره .

و ذلك كله يعود إلى شيء وحيد .

و هو اتصالك بالله ، و روحك المشرقة ، و قلبك
العامر الكبير ، و تجاربك الواسعة في مجال الدعوة ، و صلتك
الشخصية بال جماهير ، و جمعك بين الدنيا و الدين و بين
الشدة و اللين .

إن سر نجاح الامام الشهيد في مجال الدعوة هو السر
الذي كشفه القرآن الكريم حين صور جانباً عظيماً من حياة
النبي ﷺ فقال ﴿ لو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من
حولك ، فاعف عنهم و استغفر لهم و شاورهم في الأمر فاذا
عزمت فتوكل على الله ، ان الله يحب المتوكلين ﴾^١ .

و ما أحوجنا اليوم إلى هذه الناحية الهامة ، ما أحوجنا
اليوم إلى الحلم و الصبر ، و الغفران ، و الحب ، و العرفان
بالجميل ، و الأخوة الندية العذبة ، و أيم الله انها الناحية
الوحيدة التي فقدناها و فقدنا معها الخير كله و البركة كلها .

كان العدو اللدود و الخصم العنيد يأتي حسن البناء لا
يريد به إلا الشر ، و لا يضر له إلا الكيد ، ثم يعود محباً
مأخوذاً بجمال إيمانه و نور وجهه و حسن سريره .

و لا أبالغ اذا قلت : ان مصر لم تجتمع على رجل مثل

^١ سورة آل عمران الآية : ١٥٩ .

ما اجتمعت على حسن البناء ، و لم تحب أحدا مثل ما أحبت
حسن البناء ، و لم يدم حبها لأحد مثل ما دام له ، و كان حبها
له طواعيا لا دعائيا ، و تلقائيا لا صناعيا ، حب ينبع من قرارة
النفس ، و لا يفرض عليها من الخارج ، حب تباركه الملائكة
و لا تمسه الشياطين ، و توحيه نوازع الخير لا نوازع الشر .
هذا الحب السماوي العلوي ، الشفاف ، الطاهر ،
العذب الندي كان نصيب حسن البناء منذ نعومة أظفاره ، و
ياله من نصيب !

و السمة الثانية التي امتاز بها الامام هو جمعه بين جوانب
مختلفة من الوعي و الثقافة كأنه التقت فيه شخصيات مختلفة
تمثل وجهات مختلفة و ذلك كله في اطار عام واحد ، اطار
الدعوة و الجهاد و الاخلاص في القول و العمل ، فكان
متضلعا بالروح الدينية عارفا بروح العصر ، خبيرا بمتطلبات
الجيل و فراغ النشء الجديد ، و اخفاق الحضارة المعاصرة ، و
كان عالما راسخ العلم مرشدا روحيا للاخوان يطلع على
مكائد النفس و مزالقتها ، خطيبا ساحرا يأخذ بمجامع القلوب
و يملك غنان الكلام ، مجاهدا يبذل جهده و وقته و ماله و
نفسه في سبيل الله ، مصلحا اجتماعيا يعرف الامراض

النفسية و الادواء الخلقية و المشكلات الاجتماعية ، سياسيا
محكما لا يساوم على مبدأ ، و لا يؤخذ على غرة ، و يثبت
تفوقه على الاقران في هذا الميدان ، كاتباً بليغاً سهل اللفظ ،
غزير المعنى ، حسن الدعاية لا يتكلف فيه و لا يتمق ، و
كان أباً و أخاً و صديقاً في وقت واحد ، يجد عنده كل حائر
شارد اللب حل مشكلته و يلسم جرحه ، و راحة فؤاده ،
كأنه أنشط من عقال أو فك من اسار ، اسار الشهوة ، أو
اسار الشهية و الوسوسة .

إن داعية و أماما هذا شأنه لا بد له أن يقود أمة ، و
يبنى مجداً ، و يصنع تاريخاً ، يبتكر أسلوباً جديداً للدعوة يجمع
بين الروحية الغيبية الصافية، و العقل المؤمن النير ، و النموذج
العملي الاخاذ ، و السيرة العطرة المنعشة .

و هكذا كان ، فقد هيا الرجل بالتوفيق الالهي الذي
حالفه في كل وقت و بجهوده المتواصلة ، و رحلاته المتوالية و
أعماله الشاقة في حقل الدعوة و اشرافه الشخصي على
مكاتب الاخوان و فروعهم ، و الاتصال العائلي الوثيق
بمشكلاتهم الاقتصادية و الروحية معا ، جيلا عرف بنظره
العف و يده النظيفة و قلبه السليم ، و ثباته على جادة الحق ،

و سمعه و طاعته للمرشد .

لقد بنى أمة فأحسن البناء .

و السمة الثالثة : اتصاله برجال تأثر بهم و استقى من معينهم الصائي ، و قد قيد في مذكراته - كما هو المعلوم - أسماء هؤلاء الرجال و ذكر اتصاله العميق بهم و أثنى عليهم اذ وجد عند القوم حلاوة الايمان عندما تدخل بشاشة القلوب، ذلك الاتصال الذي يمنع الانسان من السقوط في الهاوية ، و يحفظ من فتن الليل و النهار ، و من وساوس الصدر، و شتات الأمر ، و من شياطين الجن و الانس ، و من ظاهر الحياة الدنيا و زينتها ، و يثبت قدميه عند التهديد و الاغراء ، و في مواقف السلطان و الجاه ، و في السراء و الضراء و حين البأس .

هذا السياج المنيع من الاتصال الشخصي - برجال قويت صلتهم بالله ، و خلت قلوبهم من حب الدنيا ، و وصلوا إلى مراتب القبول و اليقين ، و كأنهم رأوا الآخرة رأي العين - حفظ حسن البنا الولد و الشباب و الخطيب و الكاتب و المصلح الاجتماعي و السياسي و مؤسس الجماعة و رائد الدعوة من أخطاء جوهرية يقع فيها بعض كبار

الأذكياء و زعماء الإصلاح حين يترفعون عن الاتصال
الشخصي و التربية الدينية ، تاخذهم العزة بالعلم - و لا
أقول العزة بالاثم - و كأنهم يقولون بلسان ﴿أهؤلاء من الله
عليهم من بيننا﴾ بلى ، و هو كذلك ﴿أليس الله بأعلم
بالشاكرين﴾ .

هذا الاتصال منح حسن البناء قوة تعلو على الأهواء و
الرغبات في سائر المجالات و في جميع أدوار حياته و مواقف
دعوته و بطولته ، و لكنه لم يقبع في زاوية أو حجرة خالية أو
صومعة هادئة بل خرج بهذا الزاد الايماني، خرج بهذا الوقود،
و بهذه الشحنة الجديدة من الايمان إلى ميدان العمل و
الكفاح.

و هنا يختلف الداعية الامام عن بعض هؤلاء من غير أن
يتجنى عليهم أو يلومهم ، لأنه يعرف فضلهم على نفسه و
يرى أثر هذا الفضل في قلبه ، و يشعر بقوة و لذة غريبتين
عندما يقاوم تيار الفساد ، و يصمد أمام الفتنة و الاغراء ،
فكيف يستهين بشأنهم و قد أخذ منهم ما أخذ و تزود منهم
لغدهم ما تزود ، و عرف عندهم لذة روحية لا تساويها لذات
الدنيا بأكملها ، انها لذة الحب و الايمان ، فمزجها بلذة

الجهاد و تحمل الشدائد في سبيل الله و كلمة حق عند سلطان جائر .

و هي ميزة قلما توجد في رجل واحد ، فإما مرشد روحي لا يعرف الحياة ، و اما اجتماعي عامل في حقل الدعوة لا يعرف لذة الروح .

أما الامام فقد جمع الناحيتين الهامتين فأحسن الجمع .

و كان عاملا في ذلك بالحكمة القرآنية .

﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة و لا تنس نصيبك من الدنيا و أحسن كما أحسن الله اليك ﴾^١ .

إن محراب التاريخ الإسلامي محراب واسع كبير .. لا ترى مثله في الحضارات البائدة و لا في الحضارات السائدة ، انه محراب لا يقف فيه إلا عظماء التاريخ الإسلامي و أفذاذهم و عباقرتهم و كبار أساتذة الدعوة إلى الله و الجهاد في سبيل الله بالقلم و اللسان و المهج و الأرواح .

إنه محراب عظيم متنور الارحاء ، متهلل الوجه ، مشرق السمات و الملامح ، محراب يبدأ من خاتم النبيين سيدنا محمد بن عبد الله الهاشمي القرشي ﷺ و أصحابه الاكرمين ثم الذين

^١ سورة القصص الآية : ٧٧ .

يلونهم ثم الذين يلونهم ..

و اني على يقين أن مقام امامنا الشهيد مقام كبير في هذا
الخراب لأنه حمل هذه الدعوة على اكتافه في هذا الزمن الاخير
حينما ظهر الفساد في البر و البحر ، و أصبح فيه القابض على
دينه كالقابض على الجمر .

فهنيئا لك أيها الامام هذا المقام الرفيع .
و هنيئا لك هذا الجيل المؤمن الذي لا يزال على عهدك
و طريقك ، و ان طال الليل و ساد الصمت ، و خيم الظلام .

المحتويات

- ٢ _____ بين يدي الكتاب
- ٥ _____ تقديم الكتاب
- ١٩ _____ العالم الإسلامي على مفترق الطرق
- ٢٧ _____ اسلام "المسلمين"
- ٣٥ _____ طبيعة هذا الدين
- ٥٠ _____ أهلا بهذه المؤتمرات .. و لكن .. !
- ٥٤ _____ موقف المسلمين ازاء الحضارة الغربية
- ٦٢ _____ لغة شقي بها أهلها
- ٧٠ _____ رسالة الحب
- ٧٥ _____ بين الدنيا و الآخرة (١)
- ٨٤ _____ بين الدنيا و الآخرة (٢)
- ٩٧ _____ القلب الصناعي و القمر الصناعي

- ١٠٤ انها الحضارة الإلهية !
- ١١٧ الغرب
- ١١٧ في ضوء التحليل النفسي
- ١٢٦ مقياس الحضارة في المجتمع الإسلامي
- ١٣٩ إلا ان سلعة الله غالية
- ١٣٩ إلا ان سلعة الله الجنة
- ١٤٦ نجم تألق ثم هوى (الدكتور مصطفى)
- ١٥٦ الشعوب تعيش بالرسالة لا بالمال
- ١٦٢ أرادوها جنة فانقلبت جحيما
- ١٧١ الإسلام أوسع من الاصطلاحات
- ١٧٩ جان بول سارتر و الأدب الوجودي (١)
- ١٨٨ جون بول سارتر و الأدب الوجودي (٢)
- ١٩٨ بناء الانسان أفضل أم بناء العمارات ؟ !
- ٢٠١ همسات إلى جزيرة العرب ..

- ٢٠٩ فيتناميات جديدة
- ٢١٥ دولة لا تغرب عنها الشمس
- ٢٢٢ كيف نؤدي دورنا في بناء العالم المعاصر ؟...
- ٢٣٢ المنهج الإسلامي للحكم
- ٢٣٨ النظام الإسلامي في معركة الأفكار
- ٢٥٠ عاهة الشيوعية
- ٢٥٦ العالم الإسلامي يبحث عن شخصيته
- ٢٦٣ مراجعة الحساب
- ٢٧٠ الدرس الأول من حرب رمضان
- ٢٨٤ من وحي الزمان و المكان
- ٢٩٢ حسن البناء في محراب التاريخ الإسلامي